

بالجنة

أبو بكر
عمر
عثمان
على
الزبير
طلحة
عبد الرحمن
سعد
سعيد
أبو عبيده

رضي الله عنهم

الأستاذ الدكتور

محمد رجب البيومى

أستاذ وعميد كلية اللغة العربية سابقاً

عضو مجمع البحوث الإسلامية



المبشرون بالجنة

الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م

بطاقة الفهرسة

البيومي ، محمد رجب
المبشرون بالجنة / بقلم د. محمد رجب البيومي .- ط ١ .- المنصورة :
دار الكلمة للنشر والتوزيع ، ٢٠٠٨م
٢٥٦ص ، ٢٠سم
تدمك : ٦-٣٠٨-٣١١-٩٧٧
١- الإسلام - تراجم
٩٢٢,١
أ- العنوان .
رقم الإيداع: ٥١٧٨ / ٢٠٠٨م



دار الكلمة للنشر والتوزيع - مصر - المنصورة

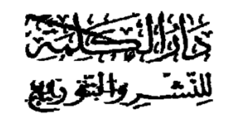
المنصورة-ص.ب. : ١٦٧ ت ف : ٢٢٣٤٥٠٣ / ٠٥٠
محمول : ٠١٠٩٧٠٧٤٩٥
e_mail: mmaggour@hotmail .com

المبشرون بالجنة

بقلم الدكتور

د/ محمد رجب البيومي

عضو مجمع البحوث الإسلامية





بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

طُلِبَ مني أن أتحدث عن صحابة رسول الله حديثًا مبسطًا يناسب طلبة المدارس الثانوية وما في مستواها ليكون لهم أسوة حسنة .

وقد اخترت أن أبدأ بحديث العشرة المبشرين بالجنة هادفًا إلى الإفادة العامة المباشرة دون تحليل مستطرد كي أؤدي الرسالة التي من أجلها وُضع الكتاب .

وحين عرضت الشخصيات الثلاث الأولى على من كلّفني بهذه المهمة ، رغب أن أعدل إلى أسلوب أشد تبسيطًا فعمدت إلى ما يشبه القصص فيما بقي .

وإذا حاز هذا الكتاب ارتياح القارئ الناشيء فأرجو أن يوفقني الله إلى متابعة حديث الصفوة من الصحابة .

وبالله التوفيق

د. محمد رجب البيومي

(أبو بكر الصديق)

سيرةُ أبي بكر أشهرُ من أن تُعرَّف ـ ولكنّي أقدّم للشبيبة فقراتٍ من حياته ، لا لتدل على مكانته فهي بالمحلّ الأرفع ولكن لتكون موطن الاقتداء ، وهكذا أفعل مع صحابة رسول الله من المبشرين بالجنة والرضوان .

أسرته الأولى

أما الوالد فهو عثمان بن عامر ، ويُكْنَى بأبي قحافة ـ وقد تأخر إسلامه إلى يوم الفتح على أنه كان مُحبًا لولده عطوفًا عليه ، لم يعترض عليه حين أسلم ، بل تركه وما أراد .

كان أبو بكر ذا مالٍ فكان يشتري الأرقاء من المسلمين حين يُعذبهم سادتُهم ، ثم يَعتقهم ابتغاء مرضاة الله ، فجاءه والده عثمان ، وقال له : يا أبا بكر ، أراك تعتق رِقابًا ضعافًا وإذا اخترت عبيدًا أشدّاء نفعوك ، ويقومون من ورائك في كلّ أمرٍ تختاره فابتسم أبو بكر ، وقال : يا أبتي إنما أريد بذلك ما عند الله ، فنزل قوله عز وجل : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ .

وظل أبو بكر راعيًا حق والده وهو في بيته بعيدٌ عنه حتى إذا علم أنه هاجر مع رسول ﷺ إلى المدينة ـ وكان قد أخذ معه مالَه

كلّه ، وقدرُه خمسة آلاف درهم ـ خشِيَ أبو قحافة على بنات أبي بكر ألاَّ يكون لديهم قدرٌ من المال ، فجاء (وقد ذهب بصره ، يقوده غلامه ، وقال لأسماء بنت أبي بكر . والله إني أراه قد فَجَعَكم في ماله كما فجعكم في نفسه ! ماذا ترك لكم أبوكم ؟ وكانت أسماء ذكيةً ماهرة ، فأرادت أن يَطمئن الجدّ ، فقالتْ : تَرك كثيرًا يا جدّي ، فهات يدَك . ثم وَضعتها على الكُوَّة التي كان أبوها يضع فيها ماله بعد أن ألْقت فيها بعض الأحجار ، وغطتها بالثوب ، وهمست في أذنه : يا أبت ضعْ يدك على هذا المال فهو كثير ، فوضع يده عليه ، وارتاح خاطره ، وقال : لا بأس ، لقد ترك لكم ما يكفيكم ، فلا أخافُ عليكم ، قالت أسماء ولا والله ما ترك شيئًا ولكني أردت أن أسكّن خاطره .

وحين جاء يوم الفتح ، ودخل الرسول ﷺ مكة ظافرًا ، أسلم الكثيرون ممن كانوا على الشّرك ، ذَهب أبو بكر إلى بيت أبيه ، ودعاه للإسلام ، فرَّحب ، فصحبه إلى رسول الله في المسجد فلما رآه ﷺ قال لأبي بكر : هلاّ تركت الشيخ في بيته وأنا آتيه ، فقال أبو بكر هو أحقّ أن يمشي إليك ، ثم مسح الرسول صدره ، وأعلن إسلامه .

هذا عن عُثمان والد أبي بكر . أما أمه فهي سلمى بنت صخر وتُكنى بأمّ الخير ، وكانت شخصية مستقلة عن زوجها أبي قحافة ، حيثُ أسلمت مع الرعيل الأول ، وذهبت إلى رسول الله تُعلن إسلامها في دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي ، وقد شَجّعت

ولدها على التفاني في صحبة رسول الله وثوقًا منها بدينه ، وحين رجع إليها جريحًا بعدما أصابه الأذى من المشركين جعلت تسْقيه وتُقدم له الطعام ، وهو يقول لا آكل حتى أعلم ما كان من أمر رسول الله ، فأرادت اطمئنانه ، وتركته إلى دار الأرقم ، فعلمت أنه ﷺ صحيحٌ لم ينَلْهُ أحد بالأذى ، فاستبشرت ورجعت تُطمئنه .. فهدأ واستراح .

نشأته

وُلد أبو بكر بعد سنتين وأشهر من مولد رسول الله ، ونشأ تاجرًا أمينًا عُرف صدقه ووفاؤه ، وكان له برسول الله صحبةٌ قَبْل البعثة الشريفة إذْ أنس به واصطفاه ، وقد ذهب معه إلى الشام في رحلة تجارية ، فزاد تعلقه به ، ونسج على منواله في خُلقه فلم يشرب خمرًا ولم يسجد لصنم . قال أبو بكر : لما ناهزت الحلم أخذني أبو قحافة بيدي وانطلق بي إلى مخدع الأصنام فقال لي : هذه آلهتك الشمّ العوالي ، وخَلاّني وذهب ، فدنوت من الصنم ، وقلت : إني جائع فأطعمني ، فلم أسمع صوتًا ، فقلت : إني عارٍ فاكْسني فلم أسمع صوتًا ، فألقيت عليه صخرةً ، فخر على الأرض فعلمت أنه حجر .

ومن توفيق الله لأبي بكر أنه كان قبل البعثة يتصل بالحنفاء الذين يتعبدون على دين إبراهيم ويسمع منهم ما يقولون ، ومنهم زيد بن عمرو بن نوفل ، وورقة بن نوفل ، وقد ذهب إلى الشام في رحلات تجارية ، وكثر بحثه عن الصواب في دين الله ،

ولا شك أن صلته برسول الله قد قوّت رأيه في احتقار الأصنام ، وجعلته يتهيأ لدين جديد يحس في خاطره تشوقًا إليه دون أن يدرك هداه .

إسلامه

نقل الأستاذ على الطنطاوي عن صاحب الرياض النضرة قوله :

كان أبو بكر خدنًا للنبي ﷺ فلما بعث انطلق رجالٌ من قريش لأبي بكر : فقالوا يا أبا بكر إنّ صاحبك ، قال وما شأنه ؟ « قالوا هو في المسجد يدعو إلى عبادة إله واحد ، ويزعم أنه نبيٌّ . قال أبو بكر رضي الله عنه ، أَوَقَالَ : ذاك ، قالوا : نعم . فأقبل أبو بكر إلى النبي ﷺ ، فطرق عليه الباب فاسْتخرجه فلما ظهر له . قال : يا أبا القاسم ، ما الذي بلغني عنك ، قال : وما بلغك عني يا أبا بكر ، قال بلغني أنّك تدعو إلى توحيد الله ، وزعمت أنك رسول الله . قال نعم يا أبا بكر إنّ ربي جعلني بشيرًا ونذيراً ، وجعلني دعوة إبراهيم ، وأرسلني للناس كافة ، قال أبو بكر : والله ما جرّبت عليك كذبًا ، وأنك لخليقٌ بالرسالة مُدَّ يدَكَ فإنيّ أبايعك !

ولي تعليق على هذه الراوية التي ذكرها الأستاذ الطنطاوي ، فإن أبا بكر أول رجلٍ أسلم ، ولمْ يعلن الرسول دعوته بالمسجد إلاّ بعد انقضاء العهد السري للدعوة ، حين نَزل قوله الله :

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ وإنّما الذي يُعقل أنّ أبا بكر علم برسالة الرسول منه ﷺ وهو صديقه الأوّل ؟ إذ كان أول رجل تحدّث إليه ، فسارع بتصديقه دون ريب ، لثقته فيه ، ولذلك قال عليه السلام : « ما دعوت أحدًا إلى الإسلام إلاّ كانت له كبوةً غير أبي بكر ») .

دفاعه عن الرسول ﷺ

وقد تعرض رسول الله ﷺ لإيذاء سفهاء قريش . فكان أبو بكر رضي الله عنه يقف دونه محاميًا ، قالتْ أسماء بنت أبي بكر حين سُئلت : ما أشدَّ ما رأيت المشركين بلغوا من رسول الله ﷺ ؟ قالت : كان المشركون قُعوداً في المسجد الحرام ، فَتَذاكروا رسول الله ﷺ ، وما يقول في آلهتهم ، فبينما هم كذلك إذ دخل رسول الله ﷺ المسجد فقاموا إليه ، وكانوا إذا سألوه عن شيء صَدقهم . فقالوا : أنت تقول في آلهتنا كذا وكذا ، قال : بلى : فشبثوا به بأجمعهم ، فأتى الصريخ أبا بكر : أدْرك صاحبك ، فخرج أبو بكر ، فوجد رسول الله ، والناس مجتمعون عليه ، فقال ويحكم : أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، فَلَهَوْا عن رسول الله وأقبلوا على أبي بكر يضربونه ، فرجع إلينا وهو يقول : تباركت يا ذا الجلال والإكرام ، وزاد عمرو بن العاص في روايته فقال : ضربوه ، وصدّعوا فوق رأسه ، مما جبذوه بلحيته ، وكان رجلاً كثير الشعر .

كرمه في افتداء الأرقاء

كان أبو بكر رقيق القلب ، فجعل يتألم لما يصيب الأرقّاء من العبيد من أذىً حين يسلمون ، فكان يشتريهم ويعتقهم ابتغاء مرضات الله ، ومنهم بلال ، وعامر بن فهيرة ، وزنيرة ، وأمّ عبيس ، وغيرهم كثير ، وحديثه مع بلال مشهورٌ متداول ، فقد مرَّ به وقد أخرجه سيده أمية بن خلف في حرِّ الظهيرة ، فطرحه على الأرض وجاء بالصّخرة الثقيلة ، فوضعها فوق ظهره ساخنةً محماة ، ويقول له : لا تزال هكذا ، حتى تموت أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللات والعزّى ، فيردَ عليه : أحدٌ أحد ، فقال أبو بكر لأميّة ألا تتقي الله في هذا المسكين ، حتى متى ؟ فقال أمية : أنت أفْسَدته فأنقذه مما ترى ، قال أفعل ، عندي غلامٌ أجْلد منه وأقوى فأعطيكه به قال : قد قبلت ، فأعطاه أبو بكر غلامه وأخذه ، ولم يلبث أن أعتقه ، وأعتق معه على الإسلام ستَّ رقاب .

الصديق

كان الصديق زميل رسول الله في صباه وهو يعرف عنه أمانته وصدقه ، فكان إذا حدّث عَن ربه ، وتعجّب المشركون مما قال ؛ صاح به أبو بكر ، صدقت ! صدقت ، فسُمي الصديق ؛ لأنه لم يشك لحظة واحدة في كلمةٍ قالها رسول الله .

ولما أسري بالنبي ﷺ من مكة إلى المسجد الأقصى ورفعه الله

إلى السموات العلى وإلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام ، ثمّ عاد إلى مكة ، أصبح فأخبر الناس برحلة الإسراء ، فدُهشوا ، وجعل المشركون يَهزءون ويسخرون مما تخيلوه وهمًا لا حقيقة وكانوا يعلمون أن أبا بكر يصدق الرسول في كل ما يقول ، فقالوا في نفوسهم لا يجرؤ على تصديقه هذه المرة ، وانتظروا حتى إذا مرّ بهم ، وهم في ملإ من قومهم ، صاحوا به ، ما تقول في صاحبك الذي زعم أنه أُسري به من مكة إلى القدس في ليلة واحدة ؟ فقال لهم : إذا كان قال ذلك فقد صدق ! وما يعسر على نبيّ ذلك وهو صاحبُ معجزات ، فخيب آمالهم ، ونظر بعضهم إلى بعض حائرين .

(الرحلة للحبشة)

لمّا ابتلى المسلمون بالمكروه ، وخشوا على أنفسهم هاجر فريق منهم إلى الحبشة ، ورأى أبو بكر أن يكون مع المهاجرين ، فرحل مع الراحلين ، حتى إذا بلغ موضعًا يُقال له « برك الغماد» لقيه ابن الدغنّة » وهو سيد القبيلة ، فقال له : إلى أين يا أبا بكر ؟ وعلام تترك مكة ؟ فقال أبو بكر : أخرجني قومي ؛ لأنـي أعبد الله فأردت أن أسيح في الأرض كيلا يصدّني أحدٌ عن سبيل ربي ، فقال ابن الدغنة : مَهْلاً يا أبا بكر ، إن رحيلك عن مكة خسارة كبرى للفقراء والمساكين ؛ إنك لتصل الرحم وتعين على نوائب الدهر ، وما يبلغ أحد من الناس مبلغك فارجع معي إلى مكة وسأخبر القوم أنك في جواري فلا يعترضك أحد ، فاستمع

أبوبكر له ورجع معه لما يعرف من مكانته لـدى قـريش ، وحـين قدمًا إلى مكة نهض ابن الدغنَّة إلى القوم فقال لهـم : أبـو بكـر في جواري ولن يؤذيه أحد بعد اليوم ، فقال قائلهم ، ولكنـه يصـلي في المسجد بصوت مرتفع يفتن الناس ! قال ابن الدغنة : سيصلي في منزله ويترك المسجد ، وفعلاً امتنع أبـو بكـر عـن الصـلاة في المسجد ، وبنى في منزله مُصلًى جعل يقرأ القرآن بصـوت شـجي فتهافت الشباب على سماعه ، وعرفت قريش أن بيت أبـي بكـر قد صار كالمسجد في تأثيره فبعثوا إلى ابن الدغنة ، فقدم علـيهم ، وقالوا له : وقع ما كنا نخشاه ، حيث جعل أبو بكر منزله مسجدًا آخر وكاد يفتن الشباب بصوته الشجي حـين يقـرأ القـرآن ؛ فـإن أحب أن يقتصر على العبـادة دون الـتلاوة فعـل ، وإلا فسَـلْه أن يردّ إليك جوارك ، فأتى ابن الدغنة أبا بكـر وناقشـه فيمـا يقـول القوم ، فقال أبـو بكـر في صـراحة حازمـة ، لقـد رددت عليـك جوارك ، وسأرضى بجوار الله عز وجل ، ورجع ابـن الدغنـة إلى « برك الغماد » ، ولم يرجع ، أبو بكـر عـن صـلاته بمنزلـه وعـن قراءة القرآن ، كما كان يفعل ، ووقاه الله كل مكروه .

الهجرة

تتحدث عائشة رضي الله عنها عن الهجرة فتقول : إن رسـول الله ﷺ كان يأتي منزل والـدها طـرفي النهـار إمـا الصبـاح وإمـا العشية ، حتى كان يـوم الهجـرة فرأينـاه يـأتي إلينـا في الظهـيرة ، فعرفنا أن الأمر جـد ، وأخبرنـا والـدي بـذلك ، ففـرح بلقائـه ،

وقال : فداؤه أبي وأمي ما جاءَ في هذه الساعة إلا لأمر وَخَفَّ لاستقباله ، فلما تم اللقاء قال له ﷺ : قد أذن لي يا أبا بكر في الخروج فقال أبو بكر : الصحبة يا رسول الله . فقال : نعم .

ثم حان ميعاد الرحيل ، فأعد أبو بكر راحلةً مع راحلته وتركهما في حوزة غلامه ، ولم يكن يعلم برحيلهما غير علي رضي الله عنه ، حيث أخبره الرسول بذلك ، وأمره أن يبيت على فراشه فرحَّب مستبشرًا ، وقال له : لا تأتِ إلى المدينة حتى تؤدي الودائع التي لدي للناس ، فكان الأمر كذلك ، ثم إن المشركين حين فسدت مؤامرتهم الشنيعة في اغتيال رسول الله طاش صوابهم ، وأخذوا يبحثون عنه في كل مكان ، ووزعوا أنفسهم في شتى النواحي ، ثم أرادوا أن يذهبوا إلى دار أبي بكر ، فرأى أبو جهل ذلك إذ كان في أعنف مواضع غضبه ، حيث دبر المؤامرة ثم خاب تدبيره ، فتقدم عدو الله إلى أسماء بنت أبي بكر وسألها عن والدها ، فقالت : لا أعلم شيئًا ، فرفع يده وضربها على خدها ضربةً أطارت قرطها من أذنها ، فما فزعت ، ونظرت إليه في احتقار ، وقد خرج مع النبي ﷺ ورفيقه وهو مولى لأبي بكر يسمى عامر بن فهيره يصحبهم دليلٌ اختاره أبو بكر يسمى عبد الله بن الأريقط ، وأمره أن ينتظر فلا يرحل إلا بعد ثلاث فيأتيهما في غار ثور ، وذلك ما كان .

غار ثور

غار ثور جبل بمكة يعرفه أبو بكر ، وقد رآه موضع أمنٍ ،

فاتخذه مستراحًا مع صاحبه ، وحين قدما إليه تقدم أبو بكر إلى رسول الله ﷺ وقال له : ناشدتك الله ، لا تدخله قبلي ، حتى لا يكون به حيوان ضار فيصيبك ، وتقدم جريئًا غير هياب وجعل يتلمسه فوجد به شقًا ، فشق ثيابه وسد به هذا الخرق ؛ كيلا يخرج منه ما يؤذي ، وهذا يدل على حرصه الشديد على حياة رسول الله ﷺ كما يدل عليه نظامه في السير معه إلى الغار من مكة ، إذ كان يتقدم ويتأخر ، ويلتفت ذات اليمين وذات الشمال ، فسأله رسول الله عن ذلك ، فقال : أتحسس القوم فإنهم لابد يبحثون عنا ، وحول الغار تقدم المشركون ، إذ تتبعوا آثار الأقدام فوجدوها تنتهي إلى الغار ، ولكنهم وجدوا العنكبوت مخيمًا ، والحمامة تحضن فرخيها . فذهلوا ، وقالوا : لو دخل الغار لانخرق العنكبوت ، فهو لابد بعيد عنه ، وسمعهم أبو بكر ، ففزع ، فقال لرسول الله ، لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدمه ، لأبصرنا ، فقال له رسول الله ﷺ : لا تحزن إن الله معنا ، يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟

وقد مكثا في الغار ثلاث ليال يبيت معهما عبد الله بن أبي بكر ، وهو غلامٌ شاب ، جعل يحمل الطعام عند العشاء ، ويرجع في السحر فيختلط بالناس ويسمع كل ما يقال ، وتم نصر الله فنجحت الرحلة ، واستقبلهما الأنصار بالفرح والابتهاج ، وكانوا أكثر من خمسمائة ، فصار المشهد عظيمًا ، ولما رجع عبد الله بن أريقط إلى مكة أخبر عبد الله بن أبي بكر بمكان أبيه

بالمدينة ، فخرج مع أسرته دون انتظار وظل أبو بكر بجوار رسول الله كما كان بمكة موضع استشارته ونجواه .

شجاعة أبي بكر

وفي غزوة بدر طلب رسول الله من أصحابه أن يبنوا له عريشًا في آخر الجيش ، فيجلس فيه مراقبًا سير المعركة ، وهو مكانٌ خطير بالنسبة للمشركين . فهم يحرصون على اغتيال رسول الله فيهدأ بالهم مما يكابدون ، وهو يتطلب حارسًا شجاعًا أمينًا ، فكان أبو بكر هو الحارس ، إذ أصرَّ على أن يقف بسلاحه ومعه السيف والسهام ، ليمنع من تحدثه نفسه بالاقتراب ، ودارت المعركة ، وهو يرمي السهامَ من موضعه لتصيبَ من تصيب من الكفار ، غير غافل عن مهمته الكبرى ، وقد تعجب المسلمون من بسالة هذا الرجل الهادئ في مظهره ، حتى إذا جد الجِدُّ صار ليثًا وثابًا يحمي العرين .

ولم يكن أبو بكر شجاعًا فحسب ، بل كان كريمًا وافر السخاء ، ما احتاج المسلمون إلى مال إلا كان في طليعة المتبرعين ، وقد تجهز الجيش في بعض الغزوات ، ووفق العادة يقوم بالتبرع في تجهيز الجيش كلُّ ذي مال ، وكان أبو بكر في طليعة المتبرعين عن سخاء ، وأراد عمر بن الخطاب في بعض المواقف أن يتفوق عليه ، إذ قال في نفسه : إني كل مرة يسبقني أبو بكر ، فأعدَّ مالا كثيرًا ، أعد نصف ماله وصحبه إلى رسول الله ، فقال له ﷺ : وماذا أبقيت لأهلك يا عمر ؟ فقال ابن الخطاب : أبقيت نصف

مالي يا رسول الله ! فشكره النبي وأثنى عليه ، ثم جاء أبو بكر ومعه من المال ما قدر عليه ، وكان كثيرًا ، فتعجب رسول الله ﷺ ، وسأله : ماذا أبقيت لأهلك يا أبا بكر ؟ فأجاب في ثقة : أبقيت لهم الله ورسوله ! وسمع عمر فتبسم وقال : أبو بكر السابق في كل شيء .

أسرى بدر

ولما صدق الله وعده وحلت الهزيمة بالمشركين ، إذ قتل منهم سبعون وأسر سبعون ، شاور رسول الله أبا بكر وعمر وعليًا رضي الله عنهم في أمر الأسرى ، فقال أبو بكر : يا رسول الله : هم بنو العم والعشيرة والإخوان ، وأرى أن نأخذ منهم الفديةَ ، فيكون ما أخذنا منهم قوةً ، وعسى الله أن يهديهم فيكونوا قوةً للإسلام ، فسكت رسول الله ثم قال لعمر رضي الله عنه : وما تقول أنت يا بن الخطاب ؟ فقال عمر : لا والله أرى أن تمكنني من فلان فأضرب عنقه ، وتُمَكِّنَ حمزَة من أخ له فيضرب عنقه ، وتمكن عليًا من عقيل أخيه فيضربَ عنقه ، حتى تعلم الناس أن ليس في قلوبنا هوادة للكفار .

وقال عبد الله بنُ رواحة : يا رسول الله : انظر واديًا كثير الحطب ، فأدخلهم فيه ، ثم أضرمه عليهم نارًا ، وسكت رسول الله فلم يرد ! وجعل فريق من المسلمين يقولون : سيأخذ برأي أبي بكر ، وفريق آخر يقول : سيأخذ برأي عمر ، ثم خرج رسول الله ﷺ فقال : إن الله ليلين قلوبًا حتى تكون ألين من

اللبن ، وإن الله ليشدد قلوبًا حتى تكون أقسى من الحجارة ، ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى حين قال : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ، ومثلك يا عمر مثل نوح حين قال : ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ ، ومثل موسى حين قال : ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ . ومال رسول الله إلى قول أبي بكر فآثر إطلاق الأسرى وقبول الفدية .

ويروى - والحديث عن معركة بدر - أن عبد الرحمن بن أبي بكر ، كان في جيش المشركين ، فلما أسلم قال لأبيه : كنت قريبًا منك ولم أصبك بشيء ، فقال أبو بكر : ولكني لو تمكنت منك لأصبتك ! وهذا يبين أن الإسلام أحب إلى المسلم من الأهل والولد كما قال الله عز وجل : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ .

يوم الحديبية

حين وافق رسول الله ﷺ على الصلح يوم الحديبية ، لم يكن عمر مع رأيه في ذلك ، فتقدم إلى رسول الله ﷺ ، وقال : يا

رسول الله ؛ ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ قال : بلى ، فقال عمر : فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟ فقال رسول الله : يا عمر : إني رسول الله ، ولست أعصيه وهو ناصري ، قال عمر : أولست حدثتنا أننا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال رسول الله : أو أخبرتك أننا سنأتيه هذا العام ؟ قال : لا ، قال : فإنك آتيه وتطوف به .

ومضى عمر إلى أبي بكر ، فقال يا أبا بكر : أليس هذا نبي الله حقًا ؟ قال : بلى ، قال عمر : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال أبو بكر : بلى . قال عمر : فلم نعطي الدنية في ديننا ؟ قال أبو بكر : أيها الرجل : إنه رسول الله وليس يعصيه وهو ناصره ، فاستمسك ولا تخالفه ، فوالله إنه على الحق ، قلت : أوليس كان يحدثنا أننا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال : أفأخبرك أنك تأتيه هذا العام ؟ قلت لا : قال : إنك آتيه ومطوف به !

صلاته بالناس

تحدثت عائشة فقالت : لما ثقل المرض على رسول الله ﷺ جاء بلال يؤذنه بالصلاة فقال : مروا أبا بكر فليصل بالناس ، قالت عائشة : فقلت يا رسول الله إن أبا بكر رجل شديد الحزن سريع البكاء ، وإنه متى يقم مقامك لا يسمع الناس ، فلو أمرت عمر بن الخطاب ، فقال : مروا أبا بكر فليصل بالناس ، فقلت لحفصة : قولي له إن أبا بكر رجل أسيف بمعنى : أنه سريع الحزن

وإنه متى يقم مقامك لا يُسمع الناس ، فلو أمرت عمر ، فقال ﷺ : إنكُنَّ صواحبُ يوسف ، مروا أبا بكر فليصل بالناس ، فعلم أبو بكر : فقام وصلى ، فلما دخل في الصلاة ، وجد رسول الله ﷺ من نفسه خفَّةً فقامَ يمشي بين رجلين يعتمد عليهما لضعفه ، فَلَمَّا دخلَ المسجدَ تنبه أبو بكر لمقدمه ، فذهب يتأخر كي يصلي رسول الله بالناس ، فأومأ إليه رسول الله ، بمعنى أقم مكانك ، فاستمر في الصلاةَ ، وذهب رسول الله حيث جلس عن يسار أبي بكر ، فكانَ يصلّي جَالسًا ، وَأبو بكرٍ يُصلي قائمًا .

يومَ الوفاةِ

كان انتشار نعي رسول الله مصدر فزع للمسلمين ، فقد دُهشوا دهشة الحبيب لمفارقة حبيبه على غير انتظار ، وهذه الدهشة لم يسلم منها عمر بن الخطاب على قوة بأسه ، وصلابة عزمه ، فقد أزعجه أن نفرًا من المنافقين أخذوا يشيعون النعي وكأنهم مستبشرون ، فقام خطيبًا وقال : إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله قد توفي ، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران حين غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل إنه مات ، والله ليرجعن رسول الله كما رجع موسى ، فليقطعن أيدي رجال وأقدامهم زعموا أنه قد مات ، وهنا أقبل أبو بكر وكان غائبًا خارج المدينة ، ووجد عمر في غضب بين الناس ، فدخل بيت عائشة وشاهد رسول الله مُسجًّى على فراشه ، فكشف عن وجهه ، وقبَّل جبينه ، وقال بأبي أنت

وأمي ، ثم خرج حيث يجتمع الناس ، وسمع حديث عمر ، فقال على رسلك يا ابن الخطاب ، ثم اتجه إلى مكان آخر ، ونادى الناس قائلاً بعد أن حمد الله وأثنى عليه : أيها الناس إنه من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ . فكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر ، قال عمر : فوالله ما سمعت أبا بكر يتلو هذه الآية ، حتى وقعت على الأرض ما تحملني رجلاي ، وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات .

مبايعة أبي بكر

لما قبض رسول الله ﷺ أراد الأنصار تولية سعد بن عبادة ، وأراد المهاجرون تولية خليفة رسول الله منهم ، وطال الجدال بين القوم حتى وفق الله فانتهى الأمر باختيار أبي بكر في محادثات لا نطيلها إذ العبرة بالخاتمة ، وقد حسم الأمر حين مد عمر بن الخطاب يده لأبي بكر ، وقال له ابسط يدك أبايعك ، فقال أبو بكر : أنت أقوى مني ، فقال عمر : إن قوتي لك مع فضلك ، وقال أبو عبيدة لا ينبغي لأحد أن يكون فوقك يا أبا بكر ، أنت صاحب الغار مع رسول الله ، وثاني اثنين وأمرك رسول الله حيث اشتكى أن تصلي بالناس ، وتتابع المسلمون فبايعوا أبا بكر ،

وقام الخليفة فألقى كلمة قال فيها بعد أن حمد الله وأثنى عليه .

« أيها الناس ، إني وليت عليكم ، ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوي حتى أرد عليه حقه إن شاء الله تعالى ، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ منه الحق ، ولا يدعُ قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم ، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله .

جيش أسامة

كان رسول الله ﷺ قد هيأ جيشًا لغزو الروم بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة ، وبينما الناس يبدءون الرحيل وفيهم عمر بن الخطاب إذ جاء الخبر بمرض رسول الله . فوقف أسامة بالجيش حتى تمت البيعة واستخلف أبو بكر ، وكانت بوادر الردة قد ظهرت من بعض العرب فانقلبوا كفارًا بعد إيمان ، فرجع عمر بأمر أسامة إلى أبي بكر : وقال له : إن العرب قد ارتدت على أعقابها كما علمت ، وذهاب جيش أسامة بصفوة المسلمين قد يبعدك عمن تحتاج إليهم في قمع المرتدين ، فقال أبو بكر : لو علمت أن السباع ستنهشني ما حللت لواء عقده رسول الله . فقال عمر : إن الأنصار أمروني أن أبلغك ، وهم يطلبون أن تولي رجلاً أقدم سنًا من أسامة ، فوثب أبو بكر وكان جالسًا ،

فأخذ بلحية عمر ، وقال : ثكلتك أمك يا ابن الخطاب : أتريدني أن أخالف ما قام به رسول الله ؟ لقد استعمل أسامة أفأرده ؟ ثم نادى المنادي بالمدينة لا يبقين أحد من جند أسامة إلا خرج إلى عسكره ، ونهض أبو بكر فشيع الجيش ماشيًا ، وأسامة راكب ، فقال له أسامة : يا خليفة رسول الله ، والله لتركبن أو لأنزلن ، فقال أبو بكر : والله لا تنزل ، ووالله لا أركب ، وما عليَّ أن أغبر قدمي ساعة في سبيل الله ، ثم قال لأسامة : اصنع ما أمرك به رسول الله ، ابدأ ببلاد قضاعة ، ثم آتِ آبل ، ولا تُقصّرنَّ في شيء من أمر رسول الله ، وما فصل أسامة عن المدينة حتى كفرت الأرض ، وارتدت القبائل إلا قريشًا وثقيفًا .

حركة الردة

قام أبو بكر في مواجهة المرتدين مقامًا منفردًا ، اثبت صلابة عزيمته ، وقوة إرادته ، مما جعل المسلمين يعلمون عنه من شدة الشكيمة ما كانوا يجهلون ، بل إن عمر بن الخطاب نفسه فوجئ بموقف أبي بكر إذ كان يظنه أقرب إلى المهادنة ، ولكن الواقع أبدى غير ما ظن .

لقد ارتدت القبائل في الجزيرة العربية لأمور مختلفة ، منها تطلع شيوخها إلى مكانة عالية ، مثل مكانة الخليفة في المدينة ، وجاءت وفاة رسول الله تثبت لهم أن أبا بكر فردٌ مثلهم ، وليس له أن يتحكم في أمورهم ، ومنها ضيقهم الشديد بما فرضه الإسلام من قيود تمنع عبث الجاهلية وشرورها ، فتُحرم السلب

والنهب ، وتنهى عن الزنا والربا والخمر ، وتحفظ حرمات الإنسانية أن يَعْصِفَ بها الجموح الشيطاني ، وكان هذا التذمر خافيًا لدى بعض القبائل في حياة الرسول ، فلما انتقل إلى الرفيق الأعلى هبت الريح فجأة عاصفة بالقيم والمبادئ ، بل إن بعض القبائل قد أظهرت تمردها علنًا قبل وفاة النبي إذ ادعي النبوةَ من ظن أن ادعاءه سيجعله رئيسًا مطاعًا في قومه ، كما ثبتت نبوة رسول الله ، ففي نجد ظهر طليحة بن خويلد الأسدي زعيم قبيلة بني أسد ، وزعم أنه نبي يُوحى إليه كما أُوحِيَ إلى محمد وقد جعل معجزته أنه كشف عن عين ماءٍ في الصحراء كانت خافية ، وهي مصادفة تحصل لكل إنسان ، حتى لذوي البلاهة ممن يجلسون على الرمل فيجدون رطوبة تدعوهم إلى الحفر فينبع الماء ، ولما كان في بني أسد تطلعٌ للرئاسة ، فقد حسبوا أن ظهور نبي بينهم مما يجعلهم أصحابَ مجدٍ سياسي في الجزيرة ، فانقادوا له مذعنين ، وقد أرسل رسولُ الله إليه كتيبة بقيادة ضرار بن الأزور » فلم يستطع مقاومتها وفر هاربًا ، وسكنت الثائرة ، حتى إذا ذاعت وفاة رسولِ الله وسمع بارتداد بعض القبائل رأى الفرصة سانحة لأن يعلن نبوته من جديد .

هذا في نجد أما « بنو حنيفة » في اليمامة فقد خدعهم مسيلمة ببهتانه ، وتجرأ فأرسل إلى رسول الله كتابًا يعلن فيه أنه نبي مثله ، وأن الأمر مشترك بينه وبينه ، وأنشأ كلامًا مسجوعًا يزعم أنه أوحي إليه به على لسان جبريل ، فرد عليه رسول الله بما فضح

كذبه ، ولكنه تمادى في غيه ، ولم يذهب له من جيوش المدينة ما يعصف بقوته ، لانشغال الرسول بما هو أخطر ، حتى إذا فارق رسول الله ﷺ الدنيا ، وذاع الخبر في بني حنيفة ، تمادى مسيلمة في غلوائه ، وأعلن نبوته ، فانقاد إليه بنو حنيفة ، وكلهم أمل في أن يصبحوا كقريش بعد إسلامها عزةً ومهابة ، وأن ينافسوا المدينة عاصمة الإسلام ، ومقر الخلافة ، وانتقلت الفتنة إلى بني تميم ، فادعت النبوة امرأة لا رجل ، هي « سجاح بنت الحارث اليربوعية » ، ورأى « مسيلمة » أن يضمها إليه ليتفقا معًا أمام المسلمين إذا حضرت جيوشهم للقتال ، وكان في « بني تميم » من يأنف من زعامة امرأة مهما بلغت من القوة والنفوذ ، فلما تعاقدت مع مسيلمة وتزوجته ، أصبحت الزعامة في يد مسيلمة ، فوافق « التميميون » على زعامته ، وآمنوا بنبوته ظاهرًا ، وإن كانوا في الباطن يشكون ولا يتيقنون .

ولم تقتصر الفتنة على الشمال بل عمت الجنوب ، حين ادعى (الأسود العنسي) الساحر نبوته ، وأتى بشعوذات موّه بها على اليمنيين ، وانتشر له ذكر في عهد رسول الله ، لأن (اليمن) كانت مقسمةً إلى أجزاء على كل بلد والٍ ، من قبل « النبي ﷺ » ، وذلك ما جعل الولاة ضعفاء من الناحية الحربية فلم يستطيعوا تعبئة جيشٍ موحد لردع هذا الدعي ، لاسيما أن بعض رؤساء القبائل (اليمنية) قد نفوا أن يكون الولاة من المدينة ، وهم أولى برياسة بلادهم ، فانضموا إلى الأسود العنسي على ظنٍّ أنه

يستطيع بقوته المجتمعه أن يقف في وجوه المسلمين ، وواصل دعوته حتى شملت ما بين (البحرين) و (ساحل البحر الأحمر) ، وصار ذا قوةٍ يحسب حسابها ، وتهيأ (الرسول) لحربه ، وكانت نهايته على يد (زوجته) التي اغتصبها من (شهر ابن باذان) والي (اليمن) بعد أن قتله ، فأضمرت له البغضاء وعزمت على الثأر ، حتى تمكنت منه مع بعض المتآمرين فقتل في ليلة داجنة وهو صريع الشراب .

هذه هي التيارات العاصفة التي واجهها أبو بكر منذ تولي الخلافة ، تياراتٌ تشمل الجزيرة العربية كلها جنوبًا وشمالاً ، وشرقًا وغربًا بحيث لم يبق في حوزة الإسلام غير المدينة ومكة والطائف ، هذا إلى تحفز الروم لقتال المسلمين والعمل على استئصالهم بعد أن صاروا موضع خطر محقق للروم – وكان موقف المسلمين من الحرج بالغًا أقصى درجات الخطورة ، وفيهم قلةٌ رأت الاستسلام للواقع ، إذ أن المسلمين لا يقدرون على حرب القبائل والروم وأشياع الفرس في وقت واحد فماذا كان بعد ذلك؟

حوار ونقاش

اتفق الصحابة – في أكثرهم – على وجوب حرب من ارتد عن الإسلام ، وكفر بالله بعد آدائه الشهادتين ولكنهم اختلفوا ، هل يحاربون من آمن بالله ورسوله وامتنع عن أداء الزكاة ، أو يمتنعون عنه ما دام معترفًا بالإسلام ؟ وهل يجوز قبول بعض الدين من هؤلاء والإغضاء عن البعض الآخر ، نظرًا لحرج

الموقف ، وكان عمر بن الخطاب يرى هذا ! ولكن أبا بكر عارضه في قوة ، وقال : والله لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه ، وراجعه عمر قائلاً : تألف المسلمين فإنهم كالوحش الهائج حتى يثوبوا إلى رشدهم ، فقال أبو بكر غاضبًا : لقد رجوت نصرتك يا عمر فأبيت إلا الخذلان ! أجبارٌ في الجاهلية وخوار في الإسلام ؟ لقد انقطع الوحي ، وتم الدين أفينقص وأنا حي ؟ قال عمر : وكيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإن قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها ؟ فقال أبو بكر : أليس يقول إلا بحقها ؟ ومن حقها إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، والله لو خذلني الناس جميعًا لقاتلتهم وحدي .. وتأمل عمر فوجد قول أبي بكر حازمًا صحيحًا ، وقد قال فيما بعد لقد شرح الله صدر أبي بكر للقتال ، والله لقد رجح إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأمة جميعها في قتال أهل الردة .

حروب الردة

اشترك في (حروب الردة) أبطال كبار عينهم أبو بكر بمشورة كبار الصحابة ، فكان اختياره لهؤلاء الأكفاء أول طرق النصر وليس سبيلنا في ترجمة أبي بكر رضي الله عنه أن نتحدث عن وقائع حروب الردة ، فلها كتاب خاص يفصل وقائعها ، ولكننا نذكر قائمة الجيوش التي توجهت باختيار أبي بكر إلى المرتدين وعددها إحدى عشرة فرقة وهي كما يلي :

١- الفرقة الأولى بقيادة خالد بن الوليد إلى بني أسد حيث تتجه إلى قتال (طلحة الكذاب) ، فإذا فرغت منه اتجهت لقتال مسيلمة مع من ذهب إليها من المسلمين .

٢- الفرقة الثانية : بقيادة عكرمة بن عمرو بن هشام ، حيث تتجه إلى قتال (مسيلمة) الكذاب (وبني حنيفة) .

٣- الفرقة الثالثة : بقيادة شرحبيل بن حسنة ، مساعدًا لجيش عكرمة ، فإذا فرغا من مسيلمة قصدا منازل قضاعة (الغساسنة) على حدود الشام .

٤- الفرقة الرابعة : بقيادة المهاجر بن أبي أمية إلى اليمن لقتال أتباع « الأسود العنسي » بصنعاء ومعونة المسلمين هناك .

٥- الفرقة الخامسة : بقيادة (حذيفة بن محصن) إلى ثوار عمان على شاطئ بحر فارس .

٦- الفرقة السادسة : بقيادة (عرفجة بن هرثمة) إلى أهل مهره ، مع الاتصال بالفرقة الخامسة للتعاون في القتال .

٧- الفرقة السابعة : بقيادة (سويد بن مقرن) إلى (تهامة) .

٨- الفرقة الثامنة : بقيادة (العلاء بن الحضرمي) إلى البحرين .

٩- الفرقة التاسعة : بقيادة (طريفة بن حاجز) إلى منازل سليم وهوازن .

١٠- الفرقة العاشرة : بقيادة (عمرو بن العاص) إلى قضاعة وبني وديعة وبني الحارث .

١١- الفرقة الحادية عشرة : بقيادة (خالد بن سعيد بن العاص) إلى مشارف الشام .

وهذا التخطيط الدقيق وليد جهدٍ عقلي كبير قام به (أبو بكر) مع مستشاريه من أجلاء الصحابة ، وقد عاد على المسلمين بالفوز ، فخمدت حركة المرتدين ، وسلم الإسلام من أعظم هوَّة فاجأته بعد وفاة رسول الله بحزم أبي بكر .

الفتوح الإسلامية

بعد أن نجح (أبو بكر) في إطفاء ثورة « المرتدين » ، اتجه إلى نشر الإسلام خارج الجزيرة العربية ، وأول ما حركه إلى فتح العراق ما جاءه من أنباء البطل العظيم (المثنى بن حارثة الشيباني، حيث كان يغير بقومه من العرب على سواد العراق ، فيحرز النصر ، وقد سأل (الخليفة) عنه (قيسَ بنَ عاصم المنقري) فقال : هذا رجلٌ غير خامل الذكر ولا مجهول النسبَ ، هذا (المثنى بن حارثة الشيباني) ، وقد كانت للمتني فراسةٌ في أهل فارس فعرف أن الترف أنهكهم ، وأنهم يحكمون العرب بالرعب والإرهاب لا بما لديهم من قوة ، فهجم على جيوشهم ، وهي شجاعةٌ معدومة النظير ، إذ كيف يقوم بطلٌ مفرد ، وليس معه غير قبيلته بمهاجمة إحدى دولتين تملكان القوة الباطشة في العالم دون خشية أو وجل ، وإذ ذاك استدعى أبو بكر (خالدًا) من اليمامة ، وأمره بالمسير إلى العراق من أسفله ، وكذلك استدعى (عياض بن غنم) وهو فارس مشهور الوقائع وأمره أن

يأتي العراق من أعلاه ، كما كتب إلى (المثنى) يأمره بالطاعة لخالد ، وبهؤلاء الأبطال بدأت المعارك الظافرة ، وتم نصر الله على ما هو مسجل في كتب التاريخ .

ثم فكر أبو بكر في غزو الشام ، وليس ذلك بمستبعدٍ على مثله ، فالشام عربية احتلها الرومان ، وقد اضطهدوا العرب ، وحاولوا اقتحام المدينة على عهد رسول الله ، لولا أنه ﷺ فاجأهم بغزوة (تبوك) فأحجموا عن لقائه ، وكانت مهمة الجيش الإسلامي بالغة الصعوبة ، لأن الرومان هم الرومان ، ولم يشأ (أبو بكر) أن يحرم من أسلموا يوم الفتح من شرف الجهاد ، ليعوضوا ما فاتهم من الكفاح على عهد رسول الله ، فكان من أبطال جيوشه (يزيد بن أبي سفيان) ، و (عكرمة بن أبي جهل) ، و (سهيل بن عمرو) ، وقد تأكدت بشائر النصر الحاسم يوم (اليرموك) حين اجتمع الأمراء تحت لواء (خالد) ، ومن الطريف أن النساء قد أبلين في هذه المعارك بلاء عظيمًا ، وقد حانت منية أبي بكر والمعارك مشتعلة فلم يضعف ذلك من شأن المسلمين .

جمع القرآن

من مآثر أبي بكر أنه حين رأى كثرةَ من استشهدوا من القراء يوم اليمامة ، إذ استشهد بها ثلاثة آلاف من القراء فيهم من حفظة القرآن ما يقارب المائة ، فاستشار أصحابه إلى ما انتهى إليه رأيه من جمع القرآن ، وندب إلى ذلك كاتب الوحي زيد بن ثابت الأنصاري ، فنهض بالعمل وجمع من الصدور وما كتب في

الرقاع كل ما نزل من القرآن الكريم ، وعرض ما جمع على نفر من الحفاظ أصحاب رسول الله ﷺ ، فكلهم أجمع على حسن صنيعه ، وصدق ترتيبه ودوّن ذلك في مصحف جامع ظلّ عند الخليفة ، وكان في هذا العمل خدمة جذيلة لكتاب الله تعد الأولى إذ أعقبتها خدمة عثمان ﷺ حين جمع الناس على نسخة واحدة.

(اختياره عمر من بعده)

خاف (أبو بكر) على وحدة المسلمين من التفرق ، إذا ترك الأمر دون أن يحدد خليفته ، والمعارك الحربية لا تزال مشتعلة في الشام وفارس ، فاستشار صحابة رسول الله ﷺ حين اختار عمر ابن الخطاب ، وكلهم قال فيه خيرًا ، ولكنّ عبد الرحمن بن عوف قال : هو والله أفضل ، ولكن فيه غلظة ، وقال طلحة ما كنا نحتمله وأنت موجود فكيف لو بلغك الأجل ، فرد أبو بكر قائلاً إن يتشدد فلأنه يعلم أني سألين ، ولو كان وحده لترك التشدد ، وقد استدعى عليًا وعثمان فأظهرا القبول دون اعتراض ، وكتب بذلك عهدًا قال فيه « إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ، فإن بر وعدل ، فذلك ظني به وعلمي عنه ، وإن جار وبدل فلكل امرئ ما اكتسب ، والخيرَ أردت ، ولا علم لي بالغيب ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء:٢٢٧] ، وقد بايع الجميع عمر بن الخطاب ولم يتخلف أحد .

نماذج من أخلاقه

أخرج الإمام أحمد عن ربيعة الأسلمي ﷺ ، قال : جرى بيني

وبين أبي بكر كلام ، فقال : كلمة كرهتها ، وندم ، فقال : ياربيعة ، رد عليّ مثلها متى يكون قصاصها ، قلت : لا أفعل ، فقال : لتقول أو لأستعدين عليك رسول الله ، فقلت : ما أنا بفاعل ، فانطلق إلى رسول الله ﷺ ، وجاء أناس من أسلم فقالوا : رحم الله أبا بكر في أي شيء يستعدى عليك ، وهو الذي قال لك ما قال ؟ فقلت : أتدرون من هذا ؟ هذا ثاني اثنين إذ هما في الغار ، إياكم أن تنصروني فيلتفت فيجدكم هكذا فيغضب فيأتي رسول الله فيغضب لغضبه ، فتهلك ربيعة ، وجاء رسول الله فسألني عن الأمر فقلت : يا رسول الله كان كذا وكذا ثم قال كلمة كرهتها ، ثم قال لي : قل كما قلت حتى يكون قصاصا فأبيت ، فقال ﷺ : أجل لا ترد عليه ولكن قل : يغفر الله لك يا أبا بكر .

وأخرج ابن عساكر عن أنيسة قالت : نزل فينا أبو بكر ثلاث سنين قبل أن يستخلف ، وسنة من بعدها ، فكان جواري الحي يأتينه بغنمهن فيحلبها لهن .

وقال ابن عساكر عن أبي صالح الغفاري أن عمر بن الخطاب كان يتعهد عجوزًا ، فكان إذا جاء وجد غيره قد سبقه فأصلح ما أراد ، فجاءها غير مرة ليرصد من يجئ قبله وانتظر فإذا هو أبوبكر ، وهو الخليفة يومئذ ، فقال عمر : أنت هو لعمري .

وفاته

حين اشتد عليه المرض أوصى عائشة أن يُدفن إلى جنب رسول الله ﷺ ، وأشار إلى ثوبيه فقال : اغسلوهما ، وكفنوني فيهما فإن الحي أحوج إلى الجديد من الميت ، وإذا مت من ليلتي

فلا تنتظروا بي إلى الغد ، فإن أحب الليالي إليَّ أقربها إلى رسول الله ، ثم جاءه الأجل ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادي الآخرة ، في السنة الثالثة عشرة من الهجرة ، وله من العمر ثلاث وستون سنة ، ومدة ولايته سنتان وثلاثة أشهر وبضعة أيام .

رحمه الله وأجزل له مثوبة المجاهدين .

*****

عمر الفاروق

نشأة أولى

عاش عمر بن الخطاب في الجاهلية ثلاثين عامًا ، ولكنه كان نابهًا مرموقًا ، إذا وقع خلاف بين قريش وبين بعض القبائل كان سفير قريش ، يناقش ويدلل ، ويتفق على الحل النهائي فتذعن قريش لأمره ، وأبوه الخطاب كان يغلظ عليه في تربيته ، فشب قويًا جلدًا يعتمد على نفسه ، وكان لعمر رحلةٌ إلى عكاظ يستمع فيها إلى الشعراء والخطباء ، ولذلك شب مشغوفًا بالشعر الجيد ، وحتى في أيام خلافته كان يوازنُ بين شعراء الجاهلية ويفضل زهيرًا على الجميع .

إسلامه

أسلمت (فاطمةُ بنت الخطاب) ، أخت عمر وأسلم زوجها (سعيد بن زيد) ، وكان (عمر) يشتد على المسلمين ، ويؤذي من يقْدر على إيذائه ، حتى قابل (نعيم بن عبد الله النحام) ، فرآه غاضبًا ، فسأله لم تغضب يا عمر ؟ فقال : من أمر هذا الصابئ (يريد رسول الله) الذي فرق أمر قريش وسفَّه أحلامها ، وعاب دينها ، فقال نعيم : اعلم يا عمر أن أُخْتَكَ وزوجَها على دين محمد ، فلم يحتمل عمر أن يسمع هذا النبأ ، وذهب من فوره إلى منزل أخته ، وقرع الباب بشدة ، ففزع مَنْ بالمنزل ، وكانوا يقرءون من صحيفة في أيديهم ، وقامت فاطمة ففتحت الباب

فرأت الشر في وجه أخيها ، ولم يدعها تفكر في أمرها ، بل سألها ، سمعت صوت قراءة عندكما . فماذا كنتما تقرءان ، فأجاباه بما أفزعه ، ونهض إلى سعيد زوج أخته فصارعه فصرعه ، وجلس على صدره ، وجاءت أخته تدافع عن زوجها . فنفحها بيده ، فدمى وجهها ، فقالت له في غضب : يا عدو الله أتضربني لأني أسلمت لله ..؟ فسكت عمر ، ورأى الصحيفة التي كانا يقرآن ما فيها ، فهمَّ بأخذها ، فقالت له : لا يلمسها إلا طاهرٌ ، فتوضأ ، ولأمرٍ لا يعلمه إلا الله أدركت عمر ونُيةٌ فقام وتوضأ ، وأخذ الصحيفة ، وجعل يقرأ قول الله : ﴿ طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ . فخشعت نفسه ، ثم داوم القراءة حتى وصل إلى قول الله : ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ . .

فتوقف ثم قال : ينبغي لمن يقول هذا ألا يعبد سواه ! دلوني

على محمد .

وكان أحد الصحابة مختبئًا حين دخل عمر ، فأمن على نفسه ، وقال مبتهجًا : أبشر يا عمر ، فإني رجوت أن تكون قد سبقت فيك دعوة رسول الله حين قال : « اللهم أعز الإسلام بأحد هذين الرجلين : عمر بن الخطاب أو عمرو بنِ هشام » . فلم يلبث عمر أن قام من مكانه ، وقال : دلوني على محمد ، فلما عرفوا منه الصدق ، قالوا : إنه في أسفل الصفا ، فأخذ عمر سيفه ونهض إلى هناك ، ودق الباب ، فلما سمع مَنْ سمع صوته وجلوا ، وتقدم حمزةُ ففتح الباب ، فقابله رسول الله بالبشر ، وقال : « اللهم اهد قلبه » ، فقال عمر : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، فكبَّرَ المسلمون تكبيرةً واحدةً سمع صوتها من بالخارج .

ولم يشأ عمرُ أن يَنْضَمَّ دون عمل إيجابي ، فقال لرسول الله : ألسنا على الحق يا رسول الله ؟ فقال ﷺ : بلى ، والذي نفسي بيده إنكم لعلى الحق ، إن متم أو حييتم ، فقال عمر : ولم الاختفاء ؟ والذي بعثك بالحق لنخرجن ، فأذن رسول الله بالخروج ، وخرج المسلمون في صفين يتقدم أحدهما عمر : ويتقدم الآخر حمزة بن عبد المطلب ، حتى دخلوا المسجد ، ونظر المشركون إلى المسلمين يأتون الحرم مُعلنين دون تهيب ، فدخلتهم كآبة لم تُصبهم من قبل . وسَمَّى رسولُ الله عمرَ (الفاروقَ) من يومئذ .

لم يشأ عمر أن تجهل قريش إسلامه ، فجعل لا يقابل أحدًا إلا

أعلن له أنه أسلم ، وكان يعرف أن « جميل بن معمر » مذياع لا يكتم أمرًا ، فناداه وقال له : تحدَثْ بشأني إلى قريش فأنا قد أسلمت . وجعل القوم يضربونه ويضربهم مهما تكاثر جمعهم حتى يئسوا منه ، وممن دافع عنه « العاص بن وائل » السهمي والد عمرو بن العاص حيث أجاره ، وقال للملأ من قريش : لا سبيل لكم عليه ، ثم قابل عمر رسول الله ، وقال له : والذي بعثك بالحق ما من مجلسٍ جلست فيه بالكفر إلا أظهرت فيه الإيمان غير هياب ، ولن يُعبد الله سرًا بعد هذا اليوم وكان إسلام عمر في السنة السادسة من البعثة بعد إسلام حمزة رضي الله عنه بثلاثة أيام من ذي الحجة .

هجرة عمر

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : ما علمت أن أحدًا من المسلمين هاجر ظاهرًا بارزًا غير مختفٍ إلا عمرَ بن الخطاب ، فإنه لما هَمَّ بالهجرة ، تقلّد سيفه ، وأخذَ قوسه ، ومضى إلى الكعبة ، والمشركون من قريش مجتمعون ، فطاف بالبيت سبعًا ثم صلى ، وجعل يقف على الحلق واحدة واحدة ، ويقول لهم : « شاهت الوجوه ، من أراد أن تثكله أمه ، أو ييتم ولده ، أو ترمل زوجته ، فليتبعني وراء هذا الوادي » فأحجم الكفار عنه ولم يستطيعوا الرد عليه !

فراسة عمر

لما وقعت غزوة بدر ، وهزم المشركون ، جلس « عمير بن وهب الجمحي مع صفوانَ بن أمية » يتأوهان لمصرع المشركين في

بدر وكان عُمير بن وهب شيطانًا من شياطين قريش ، فقال لصفوان : لولا أن عليَّ دينًا ، ولي عيال بمكة لركبت إلى المدينة فقتلت محمدًا ، فقال له صفوان : عليَّ دينك وأنا أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالي لا ينقصهم شيء ، فاذهب ، فأخذ عمير سيفه وشحذه وسمه ، واتجه إلى المدينة ، فلما رآه عمر بن الخطاب يدخل المسجد قال : هذا الكلب عدو الله عميرُ بن وهب ما جاء إلا لشر وهو الذي هيج علينا يوم بدر ، ثم سارع فدخل على رسول الله ، فقال له : يا نبي الله هذا عدو الله عميرُ بن وهب جاء متوشحًا بالسيف ، قال رسول الله : فأدخله ، فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه في عنقه فطوقه بها ، وقال لرجال من الأنصار : ادخلوا على رسول الله واجلسوا عنده ، واحذروا هذا الخبيث فإنه غير مأمون ، ثم دخل عمر به على رسول الله ، فقال ﷺ : لما رأى عمر آخذًا بحمالة سيفه ، أرسله يا عمر ، ادن يا عمير ، فدنا عمير وسلم سلام أهل الجاهلية ، فقال ﷺ : اقرأ سلام أهل الجنة ، فقال عمير : إني لحديث عهدٍ بهذا السلام ، قال النبي : فماذا جاء بك ؟ فقال : جئت لأفك أسيرًا عندكم ، قال : فما بال السيف في عنقك ؟ قال : قبحها الله من سيوف ، وهل أغنت عنا شيئًا ، قال : أصدقني ، ما الذي جئت له ، قال : ما جئت إلا لذلك ، فقال رسول الله : بل قعدت أنت وصفوانُ بن أمية في الحجر ، فذكرتما أصحاب القليب من قريش ، ثم قلت : لولا دينٌ عليّ ، وعيالٌ عندي لخرجت حتى أقتل محمدًا ، فقال صفوانُ : أتحمل عيالك ودينك فاذهب ، ولكن الله حائلٌ بينك وبين ما تريد! قال عمير : أشهد أنك لرسول الله . هذا أمرٌ لم

يحضره إلا أنا وصفوان ، فالحمد لله الذي هداني وساقني إليك .

حديث أسرى بدر والحديبية

ذكرت في تاريخ أبي بكر موقف عمر من أسرى بدر ، وموقفه يوم الحديبية فلا أعود إليهما وهذا الكتاب يغني سابقه عن لاحقه .

عمر وأبو سفيان

لما أحست قريش بأن رسولَ الله سينتقم منهم للغدر بحليفه ، أرسلوا أبا سفيان إلى المدينة ليذكر بعقد صلح الحديبية ، ويزيد في المدة ، فجاء واتجه إلى منزل ابنته أم حبيبة ، فلما توجه ليجلس على فراش رسول الله ، طوته عنه ، فقال : يا بنية ، لا أدري أرغبت بي عن هذا الفراش ، أم رغبت به عني ، قالت : هو فراش رسول الله ، وأنت رجلٌ مشرك نجسٌ لا أحب أن تجلس على فراش رسول الله ، فقال : لقد أصابك يا بنية بعدي شر .

ثم خرج حتى أتى رسول الله فكلمه فلم يرد عليه بشيء ، فذهبَ إلى أبي بكر ليكلم رسول الله ، فقال : ما أنا بفاعل ، ثم أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فكلمه ، فقال مستنكرًا : أأنا أشفع لكم إلى رسول الله ، والله لو لم أجد إلا الذر لقاتلتكم به ، ثم خرج فدخل على علي بن أبي طالب ، وعنده فاطمة بنت رسول الله ، وعندها الحسن وهو طفل صغير ، فقال يا علي : إنك أمس القوم بي رحمًا ، وإني قد أتيتك في حاجة ، فلا أرجعن

كما جئت خائبًا ، فاشفع لي إلى رسول الله ، فقال : ويحك يا أبا سفيان ، لقد عزم رسول الله على أمر لا نستطيع أن نكلمه فيه ، فالتفت إلى فاطمة ، فقال : يا ابنة محمد ، هل لك أن تأمري ابنك هذا ، فيجيرن الناس بشفاعته لجده فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ، فقالت : ما يجير أحد على رسول الله ، فقال له علي : قم يا أبا سفيان والحقْ بأرضك .

وعندما رأى عمر بن الخطاب في الرحلة إلى مكة أبا سفيان وقد خرج يستطلع أمر القادمين ، قال له : الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد ، ثم اشتد يركض نحو رسول الله ، فقال له : يا رسول الله ، هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عهد ولا عقد ، فدعني أضرب عنقه ، فقال العباس عم رسول الله : وكان حاضرًا لقد أجرته يا عمر ؟ وجعل عمر يكلم رسول الله في شأن أبي سفيان ، فغضب العباس وقال : مهلاً يا عمر لو كان أبو سفيان من رجال بني عدي قومك ما قلت ذلك! ولكنك عرفت أنه من بني عبد مناف ، فقال عمر : مهلاً يا عباس ، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إليَّ من إسلام الخطاب لو كان حيًا ، لأني أعرف أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله من إسلام الخطاب لو أسلم .

حادث زوجات الرسول

تحدث عمر فقال : إني كنت وجارًا من الأنصار في دار بني أمية بن زيد ، وهي في أعلى المدينة ، وكنا نتناوب النزول على

رسول الله ، فينزل يومًا ، وأنزل يومًا ، وكنا معشر قريش نغلب النساء ، فلما قدمنا على الأنصار ، إذ همْ قومٌ تغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يتعلمن من الأنصار ، فصِحتُ على امرأتي ، فأنكرت أن تراجعني ، فقالت : ولم تنكر أن أراجعك ، فوالله إن أزواج النبي ليراجعنه وإن إحداهن لتهجره اليوم حتى الليل ، فأفزعني ذلك ، ثم جمعت ثيابي فدخلت على حفصة ، وقلت : أتغاضب إحداكن رسول الله حتى الليل ، قالت : نعم ، فقلتُ : خِيبت وخسرت ، أفتأمنين أن يغضب الله لغضب رسوله ؟ لا تستكثري على رسول الله ولا تراجيعه في شيء ، وسليني ما بدا لك .

وكنا نترقبُ أن تغزونا غسّان ، فجاء صاحبي بأعلى المدينة إلى منزلي فزعًا ، فخرجت أقول له دهشًا ، أجاءت غسان ؟ فقال : لا بل أعظم من ذلك وأهول ، طَلق رسول الله نساءه ، قلتُ : قد خابت حفصة وخسرت ، كنت أظن أن هذا يوشك أن يكون فجمعت عليّ ثيابي ، فصليت صلاة الفجر مع رسول الله ، فدخل مشربةً فاعتزل فيها ، فدخلت على حفصة فإذا هي تبكي قلت : ما يبكيك ؟ أولم أكن حذرتك ، أطلقكن رسول الله ؟ قالت : لا أدري هوذا في المشربة ، فخرجتُ فجئت المنبر ، فإذا حوله رهطٌ يبكي بعضهم ، فجلست معهم قليلاً ثم غلبني ما أجد فجئت المشربة التي هو فيها ، فقلت لغلام له : استأذن لعمر ، فدخل فكلم النبي ﷺ ، ثم خرج ، فقال : ذكرتُك فصمتَ ،

فانصرفت فجلست مع الرهط عند المنبر ، ثم غلبني ما أجد ، فجئت الغلام ، فقلت : استأذن لعمر ، فذكر مثله ، فلما وليت منصرفًا فإذا الغلام يدعوني ، فقال : أذن لك رسول الله ، فدخلتُ عليه فإذا هو مضطجع على حصير ليس بينه وبينه فراش ، قد أثر بجنبه ، متكئ على وسادة من جلد ، حشوُها ليف ، فسلمت عليه ، ثم قلت وأنا قائم : أطلقت نساءك ؟ فرفع بصره إليّ فقال : لا ، ثم قلت : وأنا قائم : يا رسول الله ، لو رأيتني وكنا معشر قريش نغلب النساء ، فقدِمْنا على قومٍ تغلبهم نساؤهم ، فتبسم النبي ﷺ ، ودخلت على حفصة فقلت : لا يغرنك أن كانت جارتك هي أوضأ منك وأحب ، ثم جلست إلى رسول الله ، ورفعت بصري في بيته ، فوالله ما رأيت فيه شيئًا يرد البصر غير ثلاثة جلود ، فقلت : ادعُ الله ، فليوسع على أمتك ، فإن فارس والروم وسع عليهم وهم لا يعبدون الله ، وكان متكئًا ، فقال : أفي شكٍ أنت يا ابن الخطاب ، أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا ، فقلت يا رسول الله : استغفر لي ، ثم خرج .

(موقف عمر عند وفاة رسول الله واختيار أبي بكر للخلافة)

ذكرنا من قبل في حديث أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ ما يتعلق بموقف عمر عند وفاة رسول الله ﷺ كما ذكرنا موقفه في بيعة أبي بكر بالخلافة ، فليرجع إليهما من أراد .

اختياره للخلافة

حين اشتد المرض على أبي بكر في أخريات أيامه ، لم يشغله ذلك عن أمر المؤمنين ، بل أخذ يفكر في حال الأمة بعد وفاته ، وعلى من يجتمع الرأي في الخلافة ، فأخذ يجتمع بالصحابة ويستشيرهم فيمن يقوم بالأمر من بعده ، وقد سأل عليًا عن عمر فقال : اللهم إن علمي أن سريرته خيرٌ من علانيته ، وأن ليس فينا مثله ، واستشار كبار الصحابة فكلهم قال خيرًا عن عمر ، أما طلحة بن عبيد الله ، فقال لأبي بكر : ماذا أنت قائلٌ لربك ، إذا سألك عن استخلافك عمر علينا ، وقد ترى غِلظته ، فقال أبو بكر : أبالله تخونني ؟ أقول لربي اللهم إني استخلفت عليهم خير أهلك .

ثم دعا أبو بكر عثمان ، فقال : اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما عهد به أبو بكر خليفة محمد رسول الله ﷺ عند آخر عهده بالدنيا ، وأول عهده بالآخرة ، في الحال التي يؤمن فيها الكافر ويتقي الفاجر ، إني استعملت عليكم عمر بن الخطاب ، فإن برَّ وعدل فذلك علمي به ، وإن جار وبدل فلا علم لي بالغيب ، والخير أردت ، ولكل امرئ ما كسب ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .

ثم أمر بالكتاب فختمه ، وأمر عثمان أن يخرج به إلى الناس ، فبايعوا عمر ورضوا به ، وقال أبو بكر بعد أن تم ذلك : اللهم

إني لم أرد بذلك إلا صلاح الناس ، وقد خفت الفتنة ، فعملت فيهم بما أنت أعلم به ، واجتهدت فوليت عليهم خيرهم ، وأقواهم عليهم ، فاخلفني فيهم فهم عبادك ، واجعله من خلفائك الراشدين .

خطبة عمر عند ولايته

كان الناس يجتمعون في الأفنية وحول المسجد أيام أبي بكر ، وحين تولى عمر أخذوا يتفرقون ، ويقولون : سننظر ما يكون من أمره ، فبلغه ذلك ، فنادى (الصلاة جامعة) ، ثم جلس على المنبر حيث كان أبو بكر يضع قدمه ، فلما التأم الجمع قام وحمد الله بما هو أهله ، وصلى على نبيه ، ثم قال :

« بلغني أن الناس هابوا شدتي ، وخافوا غلظتي ، وقالوا : قد كان عمر يشتد علينا ورسول الله ﷺ بين أظهرنا ، ثم اشتد علينا وأبو بكر والينا دونه ، فكيف وقد صارت الأمور إليه ؟ ومن قال ذلك فقد صدق ، فقد كنت مع رسول الله فكنتُ عبده وخادمه ، وكان من لا يبلغ أحد صفته من اللين والرحمة ، كان كما قال الله عز وجل : ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة:١٢٨] ، فكنت بين يديه سيفًا مسلولاً حتى يغمدني ـ أو يدعني ، فأمضي ، فلم أزل مع رسول الله ﷺ على ذلك حتى توفاه الله ، وهو عني راض ، والحمد لله على ذلك كثيرًا ، وأنا به أسعد ، ثم ولي الأمر أميرُ المسلمين أبو بكر فكان من لا تنكر دعته ولينه وكرمه ، فكنتُ خادمه وعونه ، أخلط شدتي بلينه ، فأكون سيفًا مسلولاً حتى

يغمدني ، أو يدعني فأمضي ، فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله إليه ، وهو عني راض ، والحمد لله على ذلك كثيرًا ، وأنا به أسعد ، ثم إني قد وليت أموركم أيها الناس ، فاعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت ، ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدي على المسلمين ، أما أهل السلامة والدين والقصد ، فأنا ألين لهم من بعضهم لبعض ، ولست أدعُ أحدًا يظلم أحدا أو يتعدى عليه حتى أضع خده على الأرض ، وأضع قدمي على الخد الآخر حتى يذعن للحق ، وإني بعد شدتي تلك أضع خدي على الأرض لأهل العفاف ، وأهل الكفاف .

ولكم عليّ أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذوني بها ، لكم عليّ ألا أجتبي شيئًا من خراجكم ولا مما أفاء الله عليكم ، إلا من وجهه ، ولكم عليَّ إذا وقع في يدي مال ألا يخرج مني إلا في حقه ولكم عليّ أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله وأسد ثغوركم ، ولكم علي ألا ألقيكم في المهالك ولا أحجركم في ثغوركم في البعث ، وأنا أبو العيال حتى ترجعوا إليهم . فاتقوا الله عباد الله ، وأعينوني على أنفسكم بكفها عني ، وأعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإحضاري النصيحة فيما ولاني الله من أمركم ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

الفتوح الإسلامية

امتدت الفتوح الإسلامية في عهد عمر امتدادًا مباركًا حتى تم في أيامه فتح بلاد الشام ومصر والعراق وفارس ، وأطراف

إفريقية ، وكلها وقائع كللت بالنصر ، وتفصيلها يخرج بنا عما نوجزه من سيرته ؛ لأن هذه الفتوح تتصل بأبطال عظام مثل (المثنى بن حارثة) ، و (القعقاع بن عمرو التميمي) ، و (النعمان بن مقرن) ، و (خالد بن الوليد) ، و (سعد بن أبي وقاص) ، و (عمرو بن العاص) ، و (أبي عبيدةَ بن الجراح) ، وغيرهم ، وكل بطل من هؤلاء الأبطال يحتاج إلى كتاب خاص يضم كفاحه ، ويعلن بطولته الخارقة .

ولكن عمر هو الذي كان يفتتح جهات القتال حين يحدد مكانها وموعدها ، ويختار من القواد من يصلح على يده الأمر وكان يُشيع كل جيش إلى خارج المدينة ، ويذهب كل يوم بعد الرحيل إلى الخارج ليتلقى أنباء الغزو ، ثم يرجع ليرعى شئون العائلات التي غاب رجالها في المعارك ، فيقدم للأسرة ما تحتاجه وفق ترتيب خاص يقوم به من اختاره من الأعوان ، كما كان يُشير بما يلزم من الخطط الحربية في مواقع القتال ، وذلك بما يكتبه إلى القواد من رسائل متتابعةٍ شرقًا وغربًا ، ونضرب لذلك مثلاً برسالته إلى سعد بن أبي وقاصٍ التي يقول فيها :

« أما بعد ، فسِرْ من شِراف نحو فارس بمن معك من المسلمين ، واستعن بهم على أمرك كله ، واعلم أنك تقدم على قوم عددهم كثير ، وعلى بلدٍ منيع ، وإذا لقيتم القوم فابدءوهم بالشد والضرب ، وإياكم والنظر إلى جموعهم الكثيرة ، كي لا تهابوهم ، وإذا انتهيت إلى القادسية فاجعل خيرتك على ثغورها ويكون

الناس بين الحجر والمدر يقظين ، والزم مكانك ولا تبرحه فإنهم إذا أحسوا أنك فارقته رموك بجموعهم ، فإذا أنتم صبرتم لعدوكم ، واحتسبتم قتاله ونويتم الأمانة ، رجوت الله أن تنصروا عليهم ، ثم لا يجتمع مثلهم أبداً ، إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم ، وإن تكن الأخرى كان الحجر من ورائكم فانصرفتم في مدة يسيرة ، إلى أدنى حجرٍ من أرضكم ، وكنتم بها أعلم ، وعليهم أجرأ ، وكانوا عنها أجبن وبها أجهل حتى يأتي الله بالفتح إن شاء الله .

هذا نموذج يغني عن أمثلة كثيرة كتبها لقواده في جميع الجبهات بالفرس والعراق والشام ومصر ، وكأنه حين يحدد الأماكن البعيدة عن عينه قد رآها وأحاط بها خبرًا ، بل بلغ من اهتمامه أنه عزم على أن يترك المدينة ويتوجه إلى المعركة بنفسه قائدًا ، وفِعْلاً مشي ثلاثة أميال خارج المدينة عازمًا على الاتجاه إلى العراق واستخلف عليًا عليها ، فخف إليه نفر من كبار الصحابة ، وأشاروا عليه بعدم الخروج ، وكان مما قاله عبد الرحمن بن عوف : يا أمير المؤمنين اجعل نتيجتها على ، وأقم بالمدينة ، وابعث جندًا ، فإنك إن تهزم فليس ذلك كهزيمة الجيش ، وإنك إن قتلت خشيت ألا يقوم للأمر قائمة من بعدك ، ودار حوارٌ طويل حول منعه عن الذهاب ، فاستجاب إلى مشورتهم ، وقال : إنما أنا كرجل منكم ، عزمت على الخروج حتى صرفني أولوا الرأي بما يشيرون ، وهذا لم يمنعه عن الذهاب إلى بيت المقدس حين اشترط الأسقف أن يتولى عقد الصلح أمير المؤمنين

بنفسه ، ورأى عمر من حقن الدماء أن ينهض لكتابة العقد ، إذا كان ذلك مما يُرضي الخصوم ، وقد استخلف علي بن أبي طالب على المدينة ، وكتب إلى القواد ليوافوه عند مقدمه ، ورأى على بعضهم من حسن اللباس ما أنكره .. وصاح بهم : شدما غيرتكم الدنيا ، أتلبسون هذا الملبس وما شبعتم إلا منذ سنين ، فقالوا : يا أمير المؤمنين إنها تستر الدروع ولولا ذلك ما لبسناها ، قال : الآن فنعم .

ولما خرج عمر إلى الشام مرة أخرى لقيه قواده قرب تبوك ، وأخبروه أن الطاعون قد وقع بأرض الشام ، فجمع صحابة رسول الله وأخبرهم بما كان ، فاختلفوا : فقال قوم معك بقية الناس ، وأصحاب رسول الله ﷺ وما نرى أن تقدمهم على هذا الوباء ، وقال قوم : قد خرجت لأمر وما نرى أن ترجع عنه ، فقال : ابتعدوا عني ، ودعا الأنصار فاختلفوا كما اختلف المهاجرون ، فقال : أبعدوا عني ، فدعوا مشيخة قريش فاتفقوا دون اختلاف على أن يرجع من مكان حل به الوباء ، فاستمع إلى قولهم ، وعارضه أبو عبيدة بن الجراح ، حيث قال له : أفرارًا من قدر الله يا أمير المؤمنين ؟ فقال له : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ، نعم ، نفر من قدر الله إلى قدر الله! أرأيت لو كانت لك إبلٌ هبطت واديًا له عدوتان ، إحداهما خصبةٌ ، والأخرى جدبة ، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله ، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله ، ثم جاء عبد الرحمن بن عوف ، وكان متغيبًا في

بعض حاجته ، فقال : إن عندي في هذا علمًا ! فقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه ، فحمد الله عمر على ما سمع ، وانصرف .

وكذلك فعل عمر حين بلغه أن أهل فارس ، قد تجمعوا من الجبال والسند وخراسان وحلوان يريدون نهاوند حيث يعسكر المسلمون بجنودهم فخاف عليهم ، وأراد المسير من المدينة ليكون قائد الجيش ، فعارضه نفر من الصحابة ، وقالوا له : اكتب إليهم برأيك ، واختر قائدًا محنكًا ، فاختار النعمان بن مقرن ، وعلى يده تم النصر .

من أخلاق عمر

كان عمر شديدًا على أهل البأس ، إذا وقعوا في معصية ، ولكنه كان رقيق القلب أمام البائسين من المسلمين والمسلمات .

قال أبو عبيد : بينما عمر رضي الله عنه نصف النهار يقيل في ظل شجرة ، فرأى امرأةً تنظر إليه وكأنها تريد أن تكلمه ، ولا تعرف أنه أمير المؤمنين ، فدعاها فجاءته فقالت : إنني امرأة مسكينة ، ولي بنون وإن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كان قد بعث محمد بن مسلمة إلينا ، فلم يعطني ، فلعلك رحمك الله أن تشفع لنا عنده ، فنادى عمر غلامه ، وقال : اذهب فأحضر محمد ابن مسلمة ، قالت المرأة ، تعالى إليه أنت فذلك أنجح لحاجتي ،

قال : إنه سيفعل إن شاء الله ، فلم يلبث محمد أن جاء وهو يقول : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، فاستحييت المرأة ، وبادره عمر بقوله : أختار خياركم للصدقة فتهملون ! ما أنت صانع إذا سألك الله عز وجل يوم القيامة عن هذه؟ فدمعت عيناه وسكت ، فقال عمر : إن الله بعث نبيه ﷺ فصدقناه واتبعناه ، وعمل بما أمره الله ، فجعل الصدقة لأهلها من المساكين حتى قبضه الله إليه ، ثم استخلف رسول الله أبا بكر فعمل بسنته حتى قبضه الله ، ثم استخلفني فلم آل أن أختار خياركم ، فأدِّ لها صدقة العام وعامٍ أول ، وما أدري لعلي أبعثك ، ثم دعا لها بجمل فأعطاها دقيقًا وزيتًا ، وقال : خذي هذا حتى تلحقينا بخيبر ، فإنا نريدها ، فأتته بخيبر فدعا لها بجملين آخرين وقال : خذي هذا فإن فيه بلاغًا لكم ، حتى يأتيكم محمد فقد أمرته أن يعطيك صدقة عامين .

وأخرج البخاري والبيهقي عن أسلم قال : خرجت مع عمر ابن الخطاب رضي الله عنه إلى السوق ، فلحقت به امرأة شابة ، وقالت : يا أمير المؤمنين : هلك زوجي ، وترك صبية صغارًا ، وليس لهم زرع ولا ضرع ، وخشيت أن يضيعوا في هذه السنة المجدبة ، وأنا بنت خفاف ابن إيماء الغفاري وقد شهد الحديبية مع رسول الله ﷺ ، فسكت عمر مليًا ، ثم قال : مرحبًا بنسب قريب ، ثم انصرف إلى بعير كان مربوطًا في الدار فحمل عليه غِرارتين ملأهما طعامًا ، وجعل بينهما نفقةً وثيابًا ، ثم ناولها خطامه ، وقال : اقتاديه ، فلن يفنى حتى يأتيكم الله بالخير ، فقال رجل :

يا أمير المؤمنين أكثرت لها ، فقال عمر : ثكلتك أمك ، شهد أبوها الحديبية مع النبي ﷺ ، والله إني لأرى أبا هذه وأخاها ، قد حاصرا حِصنًا ففتحاه ، ثم أصبحنا نأخذ أسهمنا فيه .

قصة طريفة

عن الأحنف بن قيس أنه قال : خرجنا إلى سرية بالعراق ، ففتح الله علينا ، وغنمنا من المال والمأكل والملبس ما لا شيء فوقه ، فلما قدمنا على عمر بن الخطاب أعرض عنا لا يكلمنا ، فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ ، وكلموا ابنه عبد الله ابن عمر فيما فعل بهم أبوه ، وما أبدى من الجفاء ، فقال عبد الله : أن أمير المؤمنين رأى عليكم لباسًا لم يلبسه رسول الله ، ولا الخليفة أبو بكر الصديق من بعده فغضب ، فأتينا منازلنا ، ونزعنا ما علينا من الثياب ، وأتيناه في ملابسنا التي كان يعتادها علينا ، فقام يسلم علينا رجلاً رجلاً ، ويعانقنا رجلاً رجلاً ، حتى كأنه لم يرنا من قبل ، فقدَّمنا إليه الغنائم فقسمها بيننا بالسوية ، وعرض عليه منها سلالاً مليئة بالطعام الجيد ، فشمه فوجده طيب الرائحة ، فسكت قليلاً ثم أقبل علينا بوجهه وقال : يا معشر المهاجرين والأنصار ليقتلن منكم الابن أباه ، والأخ أخاه على مثل هذا الطعام ، ثم أمر فحمل به إلى أولاد من قتلوا بين يدي رسول الله من المهاجرين والأنصار ثم نظرنا إلى ملبس عمر فلم نجده تغير عما كان يلبسه أيام رسول الله ، وقد فتحت على يديه ديار كسرى وقيصر ، وطرفا الشرق والغرب ، والعجم يأتونه

فيجدون عليه هذه الجبة المرقعة ، فقال أحدنا : لو سألتم أصحاب رسول الله من خلصاء عمر أن يُبدل هذه المرقعة بما يليق بمقام أمير المؤمنين ، فقال القوم : لا يقدر على هذا غير علي بن أبي طالب فإنه أجرأ الناس عليه ، وصهره على ابنته ، فإن لم يكن عليًا ، فابنته حفصة فهي زوج رسول الله ، وهو يعرف موضعها من النبي ، وأنها من أمهات المؤمنين ، فجاءوا إلى علي فقال : لست بفاعل ، ولكن عليكم بأزواج رسول الله ، فذهبوا إلى عائشة فقبلت أن تكلمه ، وذهبت إليه فقالت شيئًا عن سيرة رسول الله وأبيها أبي بكر ، ثم هجمت على الموضوع ، فقالت : لقد فتح الله على يديك كنوز كسرى وقيصر ، وحمل إليك أموالها ، وعليك هذه الجبة المرقعة ، ويغْدَى عليك بجفنةٍ من الطعام ، تأكل منها ما تأكل مع أصحابك! فنظر إليها عمر مليًا ثم قال : هل تعلمين يا عائشة أن رسول الله ﷺ شبع يومًا من خبز ؟ وأنه جمع بين العشاء والغذاء كثيرًا ، وهل تعلمين أن رسول الله كان يأكل الطعام على مائدةٍ ، أو أنه يوضع أمامه على الأرض ؟ قالت : اللهم نعم . فقال : هل تعلمين أن رسول الله كان يرقد على عباءةٍ في طاقة واحدة ببيتك يا عائشة ، قالت : نعم . قال : فلماذا تريدين أن أخالف نهج رسول الله ؟ أتعلمين أن رسول الله قد غفر له الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وهو لا يزال ساجدًا ضارعًا آناء الليل وأطراف النهار ؟ قالت : نعم . فاستحيت عائشة مما سمعت ، وقامت فأخبرت القوم بما قال عمر! فانصرفوا متعجبين !

ولما قدم عمر بن الخطاب في رحلته إلى أيلة ومعه المهاجرون والأنصار دفع قميصًا مرقعًا له إلى أسقف كي يغسله ، فأتاه الأسقف بقميصه بعد أن غسله ومعه قميص جديد ، وقال له : هذا هدية إليك ، فرده عمر ، وقال في ابتسام : هذا أنشفهما للعرق ، ولن أحتاج إلى سواه .

عام الرمادة

تحدث الكثيرون عن رفق عمر بالفقير ، وكيف كان يحمل الطعام على ظهره أثناء الليل لامرأة تلد ، وكيف جعل زوجته في خدمتها حتى استراحت ، تحدث الكثيرون عن أمثال ذلك من قصص تُروى مؤكدة رفق أمير المؤمنين ، وتقديره للمسئولية الملقاة على عاتقه ، وأنا أكتفي في هذا المجال بموقف في عام الرمادة حين امتنع المطر عن الجزيرة العربية عامًا كاملاً ، وعم القحط ربوعها المترامية بما تحوي من أناس وحيوان ونبات ، ورأى الفاروق أنه مسئول عن إطعام هؤلاء الجائعين .

أمر عمر بالاقتصاد وجعل يقترح ما يناسب من الطعام ، وقدم نفسه مثالاً فكان يأكل مع أهله الثريد بالزيت ولا يزيد ، وقد جاءته هدية من جار له فيه لحم جزور ، فأوصى بإرسالها إلى أرملة فقيرة جواره ، وقال : أنا آكل مما يأكل عامة الناس ! وهم لا يجدون الثريد فضلاً عن لحم الجزور ، وكانت أمعاءه تقرقر لما كثر بها من الزيت الذي لا يريد طعامًا سواه لنفسه ، فكان يقول لها قرقري ما تشائين فلن تجدي ما تشتهيه حتى يأكل جميع

المسلمين ؟

يقول أبو هريرة رضي الله عنه : رحم الله عمر ، رأيته عام الرمادة وهو يحمل على كتفه جرابين ، وفي يده زجاجة زيت ، وأمامه غلامه أسلم يحمل مثل ما يحمل ، فقال لي : كن معنا يا أبا هريرة ، فشاركته ما يحمل حتى انتهينا إلى نحو عشرين بيتًا من قبيلة محارب ، فنهضوا يشتكون الجوع لأمير المؤمنين ، فرأيت عمر قد طرح رداءه ، وأحضر ما يحمل من الزاد ، وجعل يطبخ للقوم بنفسه ، فإذا نضج الطعام أخذ يقدمه للآكلين والناس يجتمعون حوله متلهفين حتى أشبعهم جميعًا ، ثم أرسل أسلم إلى المدينة فجاء بنياق حملهم عليها إلى المدينة ، وكان يختلف إليهم حتى زالت المحنة .

وراسل عمر عماله في بلاد الشام والعراق ومصر ليسعفوه بما لديهم من الطعام ، وقد كتب إلى عمرو بن العاص واليه على مصر يقول له : من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العاص بن العاص ، سلام عليك وبعد أفتراني هالكًا ومن قبلي وتعيش أنت ومن قبلك ، فوا غوثاه ثم وا غوثاه ، فكتب له عمرو : « سلامٌ عليك فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو ، فقد أتاك الغوث ، ولأبعثن إليك بعير أولها عندك ، وآخرها عندي ، وفعلاً أرسل إليه ألف بعير محملة بالطعام ، مع عشرين سفينة تحمل السمن والدقيق ، كما بعث بخمسة آلاف كساء ، وبعث معاوية من الشام ثلاثة آلاف بعير محملة بالدقيق وثلاث آلاف عباءة ،

وبعث سعد بن أبي وقاص من العراق بألف بعير ، وانتدب عمر الثقات من رجاله ليستقبلوا ما يرد من الولاه ، ومعهم الأوعية والغرائر ليفرقوا على أهل البوادي ما يحتاجون إليه ، وأمرهم أن يذبحوا الإبل ويفرقوا لحومها على الناس ، ويعطوهم السمن والعسل ، ويراقبوا حالة القوم ، حتى يطمئنوا إلى راحتهم مما يعانون .

وقد كون بالمدينة لجنة تقف على إطعام الناس ، وجعل كل عضو منها خاصًا بحي من أحياء المدينة يرعى شئونه في المأكل والمشرب ، ثم اتخذ أمام المسجد النبوي مآدب عامة يحضرها من شاء ، وينحر لها كل يوم عشرين جزورًا مما بعثه عمرو بن العاص من مصر ، ومن لا يقدر من الشيوخ والأطفال والمرضى على الحضور أخذ يُرسل إليهم الطعام في منازلهم ، كما جعل للحم أيامًا يذبح فيها الجزور ، أما في غير أيام اللحم فكان يأمر بالزيت فيغلى على النار ثم يصب عليه الدقيق ، وفي المساء يجتمع بمن أوصاهم بالقيام على الطعام في الطرق النائية ليتعرف ما صنعوه ، ويسأل كل واحد . كم تعشى لديك من الآكلين ، وقد أحصوا ذات ليلة من أكل من الناس فوجدوهم سبعة آلاف آكل ، وأحصوا من أرسلوا لهم الطعام إلى المنازل فكانوا أربعين ألف ، ومن تعشى عند عمر أمام المسجد النبوي بلغ عشرة آلاف ، ومن أرسل إليهم الطعام خارج المدينة بلغ خمسين ألفًا .

وواضح أن ذلك جهد كبير خارق ولكن لم يكف كفاية تامة

لأن القادمين من الجزيرة إلى المدينة طمعًا في الغوث كانوا يزيدون على مائة ألف !! وعمر يرى نفسه ملزمًا بإطعامهم ، فكاد يضيق ذرعًا بما يحمل من الهموم ، وحين ساءت الحالة ، جعل يخطب في الناس ، ويوصيهم بالصبر ويعتمد على أثر الدين في النفوس ويطيل الصلاة داعيًا إلى الله أن ينزل الغيث ، وقد كتب إلى عماله في جميع أنحاء الجزيرة أن يخرجوا لصلاة الاستسقاء في أوقات معلومة حددها بنفسه ، ثم أقام هذه الصلاة بالمدينة ، ولبس برد رسول الله ﷺ ، وجعل يحوله من اليمين إلى الشمال ، ومن الشمال إلى اليمين كما كان يفعل رسول الله في صلاته وأخذ يلح في الدعاء ، وقد بكي بكاءً حارًا شفقةً بالمسلمين ، وجاء بالعباس ابن عبد المطلب ، فأوقفه بجواره في الصلاة ، وقال يا عباس : أنت عم رسول الله ، فادع لنا ، فجعل العباس يدعو متضرعًا والناس من حوله يؤمنون .

ثم شاء الله أن يستجيب ، فظهرت السحب في السماء ، وهمى الغيث كالطوفان ، فاهتزت الأرض وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ورتعت الحيوانات في المراعي من إبل وغنم ، وظباء ، وهنا أمر عمر من وكلهم بأمر المدينة أن يخرجوا إلى البادية مع أحمال الطعام والشراب ليطعموا من لا يجد زاده من الفقراء فأسرعوا كما أمر وكان ذهابهم عملاً حاسمًا ، لأن بعض النواحي لم ينزل بها المطر ، ولا يزال القحط مخيمًا فوقها ، وعمر يعلم ذلك فبادر بالإنقاذ .

وقال عمر : لو استمرت المحنة لأدخلت الغرباء حول المدينة إلى منازل الأنصار والمهاجرين ليأكل كل واحد نصف ما أعد للأنصاري والمهاجر ، ولئن تبلغوا بالقليل فهو خيرٌ من العدم ، ولكن الله سلم ، ونزل الغيث .

حدث ابن سعد بإسناده إلى أحد الصحابة قال : رأيت عمر رضي الله عنه عام الرمادة ، وهو أسود اللون ، وعهدي بوجهه أبيض ساطعًا ، فسألت الناس متهيبًا أن أسأله ، فقيل : إنه كان قبل عام الرمادة ، يأكل السمن ويشرب اللبن ، فلما وقع القحط حرَّم على نفسه أن يأكل ما اعتاد ، فكان يكتفي بالزيت ، ولا يأكل إلا إذا اشتد جوعه ، ويقول : هكذا الناس ، ثم قال ابن سعد : لقد تأكد المسلمون أن عمر كان سيموت همًا لو لم ينقشع البلاء !

مع الولاة والعمال

يقول الأستاذ عبد الوهاب النجار : « يرجع كثير من توفيق عمر في إقامته العدل ، وتأييده الحق إلى أنه أحسن اختيار رجاله وأعوانه ممن اشتهروا بالأمانة والنزاهة ، وإلى أنه وضع لهم قواعد رشيدة دقيقة يسيرون عليها في سياسة الأمة ، وإلى أنه كان يحاسب المسيء منهم حسابًا عسيرًا ، وقد كان حريصًا على اتباع القرآن الكريم فيما جاء به ، والاستناد إلى سنة رسول الله ﷺ ، وعلى أن يأخذ عماله بسيرته ، ويؤدبهم بآدابه ، رعاية للرعية وتحقيقًا لسماحة الإسلام وعدله ، إذ كان يعد نفسه شريكًا

للعامل في كل هفوة يهفوها قسيمًا له في كل جريمة يقترفها ، لأنه يأتي ذلك بما له من السلطان الذي يستمده منه ، ويرى نفسه مسئولاً عنه أمام الله » .

وقد خطب عمر ذات يوم فقال : أيها الناس إني والله ما أرسل عما لي لكم ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ، ولكني أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسننكم ويقضوا بينكم بالحق ، ويحكموكم بالعدل ، فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إليَّ ، فوالذي نفسي بيده ، لأقصنه منه ، فوثب عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين أرأيت إن كان رجلٌ من المسلمين على رعيته ، فأدب بعضها إنك لتقص منه؟ قال عمر : إي والله الذي نفس عمر بيده ، لأقصنه منه ، وكيف لا أقصنه منه ، وقد رأيت رسول الله يقص من نفسه ، ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تجمروهم فتفتنوهم ، ولا تمنعوا حقوقهم فتكفروهم ، ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم .

وكان عمر يأمر عما له في كل سنة أن يوافوه من موسم الحج ، ومن كانت له شكوى أو مظلمة وافاه إلى هذا الموسم ورفعها على العامل في حضرته ، حيث يفصل عمر في الشكوى ، وينطق بالحق فيرد للمظلوم ظلامته ، وقد استدعَى سعد بن أبي وقاص من الكوفة لشكوى رفعها بعض خصومه ، في وقتٍ كان المسلمون في حاجة إليه إذ القتال مستمر بينه وبين الفرس ، وهو قائد الجيش الإسلامي في مواجهة العجم ، ولم يكن ذلك الظرف

الخطير بمانعٍ عمر رضي الله عنه أن يستدعيه ، وهو يعلمُ من سعد ، ويعلم أنه من المبشرين بجنة الله ومن الذين أعلن رسول الله محبته إياهم ، نعم لقد استدعاه ليحقق الأمر معه بنفسه ، غير أنه أنب الشاكين وقال لهم : إن الدليل على فساد طويتكم أنكم تعلمون أن القائد مشغول بمنازلة الفرس ، ولو كانت عندكم حمية صادقة لأجلتم ذلك إلى حين ؟

وعمار بن ياسر وهو من هو في سبقه للإسلام ، واحتماله التعذيب من سادات المشركين ، اختاره الفاروق أميرًا للكوفة ، وجعل يسأل عنه فقال قوم : إنه لا خبرة له بالإمارة ، ولم يُحط علمًا بأحوال ولايته فسارع عمر باستدعائه وجعل يسأله عما حوله من ضواحي الكوفة ، وما يلزمها ، فلم يجب بشيء ، فقال عمر : أما والله يا عمار لقد وقع في وهمي حين أمرتك أن أقتدي بقول الله عز وجل : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَارِثِينَ ﴾ ، فاستجبت للآية الكريمة ، ولكني أراك لا تصلح ، وهأنذا عزلتك ، فقال عمار : والله يا أمير المؤمنين ما سررت بالولاية حتى أضيق بالعزل » .

وكان عامله على حمص سعيد بن حزيم ، فشكاه أهل حمص إلى عمر ، وسألوه عزله ، وكان عمر يثق في سعيد ويرى أنه من أهل الحق ، ولكنه استدعاه ليسأله ، وقال في نفسه : اللهم صدق

فراستي فيه فأنا أرى أنهم ظالمون ، فلما قدم سعيد ، وجمع بينه وبين المتظلمين ، قال لهم عمر : ما تنقمون منه ؟ فقالوا : لا يخرج إلينا حتى يرتفع النهار ، فقال ما تقول يا سعيد ! قال يا أمير المؤمنين : ليس لأهلي خادم فأنا أعجن العجين وأنتظر حتى يختمر ثم أعينَ زوجتي على إعداده ، قال عمر : وماذا تنقمون منه غير ذلك ؟ قالوا : لا يجيبنا إذا ناديناه بالليل ، فقال سعيد : قد كنت أكره أن أتحدث عن نفسي ، ولكن القوم أجبروني إني جعلت الليل كله لربي ، والنهار لهم جميعه ، فقال عمر : وعندكم شيء آخر ؟ قالوا له يوم في الشهر لا يخرج فيه إلينا ، قال : نعم ، ليس لي خادمٌ فأنا أغسل ثوبي وأجففه ليسترني ، فقال عمر : الحمد لله لم تضع فراستي فيه يا أهل حمص ، فاستوصوا بواليكم خيرًا ، وأعطى سعيدًا ألف دينار ليستعين بها في أموره ، ففرقها على اليتامى والفقراء ، ولم يبق منها غير اليسير .

على أنه اختار محمدَ بن مسلمةَ صاحب رسول الله وجعله مفتشًا عامًا على الولاة ، يذهب إليهم في أماكن ولاياتهم ، ويستمع إلى الناس ما يقولون ، ويناقش الوالي فيما يستوجب النقاش ، ويجعل التحقيق علنًا دون أن يرعى مكانة خاصة لرئيس أو يتحيف مكانة لمرءوس ، ثم يناقش الشهود مناقشة من يريد الوصول إلى الحقيقة ، حتى تنجلي المسألة فيصدر حكمه مستمعًا إلى وحي ضميره ، ثم يعود إلى عمر فيطلعه على ما كان ، ومن أعمال عمر أنه كان يحصي أموال الولاة قبل توليتهم ، فإذا زاد

المال لديهم بعد الرجوع صادر الزيادة ، وقال : إنها حق الله ، ونحن لا نرى في صحف التاريخ أنصع صحيفة من هذه التي سجلها عمر بمواقفه من الولاة !

استشهاده

كان عمر لا يأذن لأسرى الفرس أن يكونوا بالمدينة فكتب إليه المغيرة بن شعبة وهو على الكوفة يستأذنه في غلام يُسمى أبا لؤلؤة ، لأنه حداد ونقاش ونجار ، وينفع الناس بمهنته ، فأذن له ، وكان المغيرة يفرض عليه كل يوم أربعة دراهم ، لأنه كان ماهرًا في صناعة الطواحين ، فجاء الغلام إلى عمر بن الخطاب ، وقال له : يا أمير المؤمنين إن المغيرة قد أثقل عليّ ، فقال له عمر : وما تُحسن من الأعمال ، فقال : حداد ونجار ونقاش ، فقال له عمر : فما خراجك بكثير ، فاتق الله وأحسن إلى مولاك ، وكان في نية عمر أن يلقى المغيرة فيكلمه أن يخفف عنه ، فخرج العبد غاضبًا ، وقال : وسع الناس كلهم عدله غيري ، وكان خبيثًا إذا رأى صغار الأسرى مسح على رؤوسهم وقال أكل كبدي عمر ، فأضمر قتل أمير المؤمنين واصطنع خنجرًا له رأسان وسمه ، وأتى الهرمزانَ فأراه الخنجر ، وقال له : لن تضرب به أحدًا إلا قتلته .

وعندما نهض أمير المؤمنين ليصلي الفجر ، التفت إلى الناس ، وقال : سووا الصفوف ، فما هو إلا أن كبر حتى سمعت أمير المؤمنين يقول : قتلني الكلب ، وذلك حين طعنه في كتفه

وخاصرته ، وجعل المجرم لا يمر بسكن ذات طرفين على أحد إلا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً مات منهم تسعة ، فلما رأى ذلك عبد الرحمن بن عوف ، طرح عليه عباءةً ليأخذه ، فلما ظن المجرم أنه مأخوذ لا محالة طعن نفسه .

قال عبد الله بن عمر ، ولما طعن أبي خشي أن يكون له ذنب إلى الناس لا يعلمه ، فدعا عبد الله بن عباس ، وكان يحبه فجاء إليه ، فقال له : اخرج فناد في الناس ، أعن ملأ منكم ومشورة هذا الذي أصابني ، فقالوا : معاذ الله ، والله لوددنا أن الله زاد في عُمر عمر من أعمارنا ، وأخذوا يبكون – ثم أدركه اليقين فلفظ أنفاسه الشريفة رضي الله عنه .

ولا أجد في ختام هذه المأساة غير أن استشهد بقول حافظ إبراهيم :

مولى المغيرة لا مستك غادية	من رحمة الله ما جاءت غواديها
مزقت منه أديمًا حشوه همم	في ذمة الله عاليها وماضيها
طعنت خاصرة الفاروق منتقمًا	من الحنيفة في أسمى معانيها
فأصبحت دولة الإسلام حائرة	تشكو الوجيعة لما مات آسيها
مضى وخلفها كالطود راسخة	وزان بالعدل والتقوى مغانيها

*****

عثمان ذو النورين

أشعر بألم وأنا أتحدث عن عثمان رضي الله عنه ، لأنه قُتل مظلومًا ، ولم يرحم أعداؤه شيبته النبيلة وجهاده المشهود في سبيل الإسلام ، ورَضِي رسول الله ﷺ وصاحبيه من بعده أبي بكر وعمر عنه ، ولكنها الفتنة ما أتت على شيء إلا جعلته كالرميم . رحمه الله وأنزله منازل الشهداء والصديقين .

نشأة مباركة

وُلد عثمانُ لستة أعوام خَلَوْنَ من حادث الفيل ، فهو أصغر من رسول الله ست سنوات ، ونشأ في كنف والد موسر يشتغل بالتجارة ، فكان عيشه هنيئًا موفورًا ، وورث عنه تجارته الواسعة ، فكان من أثرياء قريش ، مع سيرةٍ حميدة تحوطه ، فهو رحيم القلب سخيّ اليد ، هادئ النفس ، معتكفًا عن الشر لا يخوض فيه مع الخائضين .

وحين أشرق الإسلام في مكة أجاب دعوة أبي بكر مع السابقين الأولين في الإسلام ، لأنه يعرف أمانة الرسول وصدقه عن خبرة وعيان ، ويعرف أمانة أبي بكر وخلوص نيته وصفاء سريرته ، فلما أخبره أبو بكر برسالة رسول الله أسرع في الاستجابة لها ، وهذا يدل على أنه مستقل الرأي لم يتأثر بغير ضميره ، وما أوحى إليه من الاتجاه ، ولو كان عثمان رجلاً مغلق

التفكير لتمهل مع المتمهلين ، ولكن نور الحق سطع لعينه فسار في اتجاهه عن يقين ، وهو يعلم أن قومه من بني أمية سيناوئون بني هاشم وفيهم تكبْر واستعلاء ، ولن يستجيبوا لدعوة هاشمي إلا مرغمين .

وكان رسول الله ﷺ ينزل عثمان منزلةً خاصة بين الصحابة لأنه يعرف حياءه الشديد ، وسماحة نفسه الحساسة ، فقد روي الرواة أنه ﷺ كان جالسًا مع الصحابة ذات مرة ، فدخل أبو بكر فسلم من بعيد وجلس ، ودخل عمر ففعل ما فعل أبو بكر ، ثم دخل عثمان ، فدعاه الرسول إلى جواره وفسح له ، وسئل ﷺ في ذلك ، فقال لمن سأله : عثمان حييٌ خجول ، وإذا لم ير مكانًا خرج مستحييًا ، فآثرت أن أدعوه إيناسًا له ، وهذا يدل فيما يدل على أن الرسول كان يعرف شمائل أصحابه ويعرف كيف يقابلهم بما يتفق مع هذه الشمائل ، وهي خبرة نفيسة لا يلقاها إلا ذو حظ عظيم .

ومع أن عثمان كان من أثرياء قريش ، وخصومُ الرسول من بني أمية أهله وعشيرته فقد ناله الأذى من المشركين ، وتعرض لاضطهادٍ كثير في نفسه وماله ، ولكنه لم يهن في سبيل الله ، وقد زوجه رسول الله ابنته رقية بمكة احتفاءً به ، وتشريفًا له ، ولما حانت هجرة المسلمين إلى الحبشة كان عثمان وزوجه من المهاجرين إليها ، وقد سأل رسول الله عنه بعض القادمين ، فقال : رأيته يقود حمارًا تركب عليه زوجه في اتجاهه إلى بعض

أعماله ، فدعا له رسول الله بالتوفيق ، وقد قال رسول الله بصدد هجرة عثمان مع ابنته : إن عثمان أول من هاجر بأهله بعد لوط ، ومعنى هذا الحديث أنه كان أسبق في الهجرة مع زوجته من إخوانه الذين احتذوه ، واصطحبوا زوجاتهم مهاجرين ، ثم رجع إلى مكة حين أذن الله له أن يرجع ، وحانت الهجرة الثانية إلى المدينة فهاجر مع زوجته إليها ، وظلت زوجته في صيانته ورعايته حتى توفيت بالمدينة في اليوم الذي أتم الله فيه النصر على المشركين في غزوة بدر ، وقد أمره رسول الله أن يظل معها في مرضها ، ولا يخرج للقتال ، وعَدَّه رسول الله بدريًا ؛ لأنه تأخر طوعًا لأمره ، وأسهم له مع الغانمين ، ولم يشأ رسول الله ﷺ أن يحرمه مُصاهرته بعد رحيل رقية ، فزوجه أختها أم كلثوم ، ولذلك عُرف بين الصحابة بأنه ذو النورين : نور رقية ، ونور أم كلثوم رضي الله عنهما ، وقد شهد المشاهد كلها بعد بدر ، وظلت أم كلثوم لديه حتى ماتت في السنة التاسعة للهجرة ، فقال له رسول الله ﷺ : لو كانت لدينا ثالثة لزوجناك وهو تقدير سام لصهر نبيل .

ولما جاء يوم الحديبية ، وأراد رسول الله أن يبعث سفيرًا لأهل مكة يخبرهم أنه قادمٌ للحج ، وقد ساق الهدى ولا يريد حربًا طلب من عمر بن الخطاب أن يكون رسوله إلى القوم ، ولكن عمر رضي الله عنه أشار على رسول الله أن يكون رسوله (عثمان) لقرابته من بني أمية ، وأنهم لا يُعرضونه للإيذاء ، وقد

استجاب عثمان ورحل داعيًا بدعوة الرسول ، وعرض على القوم ما جاء المسلمون من أجله ، فاستمعوا إليه ، وأباحوا له أن يطوف بالبيت فامتنع ، وقال : لا أطوف حتى يطوف رسول الله ، وحين بايع رسول الله أصحابه على الجهاد تحت الشجرةَ مَدَّ يَدَهُ الكريمة وقال : هذه يد عثمان هو في رسالتي ، وأنا صاحبه ، فكان كذلك شرفًا لعثمان تمناه المسلمون ، أما كرمه الفياض فله أمثلة كثيرة ، أظهرها موقفه يوم جيش العسرة ، إذ بذل من ماله ما لم يبذله أحد ، فقد قيل إنه جهز هذا الجيش بألف بعير وخميسن فرسًا ، وفي رواية للترمذي عن أنس رضي الله عنه : أن عثمان أتى رسول الله ﷺ بألف دينار فوضعها في حجره ، ويجمع بين الروايتين بأنه جهز الجيش بالإبل والخيول ثم أعقب ذلك بالمال ! لذلك قال عليه السلام : حين وجد هذا الاندفاع إلى الخير من عثمان رضي الله عنه : « ما ضرَّ عثمان ما صنع بعد اليوم » قالها مرتين : فليت الذين اغتالوه عرفوا هذا النطق الكريم فرجعوا نادمين !

وله موقف آخر شبيه بموقفه يوم العسرة : حيث أن بئر رومة كانت ملكًا ليهودي يبيع المسلمين ماءها ويشتط في الثمن ، فقال ﷺ من يشتري بئر رومة فيجعلها للمسلمين ، وله بها مَشْرب في الجنة ؟ فعجل عثمان ، وذهب إلى اليهودي فأبى إلا أن يبيع النصف فقط ، فاشترى عثمان نصفها باثنى عشر ألف درهم ، وأباحها للمسلمين في يومه الخاص به ، إذ كان له يوم ولليهودي يوم حسب الاتفاق ، ونظر اليهودي فوجد المسلمين يستقون في

يومهم ما يغنيهم عن اليوم الآخر ، فعلم أن أمره قد خاب ، وسعى إلى عثمان راجيًا أن يشتري النصف الآخر فاشتراه بثمانية آلاف ، وصارت البئر جميعها ملكًا خالصًا للمسلمين .

وثالثة نقولها : فقد رأى رسول الله أن مسجده الشريف في حاجة إلى اتساع بعد أن انتشر الإسلام ، وأصبح المصلون كثيرين ، فقال لصحابته : « من يستطيع أن يشتري مما حول المسجد ما يزيده اتساعًا ؟ » ، فاشترى عثمان مساحةً واسعةً أضيفت للمسجد بناءً على رغبة رسول الله ، وظل عثمان أثيرًا عند رسول الله وصاحبيه ، حتى جاء يوم البيعة بعد مقتل عمر رضي الله عنه فاختير أميرًا للمؤمنين .

حديث البيعة

لما ضُرب عمر بن الخطاب ، ولاحت نذر الموت أمام صحابته ، قال له الناس : استخلف يا أمير المؤمنين ، فقال : لو كان أبو عبيدة بن الجراح حيًا لاستخلفته ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أبو عبيدة أمين هذه الأمة » ، ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حيًا لاستخلفته ، فقد قال رسول الله ﷺ : « إن سالمًا شديد الحب لله » ، فقيل له : استخلف ولدك عبد الله ، فقال مستنكرًا : والله ما أردتم بهذا وجه الله ، ما حمدت الخلافة فأرغب فيها لأحد من بيتي ، وقد خاف كبار الصحابة أن يموت عمر دون حسم للخلافة فألحوا عليه أن يستخلف ، فقال عليكم بأحد هؤلاء : علي وعثمان وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي

وقاص ، والزبير ، وطلحة فليجتمعوا ليختاروا أحدهم ، ثم قال : إذا مت فلتدم المشاورة ثلاثة أيام ، وليصل بالناس صهيب ، ولا يأتي اليوم الرابع إلا وعليكم أمير .. ثم قال لأبي طلحة الأنصاري : يا أبا طلحة إن الله عز وجل طالما أعز الإسلام بكم ، يريد الأنصار فاختر خمسين رجلاً من الأنصار ، واستحث هؤلاء حتى يختاروا رجلاً منهم ، وإنْ حصل خلافٌ من أحد على من اختير فاضرب رأسه .

وبعد أن شيعت جنازة عمر ، اجتمع أهل الشورى في بيت المسور بن مخرمة ، فحصلت مناقشة شديدة حتى ضاق عبد الرحمن بن عوف فقال : أيكم يُخرجُ نفسه منها ، ويختار أفضلكم فتستمعوا له ، فقال المجتمعون : أنت على أن تؤثر الحق ولا تتبع الهوى ولا تختار ذا رحم لرحمه ، فقال عبد الرحمن : وأنا كذلك فأعطوني ميثاقكم فأخذ منهم الميثاق وأعطاهم مثله .

وجعل عبد الرحمن يخلو بأهل الشورى واحدًا واحدا ، ويستمع إلى كل اتجاه ، فوجد الأمر منحصرًا بين علي وعثمان ، فخرج للقاء الناس ، وجعل يستشيرهم في الاثنين ، ودار خلاف شديد بين الناس خارج الاجتماع ، وعبد الرحمن لم ينته لرأي ، حتى إذا خيفت الفتنة رأى عبد الرحمن أن يبايع عثمان ، فتمت له البيعة ، وقد أثارت كتب التاريخ لغطًا نسبت فيه أقوالاً للصحابة ، لا تدري مبلغ خطئها من صوابها وتركها أولى دون تسطيرها .

قضية الهرمزان

كان الهرمزان من عظماء فارس ، وقد تولى على الأهواز ونواحيها ، وحين تقدمت الجيوش الإسلامية في هجمات الفتح حاربها الهرمزان بضراوة ، ثم هزم فتحصن في القلعة أيامًا ، وطلب الصلح ، فأجيب إلى طلبه بشروط معينه ، ولكنه غدر ، وجمع من الأشياع من قاوموا المسلمين على غرة ، فنصرهم الله عليه ، ودفع أسيرًا فطلب الصفح ، بمحضر عمر بن الخطاب بالمدينة فوصل إليها في أروع مظهر كسروي ، على رأسه التاج مكللاً بالياقوت ، وعلى صدره أوسمة الذهب اللامع ، وفي يده السيف المحلى بالجواهر ، وطلب رؤية عمر فقيل أنه بالمسجد فذهب إليه واهمًا أنه سيجد أمير المؤمنين في مثل مشهده الارستقراطي ، فوجده رجلاً من العامة يلبس ما يلبس المسلمون من حوله بالمسجد ، فدُهش ، وقال : أين الحرس ؟ فقالوا : لا حرس إلا العدل والمساواة ، وقد علم عمر بمقدمه ، ورآه في رونقه الخادع ، فأشاح عنه ، وطلب أن ينزع ما عليه ، وقال لمن حوله بمشهد منه : الحمد لله الذي أذل بالإسلام هذا وأمثاله من المتكبرين ، ودار حوار حول ما ارتكبه الهرمزان من الغدر بعد أن وافق على الصلح وأمضاه ، ثم طلب الهرمزان ماءً ليشرب فقال لعمر : أخاف أن تقتلني وأنا أشرب ، قال عمر : لا بأس عليك حتى تشرب ، فرمي بالإناء فانكسر ، وقال لعمر : أنت أمنتني

حتى أشرب ، وقال الصحابة لعمر : أنت أمنته فوافق عمر . فلما رأى الهرمزان سماع عمر لمن حوله ، أعلن إسلامه ، وفرض له عمر ألفين من الدنانير ليقيم بالمدينة ولكن الهرمزان لم يكن ذا إسلام خالص ، فأخذ يجتمع بمن حوله من أسارى الفرس مظهرًا ضيقه بالمسلمين ، وصادف أن وجد المجوسي « فيروز » الذي طعن عمر بن الخطاب على نحو ما ذكرنا في ترجمته ، فلما تمت كلمة الله على عمر بالشهادة ، وبدأ التحقيق في الجريمة ، تقدَّم عبد الرحمن بن أبي بكر ، وقال : لقد رأيت أبا لؤلؤة فيروز بالأمس مع جُفينه النصراني والهرمزان في حديث سري كأنهم يتآمرون ، فلما وقفت أمامهم دهشوا ، وسقط من يد فيروز خنجر له رأسان ، فانظروا إلى ما قتل به أمير المؤمنين . فجاءوا بالخنجر فإذا هو كما وصف ، وجاء القماذبان بن الهرمزان فاعترف في التحقيق أن فيروز مرَّ على أبيه بالأمس ، ومعه الخنجر ، وتحدثا طويلاً فكان ذلك دليلاً على اشتراك الهرمزان ولكنه يحتاج أيضًا إلى أدلة ترجحه .

وهنا ثار عبيد الله بن عمر ، وهو فتىً في مقتبل الشباب ، إذ تأكد أن أباه ذهب ضحية مؤامرة الهرمزان وجفينه النصراني وفيروز ، فحمل سيفه واتجه إلى الهرمزان فعلاه بالسيف دون أن يكون منتظرًا مصرعه الفوري هكذا ، ثم اتجه إلى جفينة النصراني ففعل به ما فعل بالهرمزان ، ثم إلى ابنة فيروز فقتلها ! وأقبل يهدد السبايا من الفرس جميعًا بالقتل ، فاحتال عمرو بن العاص حتى سحب السيف منه ، وقيل إن سعد بن أبي وقاص هو الذي

هجم عليه وأخذ السيف عنوة ، ودُفع بعبيد الله إلى السجن بأمر صُهيب الذي ولاه عمر ولاية المسلمين حتى تتم البيعة ! وهنا غضب المسلمون لما صنع عبيد الله ، إذ لا يجوز له أن يكون مقتصًا ويتولى التنفيذ دون محاكمة ! وقد قتل من قتل دون دليل كاف! فظل عبيد الله في السجن حتى ولي الأمر عثمان فصادفته مشكلة الهرمزان ، ولابد أن يلقى القاتل جزاءه فجمع المهاجرين والأنصار ، وقال لهم : أشيروا عليَّ ماذا أصنع في هذا الذي فتق في الإسلام فتقًا لا انسداد له ، فقال علي : لابد من قتل عبيد الله ، فقد قتل غيره دون أن يملك حق القتل ، وقال آخرون ، لقد قتل عمر بالأمس ، ويُقتل ولده اليوم ، وهذه نكبة على آل الخطاب ما أظنهم يستطيعون حملها ! ثم قال عمرو بن العاص : يا أمير المؤمنين إن الله أعفاك أن تحدث هذا الأمر ، ولك على الناس سلطان ، ولكنه حصل قبل أن تتم البيعة لك ، فاصفح عنه يا أمير المؤمنين ، وهو رأي لا سند له من النصوص الصريحة! .

وبعد أخذٍ ورد قال عثمان : أنا وليُّ الهرمزان وجفينة والجارية ، وقد جعلتها ديةً أدفعها عنهم جميعًا ، ثم دعا القماذبان بن الهرمزان ، فأمكنه من عبيد الله ، وقال : هذا قاتل أبيك ، فإما أن تقتله ، وإما أن تستجيب إلى رأي الناس فتأخذ ديته ، فقال : أنا أقتله ، أفلكم أن تمنعوه ، قالوا : لا وسبوا عبيد الله ، فتركه وعفا عنه ، فحمله الناس على رءوسهم وأكفهم تكريمًا له وتقديرًا لموقفه ! هذا ما جاء في بعض الروايات ، ولكن ابن حجر ضعف هذه الرواية ، وقال : إن عفو القماذبان كان يسقط القود قطعًا ،

ولكن علي بن أبي طالب قد اعترض ، وما كان له أن يعترض لو تم العفو صريحًا كما جاءت به الرواية فهي إذن موضع النقد ! ويقول الأستاذ عبد المتعال الصعيدي تعليقًا على موقف علي مع افتراض صحة الرواية : يجوز أن يكون اعتراض علي لما توهمه من أن القماذبان قد اضطر إلى موقفه ، وهو فيما بينه وبين نفسه غير راض ! ولكن الحكم الذي انتهى إليه عثمان صحيح ، لأن ولي الدم قد عفا ، وتعهد عثمان بدفع الدية باعتباره ولي الأمر .

وبعد استعراض موقف عثمان نجد أنه كان في أشد المواقف حرجًا ، وأن مصيبة المسلمين بعمر بن الخطاب ، تجيز له أن يتقدم إلى ولي الدين بطلب العفو وقد فعل ، وهذا ما استراح له نفسيًا ، لأن عبيد الله لو قتل لوجد من الناس من يتألمون لمصرعه بعد مصرع أبيه ، وهي مأساة لابد من إيجاد حل لها بمختلف الوسائل وكان في عفو القماذ بان ما مهد لراحة الخليفة النفسية في أمر معضل أليم .

الفتوح في عهد عثمان

سأخالف ما اعتدت عليه في ترك أنباء الفتوح التي تمت في عهدي أبي بكر وعمر ، إذ أشرت إليها بإجمال وجيز ، وأنا هنا سأترك هذا الإجمال لسبب واضح ، هو أن أكثر الذين تكلموا عن عثمان رضي الله عنه قد غفلوا عن دوره في هذه الفتوح ، لأن مصيبة مصرعه الآثم قد شغلتهم عن استيفاء هذا الجانب من جهاده الحافل ، وواجب أن يحفظ له دوره التاريخي في هذا المجال

الحميد .

ونحن نعلم أن جيوش الإسلام قد فتحت في عهد عمر بن الخطاب المملكة الفارسية وسوريا ومصر وفلسطين ، ولكن هذا الفتح لم يكن ليعدم أسباب الثورة ، فكان بعض الناس ينتهز الفرصة للانقضاض ، وحين أشيع موت عمر بن الخطاب وجد المتذمرون في فقد عمر اهتزازًا للخلافة الإسلامية في زعمهم ، فكان أول ما اهتم به أمير المؤمنين أن يعمل على إخماد الثورات لتكون الأرض صلبة إذا تقدمت الجيوش الإسلامية إلى ميادين أخرى ، وأول ما بدأ به الخليفة هو التوجه إلى أذربيجان التي فتحت أيام عمر على يد بكير بن عبد الله ، وعتبة بن فرقد ، وهما بطلان سجلا من الروائع ما يخلد ذكرهما على الزمن ، وقد انتقضت هذه المدينة بعد وفاة عمر ، ومنع أهلها ما كان مقررًا في الصلح من أموال ، فأمر عثمان الوليد بن عقبة وكان واليًا على الكوفة بتجهيز جيش يردع المنشقين ، فعين سلمان بن ربيعة الباهلي قائدًا على الجيش الزاحف ، وتبعه الوليد في جيش آخر ، فعاد القوم إلى ما كانوا عليه ، وأرسل عبد الله بن شبيل في أربعة آلاف إلى بلاد الموقان والطيلسان ، ثم جهز سلمان الباهلي في اثنى عشر ألفًا من المجاهدين فاتجهوا إلى أرمينية ، وأخضعوا الثائرين ، وما أن انتهى أمر الشرق ، ورجع الوليد إلى الكوفة حتى جاءه خطاب من عثمان بن عفان يقول فيه : إن الروم قد زحفت على المسلمين في الشام بجيش كثيف ، وإن من بالشام لا

يقدرون على الدفاع وحدهم ، فعلى الوليد أن يهيىء جيشًا في نحو عشرة آلاف ليرحل سريعًا إلى الشام تحت قيادة شجاع باسل فأسرع الوليد بدعوى الناس ، وقرأ عليهم خطاب عثمان ، فلم تمض ثلاثة أيام حتى خرج جيش الكوفة مكونًا من ثمانية آلاف مقاتل تحت رياسة سليمان بن ربيعة الباهلي الذي قاد النصر في أرمينية من قبل ، وكان قائد جيوش المسلمين في الشام حبيب بن مسلمة الفهري ، فالتقى الجيشان تحت قيادته ، ودارت معركة رهيبة انتصر فيها المسلمون بعد بلاء عظيم ، وقد هزم الروم وفتحت حصونهم ، ثم عزل الوليد بن عقبة عن الكوفة وولي مكانه سعيد بن العاص فشمر للجهاد ، وخرج على رأس الجيش بنفسه متجهًا إلى خراسان ومعه نفر من خيرة المسلمين ، منهم حذيفة بن اليمان ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر ، والحسن والحسين ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعبد الله بن الزبير ، وكلهم أبطال عرف التاريخ روائع بسالتهم فكتبها بأحرف من نور ، وكان عبد الله بن عامر أميرًا على البصرة فأتاه كتاب عثمان فتوجه حيث يتجه سعيد بن العاص ، وقد سبقه فأتى طبرستان ودارت معركة حامية ، لقي فيها المسلمون شدة عنيفة ، وصلوا صلاة الخوف متوسلين آملين ، وتم النصر للمسلمين بعد أهوال شداد ، وقد سجل الشعر هذه المعركة بأبيات حفظها المؤرخون .

والموقف الثاني : لأهل البصرة هو موقف عبد الله بن عامر ،

وقد جمع له عثمان جند أبي موسى الأشعري وجند عثمان بن أبي العاص فكان جيشه عظيمًا ، وكانت فارس قد انتقضت وتحرشت بأميرها عبيد الله بن معمر ، ودارت معركة حامية قتل فيها ابن معمر ، وجاء الخبر إلى عبد الله بن عامر فاستنفر الناس وخرجوا معه ، ومعه أيضًا عثمان بن أبي العاص وجنده ، فالتقى الجمعان في معركة رهيبة ختمت بالنصر للمسلمين ، وفتحت اصطخر عنوة .

ولما كانت خراسان هي الأخرى قد انتقضت بعد وفاة الفاروق ، فقد توجه إليها عبد الله بن عامر ووقف على بابها طالبًا الخضوع قبل أن يبدأ القتال ، فأجابوا إلى الصلح ، وتابع سيره إلى « قهستان » ، و« نيسابور » ووجه الأحنف بن قيس إلى طخارستان ومرو فانتصر انتصارًا حاسمًا ، ثم تابع المسيرة إلى بلخ فافتتحها ، وتوقف أمام خوارزم ، ثم فتحها ، ولكن جموعًا من فارس عسكرت في (بالجوت خان) فنهض عبد الله بن عامر للقائها ، حيث جهز جيشًا بقيادة الأقرع بن حابس التميمي فتم له النصر على جموع المرتدين .

وفي هذه الأونة قتل (يزدجر) آخر ملوك الفرس ، فتضضع قومه ، وعلموا ألا بقاء للمجوس من بعده ، ودار نقاش بين المؤرخين حول قاتله ، وفي أي مكان ، ولا يعنينا أن نسهب في ذلك ، إنما نقول : إن الأمر في فارس قد استتب للإسلام بعد مصرعه ومن يومها والقادسيون جنود للإسلام مخلصون !

أما المعارك في الشام في عهد عثمان فكانت ذات لهيب مشتعل ، لأن معاوية بن أبي سفيان تجهز لقتال الروم فسارت الجموع حتى بلغت عمورية ، ووجد الجيش الإسلامي الحصون التي بين طرسوس وأنطاكية خالية فترك عندها حامية من أهل الشام ، وقد شاء معاوية أن يصنع أسطولاً بحريًا للغزو بعد وفاة عمر إذ كان يمنع ذلك ، فلما ولي عثمان وافق معاوية على غزو البحر ، فهيأ جيشًا ذا كفاءة ، وجعل قيادته لعبد الله بن قيس الحارثي ، فكان أول أمير بحري في الإسلام ، وكان النصر حليفه في معارك بحرية لا عهد للعرب بها من قبل ، ولم يهزم في معركة قط ، ولم يغرق من جنده أحد ، وكان يحنو على الجيش ويسأل الله أن يكون فداء أقلهم ، وقد مات غدرًا في موقف لم يكن به أحد من أعوانه ، ثم بهذا الأسطول غزا معاوية قبرص وكان في الجيش من كبار الصحابة أبو ذر وأبو الدرداء وعبادة بن الصامت ، وقد نهض عبد الله بن أبي سرح أمير مصر على رأس جيش لمساعدة معاوية ، فاشترك الأسطولان : المصري والشامي في هذه الغزوة ، وتم النصر فصالح الروم المسلمين على الجزية .

وقد أراد قسطنطين بن هرقل أن يثأر من المسلمين بعد انتصارهم عليه في إفريقيه ، ومن قبل ذلك في بلاد الشام ، فجهز جيشًا كثيفًا ، وخرج لقتال المسلمين في جمع لم يُعرف مثله من قبل ، ومعه أسطولٌ بحري ضخم يتألف من خمسمائة مركب ، فتجهز المسلمون للصدام ، والتقى الجمعان في البحر ، وكانت

الريح عاصفة تتجه نحو الجيش الإسلامي ، ولكن القائد عبد الله ابن سعد جعل يبث في الجنود روح القتال والفدائية حتى تم النصر ولم يركن عبد الله بن سعد بن أبي سرح إلى الهدوء . بل طالب عثمان بإرسال الجيوش مددًا له لغزو أفريقيه ، وقام بلاءً عظيم في هذا الصدد ، لأن الأفارقة كالبدو أهل قتالٍ واستبسال ولم يحرم الله أفريقية من الإسلام فتم النصر فدخل النّاس في دين الله أفواجًا .

هذا بعض ما كان من الفتوح والمعارك أيام عثمان باستشارته وتوجيهه ، وبالإشارة إليها تعرف أن راية الجهاد في عهده قد امتدت إلى آفاق شاسعة ، وأن الذين لا يسجلون له هذه الأعمال الباهرة يحيدون عن سواء السبيل .

جمع القرآن

نعرض لتاريخ الجمع القرآني بإيجاز حيث اشتط نفر من غلاة المستشرقين ، فقالوا عنه بالباطل ما تعرَّض لنسف كاسح من ذوي الغيرة ، والحق دائمًا هو المنتصر .

جُمع القرآن لأول ما جمع في عهد رسول الله ﷺ ، إذ كان لديه فريق من الصحابة يتولون كتابة ما ينزل به الوحي من قول الله عز وجل ، وهم أربعة من خيار الأنصار ، فقد روي الشيخان عن أنس بن مالك رضي الله عنه : أن الذي جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ نفر من الأنصار هم : أبي بن كعب ، ومعاذ

ابن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد ، فقيل لأنس رضي الله عنه ومن أبو زيد ؟ قال : أحد عمومتي .

وهؤلاء غير كتاب الوحي الذين كانوا يكتبون النص عند نزوله على العسب وهو : جريد النخل ، واللخاف وهي : الحجارة الرقيقة ، والرقاع وهي : قطعٌ من جلد أو ورق ، وعلى الأكتاف وهي : عظام البعير أو الشاة ، وعلى الأقتاب ، وهو : الخشب يوضع على ظهر البعير .

فكان عمل هؤلاء الأربعة أن يجمعوا القرآن في مكان واحد بجمع ما كتب على هذه الأدوات ، لأن القرآن نزل مفرقًا ، فكان كتاب الوحي من أمثال : أبي بكر وعثمان وعلي وأبان بن سعيد ، وزيد بن ثابت ، وثابت بن قيس يكتبون النص كما نزل ، وهكذا مضى رسول الله ﷺ ، والقرآن مجموع كما جمعه الأربعة من الأنصار ، ولكنه لم يكتب في الصحف والمصاحف بل ظل منثورًا في الرقاع والعظام كما وضحت .

أما الجمع الثاني فقد تم في عهد أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ فقد روي البخاري في صحيحه أن زيد بن ثابت قال : أرسل إليَّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة (أي عقب استشهاد سبعين من القراء) فإذا عمر بن الخطاب عنده ، قال أبو بكر : إن عمر أتاني فقال : إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن وإني أخشى أن يتكرر ذلك في مواقع أخرى فيذهب كثيرٌ من القرآن ، وأرى أن تأمر بجمعه ، قلت لعمر : كيف تفعل ما لم يفعله رسول

الله ﷺ ؟ قال عمر : هذه والله خيرٌ ، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري إلى رأي عمر ، ثم قال أبو بكر لزيد : إنك شاب عاقل لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فاجمعه ، قال زيد : فلو كلفوني نقل جبلٍ من الجبال كان أهون علي مما أمرني به من جمع القرآن ، حتى شرح الله صدري فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة:١٢٨] فكتبتها فكانت الصحف عند عائشة ، ثم عند عمر في حياته ، ثم انتقلت إلى حفصة بنت عمر .

أما جمع عثمان فهو الجمع الثالث بعد أن اتسعت الفتوح ، واستبحر العمران ، وتفرق المسلمون في الأمصار ، وكان أهل كل إقليم يقرءون بقراءة من اشتهر لديهم ، فكان أهل الشام يقرءون بقراءة أبي بن كعب ، وأهل الكوفة يقرءون بقراءة عبد الله بن مسعود ، ففتح باب النزاع بين القارئين .

أخرج ابن أبي داود عن طريق أبي قلابة أنه قال : لما كانت خلافة عثمان ، جعل المعلم يعلم قراءة الرجل ، والمعلم يعلم قراءة الرجل الآخر ، فجعل الغلمان يلتقون فيختلفون ، حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين ، فبلغ ذلك عثمان رضي الله عنه ، فقام وخطب قائلاً : (أيها الناس أنتم عندي تختلفون فمن نأى عني

من الأمصار أشد اختلافًا) .

ثم رأى أن يتدارك الأمر ، فجمع أعلام الصحابة ، وجعلوا يتشاورون فيما يجب إزاء هذه الفتنة فاتفقوا على جمع القرآن في عدة مصاحف ، يُرسل بها إلى الأمصار ، ويحرق ما عداها ، وعرفت هذه المصاحف بالمصاحف العثمانية ، ولازلنا إلى الآن نقول المصحف العثماني ، والرسم العثماني .

وقد أرسل عثمان ـ رضي الله عنه ـ إلى أم المؤمنين حفصة بنت عمر فبعثت إليه بالصحف التي لديها ، وهي الصحف التي جمعت في عهد أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ وأخذت اللجنة المكونة من الأنصار الأربعة توالي نسخها ، وقيل قد انضم إليهم من كتاب الوحي من ساعدوهم في هذا الجمع ، وما كانوا يكتبون نصًا إلا بعد عرضه على مشيخة الصحابة ، وبعد أن تم الجمع بهذا الضبط ، أرسلت المصاحف إلى الأمصار فمنعت كل اختلاف ، وقد ترتب على ذلك العمل الجليل اقتصار الاختيار على ما ثبت بالتواتر ، وترتيب السور والآيات على الوجه المعروف الآن ، ثم استجاب الصحابة إلى الاتفاق التام على المصحف العثماني ، وحرقوا ما عداه .

روي أبو بكر الأنباري عن سواد بن غفلة قال : سمعت علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه يقول : يا معشر الناس ، اتقوا الله وإياكم والغلو في عثمان ، وقولكم حرق المصاحف ، فوالله ما حرقها إلا على ملأ منا أصحاب رسول الله ، ولو كنت الوالي –

في رواية أخرى عن عمر بن سعيد – وقت عثمان لفعلت في المصاحف ما فعل عثمان .

الفتنة الكبرى

أكتب عن هذه الفتنة وقلبي يعتصر ألمًا ، فأنا أعرف أن عثمان قتل مظلومًا ، وأن مكانته لدى رسول الله والمسلمين من كبار الصحابة ليست بالمكانة المنكورة ، ولكن أمورًا التبست عليه حين وثق في بعض أهله ، فآثرهم بما لا يستحقون ، وحين شنع عليه المرجفون بما هو منه برئ ساعدوا على تحريك الثورة ضده في الأمصار العربية ، ووفدت الوفود إلى المدينة متعللة بالحج ، ومقصودها الثورة الجائحة التي لا تبقي على شيء ، وأول إقليم أظهر الثورة على عثمان هو إقليم الكوفة ، فجعل يرسل إليها الولاة واليًا بعد والٍ لأنهم يشتكون دائمًا من ولي الأمر ، ومع ذلك فلم يفد صنيعه فجعلت نيران الثورة تشتعل .

أما أهل الثراء في المدينة فقد نزحوا إلى الأمصار ومعهم أموالهم التي وزعت عليهم من غنائم الحروب فاشتروا الضياع ، وتحكموا في الناس فعمت الشكوى منهم ، ونسب ذلك إلى عثمان لأنه جعلهم يبرحون المدينة ، ولم يستن بسيرة الفاروق حين حجزهم لديه .

وزاد الأمر خطرًا أن ظهر عبد الله بن سبأ ، وهو يهودي من أهل صنعاء اعتنق الإسلام في الظاهر ليكيد للمسلمين بما لم يستطع أن يفعله لو لزم اليهودية فجعل ينتقل في الأمصار

الإسلامية ، وقصد أولاً البصرة ليثير الفتنة ضد عثمان بحجة أنه منح أقاربه الأموال وولاهم على البلاد ، ولم يسر سيرة الصاحبين حتى إذا جمع حوله بعض من يستمعون اللغو ، وأيقن أنه أوقد جذوة الفتنة رحل إلى الكوفة ، ولم تكن في حاجة إلى المزيد بعد اختلافها مع ولاة عثمان ، فلما عظم شره طرده الوالي ، فاتجه إلى الشام ، ولكن عين معاوية كانت ساهرة ترقب حركة كل ثائر ، فضيق عليه الخناق ، وأحسَّ الخطر من سطوة معاوية فرحل إلى مصر ، ليعلن ولاءه لعلي بن أبي طالب دون أن يعلم عنه عليٌّ شيئًا ، وليدافع في دعوته فيزعم أن لكل نبي وصيًا ، وأن عليًا هو وصي رسول الله ، وأن عثمان قد اغتصب حقه حين تولى إمارة المؤمنين كما اغتصبه أبو بكر وعمر من قبل .

أما الشام فما كادت تخلص من شر ابن سبأ حتى جاءها أبو ذر الغفاري ، وكان قد أنكر على عثمان من قبل بالمدينة ما يغمره من ثراء ، فأمره عثمان بالرحيل إلى الشام ظنًا منه أن معاوية سيستطيع إرضاءه ، ولكن مظاهر الثراء بدمشق جعلت ثورة أبي ذر تزداد عنفًا ، ورأى معاوية أن يختبر سريرته في دعوته إلى المساواة بين الناس في الثراء فأرسل إليه ألف دينار مساءً ، ففرقها لساعته على الفقراء ، ثم بعث إليه في الصباح ليستردها ، فأخبره أن المال مال الله ، وقد قسمه على المحتاجين ، فأيقن معاوية أن الرجل صادق في دعوته ، وخشي على العامة من تأثيره ، فبعث إلى عثمان يقول له : قد أرسلت أبا ذر إلى الشام ففعل بها ما فعل ،

فتدارك عثمان الأمر ، وأذن لـه بالقـدوم إلى المدينـة ، ولم يمكـث طويلاً حتى نفاه إلى الربـذة علـى مقربـة مـن المدينـة فأقـام مـدة وانتقل إلى جوار ربه .

رأى عثمان أن بذور الفتنة قـد نمـت في الأمصـار المختلفـة في الكوفة والبصرة ومصر ، فبعث إلى ولاته كي يحضـروا إلى المدينـة في موسم الحج ، فقـدم عليـه جماعـة مـنهم عبـد الله بـن عـامر ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وسعيد بن العاص وعمرو بن العاص ، وعبد الله بن أبي سرح ، وقال لهم : إن لكل إمام نصحاء ، وأنتم نصحائي ، وقد عرفتم ما يقـول النـاس ، فـبم تشـيرون ؟ فقـال بعضهم : أرى أن تشغلهم يا أمير المؤمنين بالجهاد ليتفـرق أمـرهم ، وقال معاوية : أعط الحرية لعمالك ليكفيك كـل عامـل شـر مـن حوله بقسوته وبطشه ، وظل عمرو بن العاص ساكتًا ، فقـال لـه عثمان ما تقول يا عمرو ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إنك قد ركبـت الناس ببني أمية حين اخترت عمالك من عشيرتك ، فاعتدل ، أو اعتزل ، فسكت عثمان قليلاً ، ثم تفـرق القـوم فاسـتدعى عمـرًا وسأله فيما قال : فلجأ إلى الحيلة ، وقال : أردت أن يعلم النـاس ما أقول فيثقوا بي ، ثم أقابلهم بعد ذلك فأدافع عنـك ، وحينئـذ يستجيبون لقولي .

ورأى عثمـان أن يعقـد مجلسًـا آخـر مـع صـحابة رسـول الله فاستدعى علي بن أبي طالـب ، والزبير بن العـوام ، وطلحـة بـن عبيد الله ، وسعد بن أبي وقاص ، ومعاوية فبدأ معاويـة الحـديث

قائلاً : أنتم أصحاب رسول الله ، ولا يطمع في الأمر أحد غيركم ، وقد حدث ما حدث من تغير النفوس على عثمان ، وأنتم الذين اخترتموه ، فماذا تعيبون عليه ، فاسكته علي ، وقال له : وما شأنك ؟ وطال النقاش فقال عثمان : إن رسول الله ﷺ كان يعطي قرابته فبسطت يدي مع قرابتي ، ورأيت ذلك من حقي ، فإن كان خطأ رددت ما بذلت فأمري لأمركم تبع ! فقالوا : أصبت وسكتوا .

وتتابعت الوفود إلى المدينة من الأمصار شاكية ، وزاد الضجيج باجتماع الوافدين ملأ بعد ملأ ، حتى أصبح حديث الثورة على كل لسان ، وجعل عثمان يخرج إلى المسجد فيجتمع بالناس ، ويناقشهم ، ولكنهم بفعل ابن سبأ ونكايته كانوا لا يريدون غير عزل عثمان ، وقد اشتد الموقف سوءًا حين جهر الثوار بأنهم بين أمرين ، إما أن يعتزل عثمان ، وإما أن يقتل ، وقد رأى علي بن أبي طالب أن ينصح عثمان بالتخلي عن أقاربه واسترضاء الناس فأظهر له الرضا ، ثم دخل عليه مروان ابن الحكم فأفهمه أنه ولي الأمر وليس له أن يقبل رأي علي ، ثم أحكموا الحصار حول منزله ، فاقتحموا الدار ، وأشعلوا النار فيها فاندفع أصحاب عثمان لقتالهم ، ولكن كثرة الثوار قد غلبتهم على أمرهم فاقتحموا المنزل ، وتمت المأساة بقتل الخليفة الشهيد ، وقد حاولت أن أوجز الحديث عن هذه المأساة ؛ لأن القول فيها قد اختلط حقه بباطله ، ويحتاج إلى مؤرخ حصيف .

من شعر شوقي

يقول أمير الشعراء أحمد شوقي في مأساة عثمان نقلاً عن كتاب (دول العرب والإسلام) :

فإن تسَلْ عما أتى عثمانُ	مما يردّ الدينُ والإيمانُ
تجدْ دعاوي القوم لفقوها	وسِلعًا بالدين نفقوها
زروا على الإمام ما لا يُزرى	وأركبوه الحسنات وزْرًا
فقال قوم خالفَ الأترابا	وخَالَف الثراء والإترابا
ويحمهمو ما لهمُو ومالَهَ	طابَ وطيبَ الحلالُ مالَه
مالٌ كما شاء العفاف والكرم	زكا كهدى البيت أو حَلْي الحرم
والزهد حالٌ للقلوب والنهى	ما أمر الله به ولا نَهَى
وهذه الدنيا يد التحطيم	وسرّه في ملكه النظيم
أحلَّ منهَا ما صفَا مشارعًا	وحرَّم الآفات والمصارعا
وساقها للأنبياء ترسف	هذا سليمان وهذا يوسف
وأين من شأنها عُثمان ؟	على الذي خوَّله الرحمن
استقبحوا إحسانه العميا	أن يشمل القريب والحميا
وردّدت قولهم الغوغاء	كما تعيد القول ببغاء

ولعل فيما ذكره شوقي عناصر هامة لمن يريـد أن يكتـب عـن ذي النورين بإسهاب .

*****

علي كرم الله وجهه

١ـ نشأة مباركة

كان أبو طالب موضع العزة من قومه ، فقد ورث زعامة البيت الهاشمي عن أبيه عبد المطلب فقام مقامه في رعاية البيت الحرام ، وإكرام الوافدين للحج من القبائل ، وكان أبوه يعلم مروءته وعزته ، فأوصاه برعاية ابن أخيه محمد ﷺ فنشأ في كنفه بعد أن مات عبد المطلب ، فكان عنده كأحد أبنائه أو أعز ، وقد رأى فيه من الخصال النبيلة ما حققته الأيام ، وقد أصيبت قريش ذات عام بالقحط والمجاعة ، وكان أبو طالب كثير العيال ، ومحمدٌ ابن أخيه ذا مال وفير ؛ لأنه يتاجر ويكسب عن سعة ، فاجتمع محمدٌ بعميه حمزة والعباس ، وقال لهما : أخوكما أبو طالب كما تعلمون ، وقد نزل البلاء بقريش فعانت من القحط ما عانت ، وعلينا أن نعينه على رعاية أولاده : وهم عَقيلٌ وطالبٌ وجعفر وعلي ، بأن نأخذ من أولاده مَنْ نعُولُه ، فوافقوا مستريحين لرأي محمد ، ثم جاءوا إلى أبي طالب فعرضوا عليه ما انتهوا إليه فقال : دعوا لي عُقيلاً فأنا لا أستطيع فراقه ، فقالوا : شأنك به ، وأخذ العباس طالبًا ، وأخذ حمزة جعفرًا ، وأخذ رسول الله عليًا ، فنشأ في بيته الكريم ، وجاء الإسلام وعليٌّ في الثامنة فأسلم ، وكان أول صغير يُسلم ، وقد حفظه الله من رجس الجاهلية فلم يسجد لصنم ؛ لأنه نشأ في بيت النبوة ، وذلك بعض ما يفهم مما

قيل عنه « كرم الله وجهـه » وأي كرامـةٍ أرقـى مـن التحـرز مـن السجود للأوثان في زمن كان أشراف الجاهليين يرون ذلك عبادة واجبة الأداء .

ولا نمر مرًا سريعًا على هذا الحادث ، بل نتأمـل شـفقة محمـد ﷺ الحانية ، حيث تنبـه إلى مـا لم يتنبـه إليـه عمّـاه ، ورأى صـلة الرحم أوجب وآكد في زمن الشدة ، فسعى إلى ضرب المثال الحي بما اقترح ، وأرى في ذلك أسوة حسـنة سـنها رسـول الله قبـل أن يشرف بالبعثة ، ويتعلم من وحي السماء ، والله أعلم حيث يجعل رسالته .

ولاشك أن عليًا الطفل قد رأى من مآثر والده ما حببه إليـه ، فهو سيد قريش ، وشـجاعها لـدى النـزاع ، وصـاحب رأيهـا في المعضلات ، فأورثه ذلك عـزة وشموخًـا ، فلمـا انتقـل إلى بيـت رسول الله زادت هـذه الشـمائل رسـوخًا في نفسـه ، وزاد علمًـا وفضلاً إذ نشأ في منزل الوحي ، وسمع حديث الرسـول ، ورأى فعله ونهل من فصاحته فكان أبلغ قريش من بعده ، بل كان فيما بعد موضع سره ونجواه ، وكتاب علمه ، وقد افتخـر علـي بهـذه النشـأة فقـال مباهيًـا : كـان رسـول الله ﷺ يضـمني إلى صـدره ويكنفني إلى فراشه ويُسبغ علي عطفه .

أما كيف أسلم هذا الغلام الصغير فإنه دخل على رسـول الله ﷺ عقب البعثة فوجده يصلي لله ، والسـيدة خديجـة مـن خلفـه تفعل ما يفعل ، فانتظر حتى انتهت الصلاة ثم تقدم إلى ابن عمـه

يسأله : ما هذا يا محمد؟ فقال رسول الله ﷺ : هذا دين الله الذي بعث به رسله ، فأدعوك إليه ، وأن تكفر باللات والعزى ، فقال في دهشة : هذا أمر لم أسمع به من قبل ، ولن أقضي أمرًا حتى أسأل عنه أبا طالب ، فقال ﷺ : يا علي ، إن لن تسلم فاكتم ، فمكث على طيلة ليلته ساهرًا لم يغمض له جفن ، يفكر في هذا الدين الجديد ، حتى انبلج ضوء الصباح ، فسارع إلى ابن عمه ليعلن إسلامه ، ولم يستشر أباه كما وَدَّ من قبل ، وحين علم أبو طالب بأمره ، قال له : أي بُنيّ ، أي شيء أنت عليه ؟ فقال يا أبت : آمنت بالله ورسوله ، وصدقت ما جاء به ، فقال أبو طالب في هدوء : لم يدْعُكَ إلاَّ إلى الخير فاتّبعْه .

ولعلنا نقف وقفة هادئة أمام سلوك علي ، فهو لم يعلن إسلامه فور أن أخبره الرسول بأمره ، بل آثر أن يخلو إلى نفسه مفكرًا ، ولاشك أنه في ليلته هذه أخذ يفكر في أمر آلهة قريش ، ونظر بعين البصيرة فعلم أنها أخشابٌ منصوبة لا تضر ولا تنفع ، كما عرف من ابن عمه أن للكون ربًا خالقًا جديرًا بالعبادة ، فوازن وقارن ثم اهتدى إلى الحق ، ولم ير أن يستشير أباه ، إذ أن نور الإيمان قد ملأ قلبه فكفاه أن يستشير .

كان علي يشهد النزاع الدائم بين رسول الله والمشركين ويستمع إلى وحي الله فيزداد يقينًا ، وقد تحمل من عنت القوم وإيذائهم ما زاده صلابة ورسوخًا ، وكان فيه فصاحة خالية فجعل شبابُ قريش يتحاشوْن نقاشه ؛ لأن حجته المقتبسة من

هدي ابن عمه كانت سلاحًا لا يفل ، وقد حرص على أن يستوعب مقررات الإسلام ليكون داعية خطيبًا ومناقشًا ، كما هو فارسه مجاهدًا ومناضلاً ، وإذا كان قد انفرد بهذه النشأة المباركة دون خيار الصحابة ، فهو توفيق الله ورعايته .

وقد أنشأ الشاعر الكبير محمد عبد المطلب مدحة علوية جمعت تاريخ الإمام ، وقد قال فيها متحدثًا عن إسلامه :

وما اعتنق الحنيف بغير رأي ... ولم يسلك بحجته اقتحاما

ولكن النبوة أمهلته ... ليجمع رأيه يومًا تمامًا

فأقبل والحجا يُرخي عليه ... جلالاً يصغر الشيخ الهماما

يمد إلى النبي يد ابن عم ... بحبل الله تعتصم اعتصاما

٢ـ لا فتىً إلا علي

هذا مثل عربيٌ اشتهر ، لأن علي بن أبي طالب في التاريخ الإسلامي هو رائد الفتوة العربية ، والفتوة بمعناها الشامل تجمع الشجاعة والمروءة والفدائية والسماحة والإيثار والنخوة ، وتلك صفات قد اكتملت في الإمام كرم الله وجهه حتى قال القائل :

لا سيف إلا ذو الفقار ... ولا فتىً إلا عليّ

وقال قائل :

أنا مولىً لفتىً ... أُنزل فيه هل أتى

وأول مظاهر هذه الفتوة ما بدا في شبابه من افتدائه رسول الله

ﷺ حين نام في مضجعه ليلة الهجرة إذ كان الأمر من الخطورة والتضحية بحيث لا يخفى على متأمل ، فالرسول لم يعلم أحدًا بميعاد هجرته الشريفة غير صديقه أبي بكر وابن عمه علي ، أما أبو بكر فليستعد للمصاحبة وتهيئة ما يلزم لها من الراحلة والزاد ، وأما عليٌّ فلينام في مضجعه ليظن المتآمرون أنه لا يزال في مكة تضليلاً لهم كيلا يتبعوا المهاجر الكريم في وقت مبكر فيستطيعوا اللحاق به ، ومن المنتظر من هؤلاء أن يهجموا على النائم دُون إيقاظ ، وأن يعملوا فيه السيف تشفيًا لحقدهم المركوز ، هذا ما تأكده عليٌّ ورحب به ، ولكن عين الله قد كانت ترعاه ، فقد انتظر المتآمرون حتى منتصف الليل وعيونهم إلى فرجةٍ في الباب تلحظ النائم فيطمئنون إلى تدبيرهم الغادر ، ورئيسهم أبو جهل في غاية السرور لأنه أحكم التدبير حين جمع من كل قبيلة شابًا جلدًا يشترك في الاغتيال فيضيع دم الرسول في قريش إذ لا يستطيع بنو هاشم مقاومة الجميع ، وما دنت الساعة الرهيبة حتى اقتحم الطغاة المنزل ، وقبل أن يشرعوا سيوفهم كشف عليٌّ عن وجهه ، وكانت صدمة كبرى خيبت كل أمل ، إذ كان المقصود هو هذا الذي سفه عقولهم وحقر آلهتهم ، فأين هو؟ لقد خرجوا على الفور ، وعرف أبو جهل أن الرسول في طريقه إلى المدينة ، فلم يشأ أن يضيع لحظة في السؤال والجواب ، وفرق القوم طوائف ليتعقبوا المهاجر في كل سبيل يؤدي إلى مهجره ، ودام البحث المتشنج في غيظ ، حيث انتهى بالإخفاق الذريع .

ثم مكث علي في مكة يجمع حاجات الرسول ، وما خلفه من ضروريات الملبس والعيش كما يؤدي عنه ودائعه ووصاياه ، حتى بلغ ما أراد ، واتجه في أمان إلى حيث يقيم فاستقبله الرسول استقبال الأخ الحبيب لأخيه بعد فراق مليء بالمفاجآت والتوقعات ، وجعل الرسول من همه أن يؤاخي بين المهاجرين والأنصار ، فاختار لكل مهاجر أخًا مدنيًا يقاسمه عيشه حتى تستقيم الأمور على وجه ميسور ، واختار علي بن أبي طالب أخًا له ، وعليٌّ مكيٌّ لا مدني ، ولكن الرسول عبر بذلك عن شدة التزامه بابن عمه ، وأنه منه بالمكان الذي لا ينكر ، وبالمنزل الذي تشرئب إليه النفوس . وآكد من هذا وأوثق هو اختصاصه رسول الله بزواج ابنته فاطمة إذ كانت عنده بالمنزلة الأثيرة ، وكان يعلم بإلهام من الله أن نسله الطاهر سيكون عن طريقها ، فآثر أن يكون ابن عمه صاحب حظوتها ، ورجل هنائها ، وقد ابتهج المسلمون بهذا القران الذي صادف موقعه الصحيح ، ومن نوادره الطريفة أن عليًا ﷺ حين دخل على عروسه ، رآها تتوضأ لتصلي ، فسُر وتبعها فتوضأ ونهضا للصلاة ، ووليا وجههما شطر البيت ، وهذا ما عبر عنه صاحب ديوان حنين الليالي (١) حين قال :

حَباهُ بِبِنْتِه زوجًا بتولا ... فزاد بقربها عزًا وجاهًا
متوجةً بتاج الطهر تحلُو ... ملامحها ويندى عارضاها

---

(١) ديوان حنين الليالي . للدكتور / محمد رجب البيومي .

إذا منحتــه ودَّ القلـــب ثنــتْ بنــور العقـل فامتلكـت نهاهــا

وحــينَ تقــابلا بعــد اشــتياق دَعَتْــه إلى الصــلاة فأدياهـــا

وباتــا ســاجديْن فيــا لأُنثـــى بتـول في الـدجى عافـت كراهًـا

لــنعم البيــتُ قــام بصــاحبيْه عـلى تقــوى مــن الله احتــذاها

أما قول الشاعر :

أنـــــا مـــــولى لفتـــــىً أنـــزل فيـــه هـــل أتـــى

فيشير إلى القصة التاريخية التي رواها كثير من المفسرين عند قول الله تعالى في سورة (هل أتى) : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ [الدهر:٨-١٢] ، وموجز القصة أن الحسين والحسن رضي الله عنهما قد مرضا ، فنذر عليٌّ وفاطمة أن يصوما ثلاثة أيام إذا شفيا ، وقد تحقق أملهما فاقترض علي ـ رضي الله عنه ـ ثلاثة أصوع من الشعير ، طحنتها زوجته لكل يوم صاعًا ، وجاء الفقير والمسكين والأسير متتابعين في الأيام الثلاثة عند الإفطار ، فآثرهم الصائمان بما كانا سيأكلان ، وشربا الماء واكتفيا بكسرات يابسة كانت لديهما ،

فنزل النص الكريم ، وليس في القصة ما يستغرب حتى يلجّ في إنكارها بعضُ المتعالمين ، وقد رويت عن ابن عباس ورواها الكبار من أمثال البيضاوي وأبي السعود والواحدي والنسفي ، ومجاهد من قبلهم ، والأصوليون يقولون إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فليكن الخصوص ما اتجه إلى علي وفاطمة ، والعموم ما يشمل كل مسلم يُطعم الطعام المسكين واليتيم وابن السبيل .

وقد ولي علي الخلافة وفاضت في يده الأموال ، ولكن الزهد كان طبيعته فلم يغير ما اعتاد عليه من المأكل والملبس ، وقد نوقش في ذلك ، فأبى أن ينزل عن زهده ، وهو شيءٌ في طبيعته ركبه الله في خلقه الطاهر ، وشعوره الحساس يمنعه أن يتلذذ بما التذ به المترفون من لذائذ العيش ، وقد عرف أن رسول الله كان يجوع ويتصبر والدنيا في يده ، ضربًا للمثل وتثبيتًا للقدوة ، وعلي كرم الله وجهه هو القائل :

وحسبُك عارا أن تبيتَ بكظة   وحولك أكبادٌ تحن إلى القدّ

٣- شجاعة خارقة

لعلي بن أبي طالب فروسية نادرة في الحرب فهو بطلها المعلم ، وقد ذاعت أنباء بطولته بين الناس ، وانتشرت حتى في الأدب الشعبي ، إذ زعم أحد مؤلفيه أن ابن أبي طالب حارب الجن وانتصر عليهم في عدة ميادين ، ولسنا نكتب ذلك على أنه حق ، ولكن على أنه يصور إحساس الناس بشجاعة علي حتى اختلقوا

له الأساطير ، فدلالة هـذه المزاعم ذات معنـى لـدى مـن يقـدر الشخصيات ، ويرصد عظم تأثيرها في النفوس ، وفي أول معارك الإسلام وهي بدر الكبرى ، ذكر نفرٌ من المؤرخين أن ثلث القتلى من المشركين كان بسيف علي ، وهو أمر لا يستغرب لأن عليًا في المعـارك تقـدم ، ويضـرب ذات اليمين ، وذات الشـمال ، وقـد حرص على الشهادة فهي هدفه الأول ، وبهذا الحرص بلـغ مـن أعدائه ما يريد ، وحين بدأت المعركة تصدر من المشركين عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة بـن ربيعـة وابنـه الوليـد ، ودعـوا المسـلمين للمبارزة فخرج إليهم ثلاثة من الأنصار هـم عـوف ومعـوذ ابنـا الحارث وعبد الله بن رواحة ، فقال المشركون : نريد أكفاءنـا مـن قريش فليس لنا في قتال أهل المدينة من أرب ، فتقدم بأمر رسول الله عبيدة بن الحارث وحمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالـب وكلهم من ولد عبد المطلب . جد رسول الله ، لأن الحارث والـد عبيدة هو ولد عبـد المطلـب ودارت المعركـة فقتـل علـى مبـارزه الوليد وقتل حمزة شيبة ، أما عبيـدة فتصـارع مـع عتبـة ، وجُـرح المتصارعان في مبارزة رهيبـة ، فكـر حمـزة وعلـي علـى عـدوهما فقتلاه ! وهنا اشتعل الغضب من المشركين وهجمـوا علـى قلـب رجل واحد فلاقوا إعصـارًا مـن المسـلمين كـان في طليعتـه سـيد الشهداء حمزة ، وبطل الأبطال علي ، ثم تم نصر الله .

وفي أحد أبلى عليٌّ بلاءً عظيمًا ، ورأى النصر أولاً ففرح ، ثم لاحت بوادر الهزيمة عندما ترك الرماة مكانهم من الجبل ، فصرخ

عليٌّ وتقدم يَصُدُّ المهاجمين ، وذاع في الناس أن رسول الله قد قتل ، هنا طار طائر عليّ ، ثم أدركه إيمانه فقال لابد أن آخذ بثأره ، واندفع في بطولةٍ خارقة يردي من واجهه مهما تكالب عليه المشركون ، وفي صدره غيظ يحمي كملتهب السعير ، وقد أجاد الشاعر محمد عبد المطلب وصف عليّ في ساعة الهول فقال عن حيرته الآسية حين جاءه النبأ الفاجع بمقتل رسول الله ﷺ :

أتى الشهداء مفتقدًا أخاه لعلَّ الموت عاجله اخترامـا

أخي بأبي يخيم ؟ يفر ؟ حاشا أخي في الروع جبنا أو ضياما

لعل الله أصعده إليه ليبعثه بحضرته مقاما

فبئس العيش بعدك يا بن أمي سئمتُ العيش والدنيا سآما

وحطَّم غمدَه وهوى إليهم هوى الباز يعتبط الحماما

(يخيم) : يجبن . (يعتبط) : يهلك .

أما يوم الخندق فقد كان علي بن أبي طالب بطله المعلم ، ومن حديثه أن بطل المشركين عمرو بن ود كان قد تأخر يوم بدر فلم يشهد المعركة لغيابه عن مكة ، فلما عاد أخذت النساء من المشركات يُقَرِّعْنَهُ ويقلن له ما فائدتك لقومك ؟ وقد تركتهم لمحمد يوم بدر ، ثم جاءت الأحزاب بجموعهم ، فكان النساء أول من قرعن باب عمرو ، تقلن له : هذا يومك ، هذا يومك! فاستشعر نخوة وركب فرسه المعلم واتجه إلى الميدان مستهزئًا بمن سيلقاهم ثم صاح بالمسلمين ، تزعمون أن الجنة نصيب من يقتل

منكم فهيا إليّ ألحقكم بالجنة ، من يبارزني سأنيله ما يبتغيه ! وكرر النداء من يبارز؟ من يبارز؟ فحميت عروق علي حفيظةً ، وقال : أنا له يا رسول الله ، فقال الرسول : تمهل يا علي فإنه عمرو بن ود ، وتكرر نداء عمرو ، فصرخ عليٌّ أنا له يا رسول الله ، وإن يكن عمرًا فإني عليٌّ ، فأذن له الرسول !! موقف عاطفي زاخر بالمعاني الجياشة ، أحسن الشاعر محمد عبد المطلب تصويره حين قال عن عمرو وعلي :

فجال منازعًا ودعا مدلا ... فعمَّ الهول حينَ دعا وغاما

هنالك لو ترى الكرار لما ... تصبب في حميته جُماما

إذا ما همَّ أقعده أخوه ... وزاد إلى اللقاء هوىً فقاما

مكانك يا عليٌّ فذاك عمرو ... وإن لكل ذات جنىً جراما

فقال وإن يكن عمرا فدعني ... رسول الله ألجمه الحُساما

يُحدث نفسه ولها أجيجٌ ... ببأس الله يضطرم اضطرامًا

فلم يك غير أن فلق ابن ود ... وخَاضَ السيف في دمه وعاما

وتروى كتب السيرة : أن عمرو بن ود استصغر عليًا حين رآه ، وقال له : من أنت يا غلام؟ فقال : أنا علي بن أبي طالب ، فقال : تنح عني فأنا لا أريد أن أقتلك ؟ فقال عليٌّ : ولكني أريد أن أقتلك ، فهاجت حفيظة عمرو ، وتقدم إليه فبدأ العراك .

وطارت الأنباء إلى مكة ، تعلن مصرع البطل المشرك عمرو بن

ودٍ على يد الشاب الباسل علي بن أبي طالب ، وسكتت أخت عمرو فلم ترفع صوتها بالصراخ حزنًا عليه فقيل لها في ذلك فقالت :

لو كان قاتل عمرو غير قاتله بكيته أبدًا ما دمت في الأبد

لكن قاتله من لا نظير له وكان يُدعي أبوه بيضة البلد

هذا موقف ، وفي غزوة خيبر موقف مماثل ، فقد كان مرحب ابن منسيه هو بطل اليهود ، وكان يلبس درعين ويتقلد سيفين ورمحين ، ويعتقد أنه لا يقهر ، وله من المواقف السابقة ما يُزكي اعتقاده ، وقد وقفت جموع المسلمين أمام حصن خيبر محاولة أن تقتحمه ، فلم يتيسر ذلك ، فلما طال أمد الحصار ، قال رسول الله ﷺ سأعطي الراية غدًا رجلاً يحب الله ورسوله ويحبانه ، فبات المهاجرون والأنصار وكل يتمنى أن يكون ذلك الرجل الذي يحبه الله ورسوله ، حتى قال عمر بن الخطاب : لقد تمنيت الإمارة ليلة إذ ، ولما أسفر الصباح دعا رسول الله عليًا ، وكانت عينه مريضة مرمدة ، فمسح عليها بيده الشريفة فبرئت وأعطاه الراية ، فتقدم إلى مرحب غير هياب ، ولكن مجنه قد طار من يده ، ولولا أن أعانته بديهته فمال إلى باب كبير أمام الحصن ، وجعله ترسًا له ، لكانت العاقبة أليمة ، ثم تابع عزيمته فتقدم إلى مرحب وصعقه صعقتين على رأسه بسيفه ذي الفقار ، ففلق ما على الرأس من البيضتين ووصل السيف إلى فكه الأسفل ، فخر صريعًا ! وفي بعض الروايات أن عليًا ـ كرم الله وجهه ـ هو الذي

قتل ياسرًا أخا مرحب ، وكانت المعركة معه ، أما الذي قتل مرحبًا فهو محمد بن مسلمة وكلاهما بطل مرموق ! وبمقتل ياسر ومرحب تم النصر للمسلمين .

أمّا في السرايا فقد تعددت غزواته الظافرة ، وكان الرسول يختاره للأماكن البعيدة نسبيًا ، حيث يعلم من صبره ما يستطيع به أن يقود السرية دون تخوف ، وكان لاسمه من المهابة والخوف ما يحمل المناوئين على الاستسلام دون قتال في أكثر المواقع ، كما حدث لقبيلة سعد بن بكر حيث صالحت اليهود في خيبر قبل غزاة المسلمين ، وتعهدت على أن تمدهم بالتمر ، وكان ذلك مظهر عداءٍ للمسلمين إذ تعاونوا مع العدو عليهم فأرسل رسول الله ﷺ عليًا - كرم الله وجهه - في مائة رجل إلى قريتهم ، ولم يبدأ عليٌّ بالقتال ، إذ بعث يسأل عن أمرهم ، فأمهلوا الرسول ليخفوا عنه ما يعتزمون من الفرار ، فلما طال انتظاره تلمسهم في خيامهم فلم يجد أحدًا ، إذ تركوا أمتعتهم ودوابهم وفروا هاربين ، ورجع عليٌّ بما غنم .

ثم جاءت موقعة طيء ، إذ بلغ رسول الله أنهم يعاونون الروم ، ومنهم عيون على المسلمين ، ولهم صنم يطوفون حوله ، ويؤلهونه ، فبعث عليًا على رأس جيش من الأنصار ، فهدموا الصنم واستسلمت طيء حين يئست من النصر ، وكان في السبايا سفانة بنت حاتم الطائي ، فحفظ لها علي كرامتها ، ورعي مكانة أبيها ، وساقها مكرمة إلى المدينة ، فلما مثلت بين يدي رسول الله

ﷺ قالت له : يا محمد ، هلك الوالد ، وغاب الوافد ، فإن رأيت أن تخلي عني ولا تشمت بي أحياء العرب ، فإن أبي كان سيد قومه ، يفك العاني ، ويقتل الجاني ، ويحفظ الجار ، ويحمي الذمار ، ويعين على نوائب الدهر ، وما أتاه أحدٌ في حاجة فرده خائبًا ، أنا بنت حاتم طيء ، فقال النبي ﷺ : « يا جارية هذه صفات المؤمنين حقًا ، ولو كان أبوك مسلمًا لترحمنا عليه ، خلُّوا عنها ، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق » .

أما مذجح فقد أبدت البغضاء للإسلام ، وحاولت أن تؤلب العرب على المسلمين ، فبعث رسول الله ﷺ إليها عليّ بن أبي طالب في ثلاثمائة فارس ، ولأهمية الرحلة عقد له النبي اللواء بيده ، وعممه بعمامة بيضاء وسار الجيش ، فدعا القوم للإسلام فأبوا ورشقوا المسلمين بالنبل والحجارة ، فاستعد عليٌّ للمعركة ، ودفع اللواء إلى سعد بن سنان فحمل عليهم فدارت عليهم الدائرة فانهزموا وتفرقوا ، ثم رأى عليٌّ أن يكمل رسالته فبعث إلى الهاربين من يتتبعهم ليقول لهم إن الإسلام يجب ما قبله ولا تثريب عليهم إذا رجعوا مسلمين فأسرعوا إلى الإجابة ، وعاد عليٌّ إلى المدينة فوجد رسول الله ﷺ في حجة الوداع ، فوافاه بمكة وأبلغه ما تم من النصر .

٤ـ بعد وفاة الرسول

وحين انتقل رسول الله إلى الملأ الأعلى ، كان عليٌّ يقوم على أمره غسلاً وكفنًا وتشييعًا ، فلم يبايع يوم السقيفة ، وقد كثر

القول في موقفه ، ومن المؤرخين من بالغ وعدَّ الأمر معركة بين عليٍّ وخصومه ، ولكن الصحيح الثابت أن عليًا حين رأى الأكثرية قد بايعت أبا بكر وجد أن صلاح الأمة في التئام الشمل فبايع عن رضًا واقتناع ، يدلُّ على ذلك ما تحدث به عليٌّ بعد معركة الجمل ، إذ قال لمن لغطوا في أمر أبي بكر وعمر ، وزعموا أن رسول الله قد عهد إلى عليٍّ قال قولاً يدل على عظمةٍ نفسية لا تتاح إلا لذوي الورع من الأتقياء ، قال علي ـ كرم الله وجهه : (والله لو أن الرسول ﷺ كان قد عهد إليَّ ما تركت الأمر لأبي بكر وعُمر من بعده ، ولكن نبينا لم يقتل ، ولم يمت فجأة ، بل مرض ليالي وأيامًا فأتاه بلال ليؤذنه بالصلاة ، فقال له : إئت أبا بكر ، وهو يرى مكاني فلما قبض رسول الله نظرنا في الأمر ، فإذا الصلاة علم الإسلام وقوام الدين فرضينا لدنيانا من رضيه رسول الله لدينه ، فولينا أمورنا أبا بكر ، فأقام بين أظهرنا والكلمة واحدة ، والدين جامع لا يختلف منا اثنان ، وود أبو بكر لو أن واحدًا منا يكفيه ، فلما حضرته الوفاة ظننت أنه لا يعدل عني لقرابتي لرسول الله وسابقتي وفضلي ، ولكنه ظن عمر أقوى مني عليها ، ولو كانت ثرةً لآثر بها ولده ، فولّي عمر على كراهة كثير من أصحابه ، فكنت فيمن رضي لا فيمن كره) .

هذا موقف علي من الصاحبين ، فالذين يدعون البغضاء بين هؤلاء الأجلاء يفترون على الله الكذب ، أما موقف علي من عثمان فهاك تفصيله :

إن حديث الموازنة بين أئمة الصحابة عسيرٌ على من يريد أن يشبع رغبة البحث ، إذ المتفق عليه أن كلاً من عثمان وعلي والزبير وطلحة من المبشرين بالجنة وأنهم أصفياء رسول الله وخلصاؤه ، وقد يكون من الأحداث المهمة في سير الأمور ما جهله المؤرخون فلم يذكروه ، لذلك كان الموازن المرجح في هذا المجال يسير على الشوك . وأمام هذه السيول المتراكمة من الأخبار حقيقةً وزائفةً أن أذكر ما أعتقد أنه أقرب إلى الصواب ، تاركًا هذا الركام الهائل مما اصطنعه المغرضون ، وكل حزبٍ بما لديهم فرحون .

فحين تأزمت الأمور بين عثمان والثوار ، ذهب نفرٌ منهم إلى علي ـ رضي الله عنه ـ ورأوا أن يكون سفيرهم إلى عثمان ، ففكر وفكر ، ثم ذهب إليه ، وقال في إخلاص : إن الناس ورائي وقد استسفروني بينك وبينهم ، ووالله ما أدري ما أقول لك ، وما أعرف شيئًا أنت تجهله ، ولا أدلك على شيء لا تعرفه ، إنك لتعلم ما نعلم ، ما سبقناك إلى شيءٍ فنخبرك عنه ، ولا خلونا بشيء فنبلغكه ، وقد صحبت رسول الله كما صحبناه ، وما ابن أبي قحافة ، ولا ابن الخطاب ، أولى بعمل الحق منك ، وأنت أقرب إلى رسول الله وشيجة رحم منهما ، وقد نلت من صهره ما لم ينالا ، فالله الله في نفسك ، فإنك والله ما تُبصّر من عمًي ، ولا تُعلَّم من جهل ، وإن الطريقَ واضحة ، وإني أنشدك الله ألَّا تكون إمام هذه الأمة المقتول ، فتفتح هذا البابَ إلى يوم القيامة ،

ويموج الناس موجًا لا يعرفون فيه وجه الحق ، فلا تكون لمروان سَيِّقَةً[1] عليك حيث شاء بعد جلال السن وتقضي العمر .

هذا النص الواضح يبين وجهة رأي علي في موقف عثمان ، ويصور ما يعقل أن يصدر عن حكيم حازم كابن أبي طالب فهو لم ينكر على عثمان سابقته وفضله ومكانه من رسول الله ، وزمالته للكبار من أمثال أبي بكر وعمر ! وهذا حقٌّ ولكنه في الوقت نفسه وضح له عاقبة الثورة المضطرمة وأنها توشك أن تعصف به فتفتح في الإسلام بابًا لا يُغلق ، كما واجهه بأمر مروان بن الحكم ، وكيف استطاع أن يغلب على عثمان بدهائه فأراه الباطل حقًا ، والرشد غيًا ! وهذا كله ما كان ينتظر من علي نلخّصُه في الصدق في النصيحة ومواجهة الحقائق دون قناع .

ثم بلغت المأساة ذروتها ، فقتل عثمان شهيدًا ، وبايعت الأكثرية علي بن أبي طالب ، وشاء الله للزبير وطلحة أن يستجيبا لرأي عائشة رضي الله عنها في أمورٍ ندم عليها الثلاثة ندمًا مبرحًا ، وليس لنا أن نخوض في تفصيلها ، فهي معلومة مشتهرة ، ونحن نكتب للعظة والاعتبار ، ولا نتتبع السرائر والضمائر لنتحكم على المكنون المستتر فذلك كله من شأن المؤرخ المتخصص إذا أخلص للحق ، وقل أن يوجد ! أما نجاح أعداء علي في مقاومته : فسببه أن عليًا التزم بأمور الإسلام فيما يأخذ ويدع فلم يعمد إلى الدسائس والمؤامرات ولم يبذل الهدايا

---

(١) أي : لا يسوقك مروان إلى ما لا يجب بعد هذه السن .

والرُّشي ، ولم يظهر غير ما يبطن ، وهذه السياسة كانت ذات فائدة كبرى أيام عمر بن الخطاب ، لأن المسلمين كانوا حينئذ بعيدين عن زهرة الحياة الدنيا ، وأنفاس رسول الله ﷺ لا تزال تتردد بينهم غضةً طريفة لم يتزيد فيها متزيد ولم تكثر بها الأحاديث الموضوعة ، ولعمر هيبة تخلع قلوب العصاة والمرجفين ، فلما ذهب عمر ، وعرف الناس زخرف الحياة وشهدوا لين عثمان اندفعوا إلى الطمع والجشع ، وكسبوا من وراء ذلك مالاً كثيرًا ، وجاهًا وفيرًا ، وأراد عليٌّ أن يردهم إلى الحق فغلبتهم أماني الحياة وبهارجها ، وانضموا إلى خصمه الذي يؤثرهم بما يطلبون ويرغبون ، وحول هذه المعاني يقول الجاحظ :

« وربما رأيت بعض من يظن بنفسه العقل والتحصيل والفهم والتمييز ، وهو من العامة ، ويظن أنه من الخاصة يزعم أن معاوية كان أبعد غورًا ، وأصحّ فكرًا ، وأجود رأيًا من علي ، وليس الأمر كذلك ، وسأومي إليك بما يكشف الخطأ .

كان علي عليه السلام لا يستعمل في حربه إلا ما وافق الكتاب والسنة ، ويقول : لا تبدءوهم حتى يبدءوكم ولا تتبعوا مدبرًا ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تفتحوا بابًا مغلقًا ، وسيرته في الرؤساء كسيرته في الأتباع والحاشية والسفلة ، ولكن أصحاب الحروب غير ذلك أ.هـ .

ماذا يريد الجاحظ أن يقول : يريد أن يقول إن التزام علي بالكتاب والسنة ، جَعله ينظر إلى خصومه ، نظرة المسلم للمسلم

فلا يسمح في الحرب بالغش والخداع والكذب ، والتآمر فهو كما قال الجاحظ فيما بعد :« إن عليًا كانَ مُلْجمًا بالورع ، وممنوع اليدين من كل بطش لا يُرضي الله ، ومبغضًا كل البغض لأساليب الدهاء والخداع! » وبذلك انتصر خصمه في ميدان أسلحته الغدر والكذب والاحتيال ، والحياة في مدها الطويل وتقلبها في جنبات الدهر أصدق شاهدٍ على صحة هذا الاتجاه ، إذ لا يصل إلى مراده غيرُ مَن خادع وداهن ، وإذا كانت الحرب خدعة كما يقال ، فإن عليًا يرى أن تكون الخدعة بين الإيمان والشرك لا بين بني الإسلام ، وهو مذهب مثالي ! بل أقول إنه المذهب الإسلامي الصحيح ، لقد قامت حروب الجمل وصفين والنهروان ، وكلها بين مسلمين يتطاحنون ، فكان عليٌّ يبكي على القتيل سواءٌ كان من حزبه ، أو غير حزبه ، وقد صلى على شهداء صفين جميعًا من جنوده وجنود معاوية ، وقال وعينه تدمع : كلهم مسلمون! وتلك هي الفتوة في مفهومها الصحيح ، فتوة الشجاع الباسل الذي يتبصر لمبدأ شريف ، وقد ظهرت في العصر العباسي فرقة تسمى فرقة الفتيان ، كان شعارها الاقتداء بأخلاق علي بن أبي طالب ، لأنه رأس الفتيان في الإسلام ، وقد اختار هذا الشعار خليفة عباسي يعلم ما بينه وبين العلويين في زمانه من تِراتٍ ، ولكنه بهر بسيرة أمير المؤمنين كرم الله وجهه !

٥ـ عظمة خلقية

ولإيضاح جوانب العظمة الخلقية في سيرة علي بن أبي طالب

نذكر قوله : « إن عمر كان رشيد الأمر ولن أغير شيئًا صنعه عمر ، كان يولي العمال ويطلق لهم السلطان ، ولكنه كان يكشف أعمالهم ، ويُحاسبهم حسابًا شديدًا » ، وشدة حرص على على مصالح الأمة كرهت فيه ذوي المطامع الشخصية ، حتى أن أخاه عقيل بن أبي طالب خرج عليه وذهب إلى معاوية بالشام ! كان خشنًا في مأكله وملبسه ، وقد حمل العمال على التبلغ بميسور العيش والرفق بالرعية ، وكتب إليهم الكتب يدعوهم فيها إلى التقشف ، ويبين أنه سيكون سبيل التنعم في الآخرة ، وكان يقسم ما في بيت المال في نهاية الأسبوع بعد صلاة الجمعة على الفقراء والمحتاجين ، وقد جاءه ثَوْبان أحدهما جديد ، والآخر قديم فأعطي الثوب الجديد لغلامه (قنبر) ولبس الثوب القديم ، فقيل له في ذلك : قال : (قنبر شابٌ وفيه تطلعٌ للحياة ، فيليق به الجديد ، وأنا شيخٌ انتهيتُ من أمري فإذا لبست القديم كان مناسبًا لي !! هذا الزهد الزاهد لا تستقيم به الحياة بين قومٍ عرفوا نعيمها في عهد عثمان حين تمتعوا بغنائم الفتوح التي استثمروها فآتت من كل زوج بهيج .

وإذا كانت الدروس الخلقية هي أهم ما نعنيه من كتابة هذه الدراسات فإننا نتسع في إيضاح شمائل علي بن أبي طالب كما رواها مخالطوه ومعاشروه .

دخل ضرارُ الصدائي على معاوية بن أبي سفيان بعد أن تمَّ له الأمر ، وصار أميرًا للمؤمنين ، وهو يعرف صلة ضرار بعلي

وحبه إياه ، فقال له يا ضرار ، صف لي عليًا ، فقال : أعفني يا أمير المؤمنين ، فقال عزمت عليك أن تصفه فلا تبخل فقال ضرار : أما إذا كنت عزمت علي فاسمع :

كان عليٌ يا أمير المؤمنين بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلاً ، وينطق عدلاً ، تتفجر الحكمة من جوانبه ، وينطلق العلم من نواحيه ، كان فينا كأحدنا يجيبنا إذا دعوناه ، ويرضينا إذا سألناه ، لايطمع القوي في باطلٍ عنده ، ولا ييأس الضعيف من حقٍ يناله على يده ، كان والله كثير اللوعة ، غزير الدمعة ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويأنس بالليل ووحشته ، وأقسم لقد رأيته ذات ليلة وقد سكنت طوارق الليل ، وغارت نجومه ، وهو ماثلٌ في محرابه ، يتململ تململ السليم ، ويبكي بكاء الحزين ، ويقول : يا دنيا غري غيري ألي تعرضت : أم إلي تشوقت ! هيهات هيهات ، قد باينتك ثلاثًا لا رجعة فيها ، فنعيمك حقير وأجلك قصير ، آه من قلة الزاد ، وطول السفر ووحشة الطريق ، ثم بكى ضرار ، فتعجب معاوية لما سمع ، وبكى لبكائه بعض الحاضرين .

ودخلت سودة بنت عمارة على معاوية في موسم الحج ، فقالت له : عاملك عندنا ينهض بعزك ويحكم بسلطانك قد حصدنا حصد السنابل ، وسامنا الخسيسة ، وقتل رجالي ، وأخذ مالي ، فماذا أنت صانع به ؟ وقومي أولو عزة ومنعة ، ولو شاءوا لا نتقموا ، ولكنهم انتظروا أمرك فيه .

قال معاوية : أتهددينني بقومك ، لقد هممت أن أرسلك إلى عاملي ، ليصنع بك ما يشاء ، فحدقت سودة في وجهه ، وقالت شامخة معتزة : رحم الله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، لقد جئته في شكاةٍ ، كشكاتي هذه ، وكان قائمًا يصلي ، فأسرع معجلاً ، ثم قال برقةٍ وتعطف : ألكِ حاجة ؟ فأخبرته خبر عامله ، فتأوه وكاد يبكي ، ثم رفع يده إلى السماء ، اللهم إنك أنت الشاهد علي وعليهم ، إني لم آمرهم بظلم خلقك ، ولا بترك حقك ، ثم أخرج بيده قطعة من جرابٍ ، كتب فيها : « بسم الله الرحمن الرحيم ، ﴿ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف:٨٥] ، إذا آتاك كتابي هذا فاحتفظ بما في يدك حتى يأتي من يقبضه منك والسلام » هذا ما كان من علي بالأمس ، وما أسمعه منك اليوم! فأيكما أقرب إلى فاطر السموات والأرض؟

خرجت سودة ، فسأل معاوية عن غيرها ممن كان هواهُن مع علي ، فقيل له تلك امرأةٌ من كنانة تسكن الحجون ، ولا تزال تحدث قومها عن مآثر علي ، فقال علي بها ، فجاءت .

فرأى امرأةً سوداء برزة أمامه ، فقال لها : أتدرين لماذا أرسلتُ لك ؟ قالت في ثقة : لا يعلم الغيب إلا الله ، فقال : بعثت إليك أسأل ؟ لماذا تبغضينني وتحبين عليًا ؟

فقالت : اعفني يا أمير المؤمنين فأنا لا أقول غير الصدق ، قال : أجيبي وأنت صادقة ! فقالت : دُون أن يفارقها ثباتها ! أجببت عليًا لعدله في الرعية ، وقسمته بالسوية ، وأبغضتك لقتالك من هو أولى بالأمر منك ، وطلبك ما ليس لك بحق ، وواليت عليًا على ما عقد له رسول الله من الولاء ، وحبه للمساكين ، وإعظامه لأهل الدين ، وعاديتُك لسفكك الدماء ، وشقك العصا وحكمك بالهوى !

فقال : وهل رأيت عليًا ؟ فأجابت : رأيته والله فلم يفتنه الملك الذي فتنك ، ولم تشغله النعمة التي شغلتك ، فقال : هل لك من حاجة ؟ قالت : نعم ، وذكرت عددًا من النياق ، فقال : وهل أحلّ لديك مكان علي؟ فقالت : هيهات ! فتًى ولا مالك . فقال : لو كان علي حيًا ما أعطاك ، قالت : نعم والله ولا وبرةً من مال المسلمين!

هذه مواقف تُنبئ عن خلق الإمام ، وتظهر كيف تغلغل حبه في النفوس ، فهامت بفضائله ، وجعلته المثل الأعلى للسمو الخلقي في عهد تغيرت فيه الأوضاع .

٦ـ بلاغة علي

علي بن أبي طالب أفصح العرب بعد رسول الله ، وقد رَضَعَ البيان من أصفى ينابيعه ، وسارت له خطبٌ شوارد ، وأمثال نوادر ، وكانت بديهتُه مصدر إفحام لمن يعمد إلى تحديه ، لقيه بعض أهل الكتاب من اليهود فقال له : ما بالكم ما مات نبيكم حتى قال الأنصار : منا أمير ومنكم أمير . فقال عليّ : وأنتم ما

جفت أقدامكم من ماء البحر حتى قلتم : يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ، وجائزٌ أن يتعدد الأمراء ، وليس من الجائز أن يتعدد الإله .

وكتاب نهج البلاغة دليل فضل لا يجحد ، وقد يقال إنه اشتمل على خُطبٍ يسيرة ليست له ، وذلك لا يدفع أن أكثره مما قاله وخطب به الناس ، ورُوي في الكتب قبل أن يُولد الشريف الرضى بعشرات الأعوام ، فكيف تجمع الرواة على ترديده ثم نشك فيه لبعض زياداتٍ لحقته ، وقد قال صاحب ديوان (حنين الليالي) في وصفه :

أعِرْ نهجَ البلاغة لحظَ عيْن ... تر الفصحى ارتدت أبهى حلاها

بيانٌ صادحُ النبرات يعلُو ... فتحكيه السواجع في رباها

وموعظةٌ تفيض لها المآقي ... فتسمع آهة تقتاد آها

تبيت لها الحجارة في ارتعاد ... وقد ذابتْ أسىً مما اعتراها

تهش له المنابر في ابتهاج ... مُرحبةً به إما اعتلاها

وتلمحُ شخصه فتخف توًّا ... تُطالبه بأنْ يرقى ذراها

هو البحر الذي قد جاش موجًا ... وأدهش منظرًا ، وحلا مياها

تروح إليه أفئدةٌ صوادٍ ... فترجع عنه قد نَقَعتْ صداها

وأبلغ ما قيل في وصف نهج البلاغة ما قاله الأستاذ الإمام محمد عبده في تحليل سماته بالمقدمة التي كتبها في شرحه للكتاب

البليغ :

« كُنت كلما انتقلت من موضعٍ منه إلى موضع ، أحس بتغيير المشاهد ، وتحول المعاهد ، فتارة كنت أجدني في عالم تعمره من المعاني أرواحٌ عالية ، في حُلل من العبارات الزاهية ، تطوف على النفوس الزاكية ، وتدنو من القلوب الصافية ، تُوحي إليها رشادها ، وتقوّم منها منآدها ، وتنفر منها عن مداحض الزلل إلى جادة الفضل والكمال .

وطورًا كانت تتكشف لي الجُمَل عن وجوهٍ باسرة وأنياب كاشرة ، وأرواح في أشباح النمور ، ومخالب النسور ، قد تحفزت للوثاب ثم انقضَّتْ للاختلاب ، فخلبت القلوب عن هواها ، وأخذت الخواطر دون مرماها ، واغتالت فاسد الأهواء ، وباطل الآراء ، وأحيانًا كنت أشهد أن عقلاً نورانيًا ، لا يُشبه خُلقًا جسديًا ، فُصِل عن الموكب الإلهي واتصل بالروح الإنساني ، فخلعه عن غاشيات الطبيعة ، وسما به إلى الملكوت الأعلى ونما به إلى مشهد النور الأَجْلَى ، وسكن به إلى إعمار جانب التقديس ، بعد استخلاصه من شوائب التلبيس » .

هذا قليلٌ من كثير ، ولولا أنَّ عبارات الإمام تحتاج الناشئة إلى شرحٍ لها يقرب النائي ، ويجلو الغامض لأسهبت في النقل ، اعترافًا بالفضل ، وأنه لقول فصل وما هو بالهزل .

٧ـ استشهاده

كان من ديدن الإمام أن يسير إلى مأربه كما يسير أفراد الناس ،

دونُ هيئة حراس ، أو طنطنة حجاب ، وخرج لصلاة الفجر كعادته فضربه عبد الرحمن بن ملجم ، ضربةً قاضية ، ذهلت لها العقول وطاشت لها الأفهام ، بعد ثلاثٍ وستين من عمره كانت ذخيرة للإسلام ، ومددًا للمسلمين ، وقد قال الأستاذ محمد عبد المطلب في علويته باكيًا مصرع هذا البطل النبيل :

ألا تبَّتْ يدٌ بالغدر راحتْ تمد إلى أبي حسنٍ حُسامًا
بروحي غرةٌ يجري عليها دمٌ أزكى من المسك اشتيامًا
جبينٌ زاده بالموت نورًا لقاء الله فائتلق ابتساما
إلى دار السلام مضى علي وجاور في منازلها السلاما

وقد جاء في كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان ما يلي :

خرج هارون الرشيد ذات يوم إلى الصيد كعهده ، فانتهى به الطرد إلى موضع قبر علي المعروف الآن فوقفت الفهود دون القبر ولم تتقدم ، فتعجَّب الرشيد من ذلك ، فجاء رجل من أهل الخبرة ، وقال يا أمير المؤمنين ، أرأيتك إن دَلَلْتُكَ على قبر ابن عمك علي بن أبي طالب ، مالي عندك ؟ قال : لك أتم كرامة ، قال هذا قبرُهُ ، حيثُ وقفتِ الفهود ، فقال له الرشيد : من أين جاءك هذا ؟ قال كنت أجيء مع أبي فأزور قبره ، وأخبرني أنه كان يجئ مع جعفر الصادق فيزوره ، وأن جعفر الصادق كان يجئ مع أبيه محمد الباقر فيزوره ، وأن محمد الباقر كان يجئ مع أبيه علي زين العابدين فيزوره ، وأن عليًا كان يجئ مع أبيه

الحسين فيزوره ، وكان الحسين أعلمهم بمكان القبر .

فأمر الرشيد أن يحجر الموضع ، ثم تزايدت الأبنية من حوله ، وكان العلويون قد أخفوه عن الناس خشية أن يهدمه الأمويون ، وبعد فهذا بعض ما يقال : أما ما يجب أن يقال ففوق المستطاع .

*****

أبو عبيدة الجراح
أمين الأمة

جلس القوم يتسامرون فيما بينهم ، وكان الحديث يدور عن السابقين الأولين في الإسلام ، وجاء ذكر أبي عبيدة الجراح ، فقال أحدهم : ما ذكرت أبا عبيدة إلا ذكرت قصة وفد نجران حين قدم على رسول الله ؟ قيل له : وما قصة وفد نجران ؟ فانبرى يقول :

رَوَتْ كُتُب السيرة أن وفدًا من نجران قدم على رسول الله ﷺ فقالوا : ابعث معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا ، يحكم بيننا في أشياء نختلف عليها ، فإنك عندنا رضًا ، فقال رسول الله ﷺ : « ائتوني العشية أبعث معكم القوي الأمين » ، فكان عُمر بن الخطاب يقول : ما أحببت الإمارة قط حبى إياها ذلك اليوم ؛ رجاء أن أكون صاحبها ، فلما صلى بنا رسول الله ﷺ الظهر سلم ، ثم نظر عن يمينه وعن يساره ، فجعلت أتطاول ليراني ، فلم يزل يتلمس ببصره حتى رأى أبا عبيدة الجراح ، فدعاه فقال : اخرج معهم ، فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه ، قال عمر : فذهب بها أبو عبيدة .

هذا أبو عبيدة ، وهذه منزلته عند رسول الله ، فماذا كان أمره ؟

إنه المسلم الباسل عامر بن عبد الله الجراح ، وكنيته أبو عبيدة ،

وقد اشتهرت هذه الكنية حتى غلبت عليه ، فأصبح لا يُعرف إلا بها ، أما لقبه فهو أمين هذه الأمة ، وهو لقب خصه رسول الله به ، فحاز بذلك أعظم شرف .

نشأ في الجاهلية شابًا عفيفا ، لـه هيبـةٌ واحـترام ، وقـد شـهد غزوة بدرٍ وعمره إحدى وأربعون سنة ، إذن فيكـونُ قـد ولـد في العام التاسع والعشرين قبل هجرة الرسول : وكان من السـابقين الأولين للإسلام ، إذ أسلم في وقتٍ واحد مع أبي سلمة بن عبـد الأسد ، وعبيدة بن الحارث بن المطلب ، وعبد الرحمن بـن عـوف ، وسعد أبي وقاص ، وعثمان !! وذهبوا إلى رسول الله بعد حـوارٍ جادٍ مثمر مع أبي بكر اقتنعوا به ، وتملك مشـاعرهم ، فسـارعوا بالاتجاه إلى نبي الله ليدخلوا في دينه فضمن الإسلام بهم كسبًا أي كسب ، وذلـك قبـل أن تكـون دار الأرقـم بـن الأرقـم مدرسـة للمسلمين ومكانًا لتبليـغ الـدعوة ! ومـن يومهـا وقـريشٌ تعرفـه مؤمنًـا صـادقًا ، فالمسـلمون يعتـزون ويفتخـرون ، والمشـركون يقولون : لو كان معنا لما ضلنا به !

وتاريخ الحقبـة الأولى مـن الرسـالة في الواقـع تـاريخ هـؤلاء السابقين إلى الإسلام ، فكلهم تحمل مـن أعبـاء الـدعوة قـدر مـا يستطيع ، وأظهر من الثبات والإخلاص ما اشتد به أزر الدعوة ، وكانوا مـع ذلـك حمـاةً للمستضـعفين ، يصـدون عـنهم الأذى ، ويدفعون عنهم باللسان واليد ، حتى إذا كانت هجرة الحبشة كان أبو عبيدة في طليعة المهـاجرين ، وكانـت سماحتـه وتواضـعه ممـا

جعله موضع الائتمان على النفيس من الذخر ، والدفين من السر ، والاستشارة في المسائل العويصة ، وكان يؤثر على نفسه جُملة أصحابه ، إذ يرى نفسه جنديًا في كتيبة كبيرة ، والجندي ملتزم مطيع .

ومع أنه أسلم على يد أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ فقد كان عمرُ بن الخطاب من أخلص أصدقائه ، وصداقة عمر ـ رضي الله عنه ـ غير صداقة أبي بكر ، فأبو بكر صفوح متسامح ، يرى السيئة فيدفع بالتي هي أحسن ، وقد يُغمض على كثير من الهفوات ، أما عمر متشدد لا يسكت عن هنةٍ ، ولا يرعى غير حرمة الواجب ، فإذا تأثلت صداقته مع عمر فقد قامت على دعائم من الصدق المكين ، والحق الساطع الذي لا شبهة فيه ولا مرية !

جاء في كتاب البيان والتبين للجاحظ : أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ مر على قومٍ يتمنون ، يذكر كل واحد منهم مطلبًا يرجو أن يتحقق ، فلما رأوه سكتوا ، فسألهم فيم كنتم تتحدثون ؟ فقالوا : خلونا إلى أنفسنا ، فتذكر كل واحد ما يشتهيه فتمناه على الله ، فقال لهم : وماذا في ذلك ؟ تمنوا ما تشاءون ، وأنا أتمنى معكم ؟ فقالوا : ابدأ أنت يا عمر ، قال : أتمنى أن أرى رجالاً ملء هذا البيت مثل أبي عبيدة بن الجراح ، وسالم مولى أبي حذيفة ؛ لأن سالمًا كان شديد الحب لله ، لو لم يخف الله ما عصاه ، أما أبو عبيدة فهو أمين الأمة وقد قال رسول الله ﷺ :

« لكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح » ، هذا ما تمناه عمر ، وعمر رجل دولة ، فلم يتمن بقاء إمارته على المؤمنين ، ولم يتمن مالاً جزيلاً له ولذويه ، ولكنه تمنى رجالاً يخدمون الإسلام ، وفكر أول ما فكر في المثل الإنسانية الرفيعة ، فسالم مولى أبي حذيفة طاهر السر والعلن ، خافيه كباديه ، يكره المعصية لا خوفًا من النار ، وشوقًا إلى الجنة ، ولكن لأنها لا توافق مشربه النفسي ، فلو لم يخف عقاب الله ، وكانت المعصية مباحةً ما أقدم عليها ، وأبو عبيدة قال عنه رسول الله ﷺ أنه أمين هذه الأمة ، ورسول الله صادق الفراسة يعرف معادن الرجال ، ويزن أصحابه بميزان الخلق الرفيع ، وقد وجد الأمانة تتجسد معانيها في أبي عبيدة ، ولاشيء أشرف وأغلى من الأمانة فقال : إن أبا عبيدة أمين هذه الأمة ، وهذا ما وافق اعتقاد عمر بن الخطاب في صاحبه فتمنى أن يملأ البيت رجالاً مثل أبي عبيدة ، لتكون الأمانة منتشرة بين الناس ! هذه واحدة ، أما الثانية فأهم دلالة في موضعها ، فحين انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، واجتمع المسلمون في الثقيفة ، وكثر الخلاف ، وتعددت الآراء ، خاف عمر أن يفلت الزمام فيتفرق المسلمون ، فتذكر قول رسول الله ﷺ : أبو عبيدة أمين هذه الأمة ، فذهب إلى أبي عبيدة ، وقال له : ابسط يدك أبايعك ، ودُهش أبو عبيدة بقول عمر بن الخطاب ، إذ تذكر أبا بكر الصديق ، وأنه الخليل الأول لرسول الله ، فقال لعمر ، ما عددت عليك يا ابن الخطاب هفوةً قبلها ، كيف أكون إمامًا للمسلمين فيصلي ورائي أبو بكر ، وهو ثاني

اثنين إذ هما في الغار ، وقد استخلفه رسول الله ﷺ وهو مريض ليصلي بالناس .. وكأن الأرواح المؤمنة كانت تتناجى وتتجاوب ، ففي حوار الثقيفة ذكر أبو بكر أنه يرضى أحد الرجلين : عمر بن الخطاب أو أبا عبيدة ، وليست المسألة مسألة صداقة حميمة ، كما ترى اليوم في اتجاهات بعض الحزبيين ، ولكنها وزن للقيم الإسلامية في نظر كل واحدٍ من هؤلاء ، ومن جهة أخرى هي إيثار وتضحية لأن كل واحد من الثلاثة الكرام لا يذكر نفسه بحالٍ بل يذكر غيره ، ويرشحه على رءوس الأشهاد .

وأما الثالثة : فترجع إلى عمر ـ رضي الله عنه ـ حين احتضاره ، وقد أيقن أنه سيلقى الله عن قريب ، فقد تحدث إليه بعض الصحابة فيمن يراه خليفة من بعده ، فقال : ولعلها آخر ما قال : لو كان أبو عبيدة بن الجراح حيًا لاستخلفته ، فإن سألني ربي لم استخلفته ؟ قلت : إي ربي ، سمعت عبدك ونبيك محمدًا ﷺ يقول : « لكل أمةٍ أمينٌ ، وأمين هذه الأمة : أبو عبيدة بن الجراح » !! ونحن بعد هذه التزكيات الصادقة من أمير المؤمنين عمر ، ومن قبله أبو بكر الصديق ، ننتقل إلى شذور من حياة هذا الأمين ، تكون اليوم عبرةً مثلى ، لمن يبحثون عن مواضع الأسوة في حيوات الأبطال ، فالتاريخ الماضي بأبطاله الميامين قدوة الحاضر ، ولا يتم الوعظ الخلقي والإرشاد النفسي إلا بمثال حي تجسد في واقع الحياة ، فكان منارةً للاهتداء .

والمؤرخون يذكرون المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار في المدينة

وينسون الحديث عن المؤاخاة بين المسلمين في مكة قبل الهجرة ، فقد آخى رسول الله ﷺ بين أبي عبيدة وبلال بن رباح بعد أن أعتقه أبو بكر الصديق ، وفي هذا مغزى نبيلٌ ، فقد أراد أن يرفع من قدر بلال حين يقرنه بسيد من سادات قريش هو أبو عبيدة ابن الجراح ، وأبو عبيدة رجلٌ عالي الخلق ، رفيع المثل يعلمُ أن الشرف في الإسلام شرفُ التقوى ، وأن بلالاً بإسلامه قد صار أخاه ، فالمؤمنون إخوة ، وبهذا رحب بأخوة بلال ، وعدها تزكية من رسول الله ﷺ له ، ولو لم تكن روح الإسلام تمكنت من سويدائه ، لشعر في نفسه بغضاضة في أن يكون بلالٌ أخاه ! ولكنه أبو عبيدة !

أما في المدينة قد آخي الرسول بين أبي عبيدة وسيد الأوس سعد بن معاذ ، وسعد بن معاذٍ أحد رجلين في المدينة كانا قبل الهجرة لا يخالفهما مخالف ، وهما سعد بن معاذ سيدُ الأوس ، وسعد بن عبادة سيد الخزرج وفيهما يقول القائل :

فإن يسلم السعدان يصبح محمدٌ بمكة لا يخشى خلاف مخالف

وقد فرح كل منهما بصحبة أخيه ، إذ تلاقت بينهما سماتٌ عريقة من الشجاعة والكرم والوفاء فتجاذبت الروحان تجاذبًا أدى إلى المحبة الخالصة والود العريق .

وقد شهد أبو عبيدة المشاهد الحربية كلها مع رسول الله ﷺ ، وكان من الحكماء البارزين في موقعة بدر ، أول مواقع الإسلام ،

وقد امتحنه الله في الموقعة بما استطاع أن يصبر عليه فيفوز باليقين الثابت دون اعتبار لغير نصرة الدين الحنيف ، إذ كان والده عبد الله بن الجراح يومئذ في صفوف المشركين ممن يحاربون رسول الله ، وكان يحمل لابنه أبي عبيدة كراهيةً شديدة ؛ لأنه أسلم ، وهاجر الهجرتين ، وكان سندًا للرسالة الخاتمة ، وكأن الوالد ما جاء إلا ليقتل ولده ، ويتشفى بمصرعه ، وقد يكون هذا غريبًا ، ولكنه الواقع الصريح ، فجعل الأب يبحث عن مكان ابنه ليرميه بالسهام عن بعد ، أو يحصده بالسيف عن قرب ، وأبو عبيدة لحظ ذلك بفراسته ، وقد عرف حق الأبوة عليه ، فكان يتجنب لقاءه ، ولا يحاول نزاله ، وجعل كل همه أن يكون بعيدًا عن موقع أبيه ، تاركًا مصيره لسواه ، فهو مهما كان مشركًا لا يجحد في نفسه معاني الأبوة ، هذا الشعور النبيل كان يقابله شعورٌ مضادٌ ناقم من الوالد إذ كان كل همه أن يلقى ولده ليصرعه وليتحدث فيما بعد بأنه قتل هذا الصحابي المارق في رأي العصبة المشركة بمكة ، ورأى المسلمون في الميدان شيئًا عجيبًا ! ولدًا يفر من أبيه كي لا يؤذيه ، ووالدًا ليس همه الأوكد من اشتراكه في القتال إلا أن يقتل ولده ، ويتحدث بين الناس بأنه شفي غليله بمصرعه ، وكان لابد من اللقاء المواجه ، فالأب يُصر يتتبع ابنه في كل اتجاه ، ومعه سيفه وسهامه ، ثم هَمَّ به مواجهًا ، فلم يجد بدًا من أن يقابله بسيفه ، لينجو من بطشه ، فالإسلام فوق الأبوة الجاحدة ، والدم الحاقد المتربص ، وقد قال كثيرٌ من المفسرين أن آية كريمة نزلت في هذه الحادثة ، حيث قال الله عز وجل في سورة المجادلة :

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة:٢٢] .

وكان موقف أبي عبيدة تصديقًا لقول الله عز وجل :

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة:٢٤] .

هذا بعض ما كان يوم بدر ، أما يوم أحد فقد كان أبو عبيدة في طليعة المحاربين ، وقد أخذ مكانه في صدر الجهة المدافعة عن دينها ، وحين نكص الرماة عن مواقعهم في أعلى الجبل ، وبدت طلائع الهزيمة فكر أبو عبيدة في رسول الله أين هو ؟ وهل أصابه مكروه ! وأخذ يبحث عنه في كل مكان حتى وجده جريحًا مع

أبي بكر الصديق ، وقد دخلت حلقتا المغفر (الدرع) في وجنتيه الشريفتين : ولندع أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ يتحدث عن الموقف فيقول :

« لما كان يوم أحد ، ورمي رسول الله ﷺ في وجهه ، حتى دخلت في وجنتيه حلقتا المغفر ، أقبلت أسعى نحو الرسول ، وأقبل إنسانٌ من الشرق يطير طيرانًا ، فلما توافينا عند الرسول ، وجدته أبا عبيدة ، وقد سبقني ، فقال : أسألك بالله يا أبا بكر أن تتركني لأنزع من وجهه الحلقتين ، فنزعهما حلقة حلقة ، وسقط مرتين على ظهره ، وسقطت له ثنيتان من أسنانه ، فكان – أي أبا عبيدة – أثرم ، والأثرمُ هو الذي سقطت بعض أسنانه ، وكان رضي الله عنه يباهي بثرمه ويعده شهادة شرف .

ونتابع مواقف أبي عبيدة في بعض الأحداث التاريخية فنبدأ بذكر موقفه في صلح الحديبية ، مذ كان الأمر في ظاهرة تراجعًا من المسلمين ، ونكوصًا عن لقاء العدو ، وهو ما رفضه جماعةٌ من الصحابة على رأسهم عمر بن الخطاب ، ولم يرد الفاروق أن يخاطب رسول الله ﷺ بما يظهر مخالفته ابتداءً ، فالتقى بأبي بكر الصديق قبل أن يلتقي برسول الله ، وسأله :

عمر : أليس محمد رسول الله ؟

أبو بكر : بلى إنه رسول الله !

عمر : أوليسوا مشركين ؟

أبو بكر : بلى .

عمر : فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟

أبو بكر : التزم ، فإني أشهد أنه رسول الله !

عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله !

وبعد نقاشه مع أبي بكر رأى أن يتجه إلى رسول الله ﷺ ، فأعاد عليه ما سأل عنه أبا بكر فقال رسول الله : « أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعني » .

وسمع أبو عبيدة نقاش عمر مع رسول الله ، فلم يرقه أن يخالفه صريحًا هكذا ، وحين قال رسول الله لعمر : أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ، ولم يضيعني ، سارع أبو عبيدة إلى عمر وقال له : ألا تسمع يا ابن الخطاب ما يقول رسول الله ؟ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . فقال عمر فورًا : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

ونظر رسول الله إلى عمر فقال له : يا عمّر إني رضيت وتأبى ! فسكت عمر ، وظل بعدها يقول : ما زلت أصوم وأتصدق وأعتق ، مخافة كلامي يومئذ !

وعمر يمثل المعارضة المخلصة النزيهة ، وحين رأى رسول الله وسمع قوله ، تذكر أن أبا بكر وأبا عبيدة يوافقان رسول الله ويعارضانه فأدركه هدوؤه وكأنه قال في نفسه لابد أنه قد غاب حتى ما لم يغب عن رسول الله ، وقد صدقت الأيام وجهة رسول

الله ، فعاد صلح الحديبية فيما بعد على المسلمين بخير كثير ، فصلته كتب السيرة على وجهه الصحيح .

وجاءت غزوة ذات السلاسل ، ومن حديثها أن قضاعة قد جمعت جموعًا وتهيأت لغزو المدينة ، وعلم الرسول من أمرهم ما أهمه ، فبعث سرية بقيادة عمرو بن العاص ، لوقف ما اعتزموا عليه من العدوان ، فرأى عمرو جموعًا كثيفة ، لأن قضاعة قد استعانت بقبائل أخرى ، وكانت تخشى أن يفر من جيشها بعض المقاتلين حين يلتهب النضال ، فربطت الجنود بعضهم إلى بعض بالسلاسل ، فسميت الغزوة بذات السلاسل ، وكان هذا أول الفشل ، لأن الجندي الذي يساق بالسلاسل إلى المعركة لا يأتي منه خير إذ أن نفسه ليست معه ، بل تريد الفرار ، وجاء عمرو ابن العاص بجيشه ، ودرس الموقف دراسة القائد المجرب ، فوجد العدد لديه لا يسدُ ما أمامه من طوفان غالب ، وأرسل إلى رسول الله ﷺ بالمدينة يستنجده ويطلب المدد الكثير فأسرع الرسول بالإجابة ، وأمده بجيش فيه أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وجماعة من المهاجرين والأنصار ، وجعل أمير الجيش الوافد أبا عبيدة بن الجراح .

ونظر عمرو إلى القادمين ، وقد تأمر عليهم أبو عبيدة ، وفيهم أبو بكر وعمر فقال : أنا أميرٌ عليكم لأني أرسلت إلى رسول الله استمده فأرسلكم إليّ ، فقال المهاجرون ممن كانوا مع أبي عبيدة ، بل أنت أمير أصحابك فقط ، وأبو عبيدة أمير الوافدين ، فأصر عمرو على أن يكون صاحب الأمر في القيادة وحده ، وأدرك أبو

عبيدة أن الخلاف لا يفضي إلى خير ، وأن التواضع أولى وأجدر ، وإذا كان عمرو يشتهي الرياسة فإنه يتنازل عنها ، نظرا لما يتبعه من اتحاد الكلمة ، فهدأ إخوانه ممن عارضوا عمرًا ، واتجه إليه بقول في ابتسام :

يا عمرو إن آخر ما عهد إلى رسول الله ﷺ ، أن قال : إذا قدمت على صاحبك فتطاوعا ، وأنك إن عصيتني لأطيعنك .

فقال عمرو : ولكني الأمير عليك ، فقال أبو عبيدة : وقد وافقت فقم فصل بالناس ، وأنا من خلفك !

ثم دارت المعركة وحمل المسلمون على العدو ، فهربوا بعد قتال يسير ، وكانت الليلة باردة ، فاحتاج المسلمون إلى إيقاد النار ، فمنعهم عمرو ، وأنكر عمر بن الخطاب عليه ذلك ، ولكنه أصر ، فنفذ أمره ، لأنه هو الأمير ، وحين رجع الجيش ظافرًا إلى المدينة ، شكوا إلى رسول الله عمرًا حين منعهم الاستدفاء بالنار في ليلة باردة ، فسأله الرسول عن ذلك ، فقال : خفت أن يعلو الضوء فينظر الأعداء إلى عددنا وهو قليلٌ بالنسبة لعددهم ، فيرجعون ، وتدور المعركة ، فكان الأحزم أن يعمى عليهم ، فلا نوقد النار ، فوافقه الرسول .

هذا موقف من مواقف أبي عبيدة يدل على تواضعه ، وأنه يبحث عن الوحدة ، ويتجنب الشقاق ، وقد زاد بذلك قدرًا عند الجيش ، وبارك رسول الله سلوكه الأمين .

وبعد أقل من عام ، تهيأ أبو عبيدة لقيادة سرية أخرى تتجه إلى جهينه ، على ساحل البحر ، وكان القحط عامًا بالجزيرة ، ولم يكن بالمدينة ما يكفي تزويد السرية بالزاد المناسب ، إذ رحلت السرية وليس معها سوى جرابٍ من تمر ، واشتد الجوع بالقوم ، فكانوا يأكلون ورق السلم ، وقابلوا الأعداء فهربوا من وجوههم ، ولكن أزمة الجوع تركت الجيش في حيرة ، فتقدم قيس بن سعد ابن عبادة إلى شيخ من جهينه ، وطلب منه أن يبيعه خمس نياق ، وعلى والده سعد بن عبادة سيد الخزرج أن يعطيه الثمن الذي يرغبه إذا جاء المدينة ، فقال أبو عبيدة : لا تفعل يا قيس فإننا لا ندري شيئًا من أمر الشيخ – يريد سعدًا ، والد قيس ، فقال قيس : ما كان أبي ليطعم الناس بالمدينة ثم يترك ابنه وجيش المسلمين في حاجه إلى الطعام ، لو علم لأرسل لنا كل ما نريد ، وكرر أبو عبيدة رجاءه إذ كان يرى أن يتحمل الجيش الجوع دون أن يستدين قيس ، ولكنه أصر واستجاب له الشيخ الجهني فقدم خمس نياق ذبحت منها ثلاثة فأكل الناس وشبعوا ، ثم رجعت اثنتان تعاقب عليهما المجاهدون ، وقد أجاد الشاعر الكبير الأستاذ أحمد محرم تصوير هذا الحوار بين قيس بن سعد وأبي عبيدة فقال :

أبا عبيدة لولا أن عزمت على ... قيس لأمعن قيسٌ أى إمعان

يقول إذ رُحت تنهاه وتمنعه ... أبا عبيدة مهلاً كيف تنهاني

أنا ابن سعد ، وسعدًا أنت تعرفه ... مولى العشيرة من قاصٍ ومن دانٍ

يكفي المهم إذا ضاق الكفاة به ... ويطعمُ الناس من مثنى ووحدان

أأصنع الصنع محمودًا فيخذلني ... أبٌ أراه لغيري خير معوان

لا يبعد الله منه والذا حدبًا ... سمْحُ الخلائق أرعاه ويرعاني

وانتقل رسول الله إلى جوار ربه وكان أبو عبيدة متفقًا مع عمر بن الخطاب وجمهور المسلمين على خلافة الصديق ، فتمت البيعة كما يريدان ، وأعجب العجب أن يقوم كاتب يتبع مباحث الاستشراق ، فيزعم أن البيعة مؤامرة دبرها أبو عبيدة ، ولم يكن أبو عبيدة فيما عُرف عنه متآمرًا ، أو داهية يلجأ إلى الاحتيال ، فصحيفته بيضاء ، ولسانه ينطق عن قلبه ، فليتركه من يريد الكيد والتشويه !

ثم جاءت معارك الفتح الإسلامي ، ولئن كان أبو عبيدة قد أبلى بلاءً حسنًا في معارك الإسلام على عهد رسول الله ﷺ ، فإن ميادين أخرى باتت تتطلبه ، ميادين تحتاج إلى الشجاعة والسماحة معًا !! وهو الشجاع السمح ، ولكي نعرف ظروف هذه الميادين فإننا نمهد بما كان مهيئًا للغزو فالانتصار .

كان في نية أبي بكر رضي الله عنه أن يكتفي بمنازلة الروم أولاً ، لأنهم كانوا شوكةً في جانب المسلمين على عهد صاحب الرسالة ، وقد بعث الرسول جيشًا لمحاربتهم في مؤتة ، حين قتلوا رسوله إلى بني غسان ، فأمَّر عليه زيد بن حارثة فيما عرف بغزوة (مؤتة) ، وفيها استشهد أبطالٌ من المسلمين من بينهم جعفر بن أبي طالب

وعبد الله بن رواحة ، بعد أن استشهد زيدٌ من قبل ، فاختار المسلمون خالد بن الوليد قائدًا ، واستطاع بمهارته أن ينجو من الهول مع تفوق الروم الساحق في الجيش والعدة أضعاف أضعاف أضعاف ما يبلغ المسلمون من العدد والعتاد ، وتلك مهارةٌ من خالد ، لأن العدو أحاط به من كل جانب ، ومع ذلك فقد استطاع النجاة ، ثم تابع الرسول ﷺ المسيرة الحربية فاتجه بنفسه إلى قتال الروم في غزوة تبوك فصالحه أهلها ، وجاءته الوفود من (أيلة) راضية بما فرضه وأقره ، ورأى تأمين الحدود ، فأرسل خالد بن الوليد على رأس قوة من المسلمين إلى (دومة الجندل) فاستولت عليها ، وعادت القوة الإسلامية ظافرة ، وقبل أن يلتحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى هيأ جيشًا بقيادة أسامة بن زيد ، لتتأكد للروم ومن تبعهم من غسان قوة الإسلام ، فحرص أبو بكر على انفاذ الجيش استجابة لمشيئة الرسول ، وسار أسامة إلى (البلقاء) ، (وآيل) وعاد ظافرًا .

أقول لم يكن في نية أبي بكر أن يحارب الفرس ، فيندفع المسلمون في جبهتين قويتين جبهتي الفرس والروم معًا ، وهما أكبر قوةٌ في الأرض ، ولكن الأنباء جاءت من العراق بانتصار البطل المسلم العربي المثنى بن حارثة الشيباني وتقدمه إلى حدود العراق ، وقد بعث يطلب النجدة من المدينة ، فاضطر الخليفة إلى إجابته ، وبذلك كانت أمام المسلمين جبهتان قويتان في وقت واحد ، وطبيعة الوضع الراهن كانت توحي باندحار المسلمين

أمام أكبر قوتين عالميتين ، وأمام جنودٍ مرنوا على القتال في مضايقه الشديدة ، فإذا تحقق النصر لهؤلاء المسلمين ذوي السلاح البدائي والخبرة المتواضعة ، فمن وراء ذلك تأييد الله وتوفيقه وما النصر إلا من عند الله ! وأقول : الخبرة المتواضعة ؛ لأن تنظيم الجيوش على هذا النحو الدولي الممتد لم يكن من شأن العرب من قبل ، وكان مما اختاره أبو بكر في زحف المسلمين لقتال الروم أن يفرق الجيش الإسلامي أربع فرق ، لكل فرقة قائد مسلم يلي أمرها ، فولى يزيد بن أبي سفيان قيادة الجيش المتجه إلى دمشق عن طريق البلقاء ، وولي شرحبيل بن حسنة قيادة الجيش المتجه إلى بصرى عاصمة حوران ، وولى أبا عبيدة بن الجراح قيادة الجيش المتجه إلى حمص ، وولّي عمرو بن العاص قيادة الجيش المتجه إلى العقبة ، والذين يتحدثون من العسكريين عن هذه الحرب كانوا يؤثرون أن يكون الجيش موحدًا يقصد جبهة واحدة ، لأن الروم أعدادٌ هائلة مخيفة ، وإعداد الجيش الإسلامي بمجموعه في الفرق الأربع لا تبلغ شيئًا بالقياس إلى الزحف الروماني الرهيب ، وفي التجمع قوةٌ لا تكون في التفرق ، وقد قال المؤرخ الحربي الكبير الأستاذ جمال حماد[1] :

إن فكرة أبي بكر كانت تتجه إلى إحداث ثغراتٍ متفرقة في دفاعات الروم المختلفة ، فتشغل كل ناحية بفريق ، فلا يجتمع الروم في ميدان واحد مما يؤدي إلى تشتيت قوات الروم ،

---

(١) معارك الإسلام الكبرى ص٦٢.

واختلال خططهم الدفاعية ، ولكن هذه الخطة لا تنفع إلا إذا كان العدد وفيرًا لدى المسلمين ، وكان السلاح كافيًا متفوقًا ! مع أن الروم أكثر عددًا وسلاحًا بحيث لا تقاس مقدرة الجيش الإسلامي بقدراتهم الفائقة في هذا المجال ، ولذلك كان الفشل متوقعًا لضعف العوامل المادية المهيئة للنجاح! وقد أدرك القائد المحنك عمرو بن العاص خطر هذا التفرق ، فاجتمع بالقادة ، وأخبرهم أن الرأي أن تتوحد الفرق الإسلامية في جيش واحد ، ثم جاء خالد بن الوليد من العراق ، لنجدة المسلمين ، وكان أبو عبيدة هو القائد حينئذ ، فرأى أبو بكر أن يتولى القيادة خالد بن الوليد ، فكتب إلى أبي عبيدة يقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعد فإني وليت خالدًا قتال الروم بالشام ، فلا تخالفه ، واسمع له وأطع أمره ، فإني وليته عليك ، وأنا أعلم أنك خير منه ، ولكن ظننت أن له فطنة في الحرب ليست لك ، أراد الله بنا وبك سُبُل الرشاد والسلام عليك ورحمة الله » .

وتسلم أبو عبيدة خطاب الخليفة ، فقدر وجهة نظره ، ولم يكن صداها في نفسه موقع شك ، بل عرف لأبي بكر بعد نظره ، ولم يلبث خالد أن كتب لأبي عبيدة خطابًا يقول فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لأبي عبيدة الجراح من خالد بن الوليد ، سلامٌ عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، وأسأل الله لنا ولك الأمن يوم الخوف ، والعصمة في دار الدنيا ،

فقد أتاني خطاب خليفة رسول الله ﷺ يأمرني بالمسير إلى الشام ، وبالمقام على جندها ، والتولي لأمرها ، ووالله ما طلبت ذلك وما أردته ، ولا كتبت إليه فيه ، وأنت رحمك الله على حالك ، التي كنت عليها ، لا يُعْصَى أمرك ، ولا يخالف رأيك ، ولا يقطع أمر دونك ؛ فإنك سيد من سادات المسلمين لا ينكر فضلك ، ولا يستغنى عن رأيك ، تمم الله ما بنا وبك من نعمة الإحسان ، ورحمنا وإياك من عذاب النار ، والسلام عليك ورحمة الله » .

وخطاب خالد وثيقة خلقية نادرة ، تكشف عن نفسٍ مؤمنة مخلصة ، وتعترف بالحق لأهله ، وتعلن كيف اذهبَ الإسلام عرام الجاهلية وكبرياءها ، وطبع المسلمين على خلق عظيم .

أعاد خالدٌ تعبئة الجيش من جديد ، وعينَ أبطالاً للقيادة مع من عينهم أبو بكر ليكونوا بخبرتهم الحربية من بواعث النجاح ومنهم القعقاع بن عمرو التميمي ، وعكرمة بن أبي جهل ، والمقداد بن الأسود ، كما أن نساء المسلمين وقد صحبن الجيش كُنَّ أداةً فاعلة في الكفاح ، فكن يصرخن في وجه من تحدثه نفسه بالانسحاب هاتفات : إلى أين يا حماة الإسلام ، وإلى أين يا أتباع رسول الله ﷺ ! ودارت المعركة الصاخبة ، وكاد طوفان الروم يكتسح بدءًا كل شيء ، ولكن خالد بن الوليد وكان على رأس القلب ، رأى فرسان الروم قد شعروا بالانتصار المبدئي فتركوا صفوف المشاة ، واتسعت الهوة بين الفريقين ، فاندفع إلى المشاة كالقدر المباغت ومن خلفه عكرمة بن أبي جهل وقد أبلى في

الميدان أصدق البلاء ، وكان يقول : حاربت رسول الله في حياته فلأكفر عن معصيتي بعد مماته ، وبهذه الوثبة الظافرة حلت الهزيمة القاصمة ، وكان في المعركة ألفٌ من أصحاب رسول الله ، ومائةٌ من أهل بدر ، وقدرت خسائر الروم بمائة وعشرين ألفًا ، وخسائر المسلمين بثلاثة آلاف ، تلك هي معركة اليرموك ، وقد كان هرقل في إحدى ضواحي حمص يترقب المصير ويسأل كل قادم عما تم ، فلما تحقق الكارثة دمعت عيناه ، وقال كلمته المشهورة : (سلام عليك يا سوريا ، سلام لا لقاء بعده) .

على أن أمرًا هامًا قد حدث أثناء المعركة ، فقد تلقى أبو عبيدة خطابًا من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ينبئه بوفاة أبي بكر الصديق ، وبأنه منذ صار أمير المؤمنين ، يعزل خالد بن الوليد عن القيادة ، ويضع الإمارة في يد أبي عبيدة ، قرأ أبو عبيدة الكتاب فتأثر لوفاة صديقه أبي بكر ، وخشي أن يعلن عزل خالد ، وهو القائد الباسل ، فتدب الفرقة في بعض النفوس ، وربما انسحب خالد من الميدان ، وهو سيف الله المسلول فكان من حنكة أبي عبيدة أن كتم الأمر عن المسلمين حتى تنتهي المعركة بنصر الله كما كان يأمل ، وفي هذا الصنيع من الحزم والمروءة وتقدير المسؤولية ما تجعل أبا عبيدة طرازًا نادرًا بين المخلصين .

ونقل هنا كتاب عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة بهذا الصدد :

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى أبي عبيدة بن الجراح ، سلام عليك فإني أحمد إليك

الله الذي لا إله إلا هو ، وأصلي وأسلم على نبيه محمد ﷺ ، وقد وليتك أمور المؤمنين فلا تستحي فإن الله لا يستحي من الحق ، وإني أوصيك بتقوى الله العظيم الذي لا يفنى ويفنى سواه ، والذي استخرجك من الكفر إلى الإيمان ، ومن الضلالة إلى الهدى ، وقد وليتك على جند خالد ، فاقبض الجيش منه ، ولا تنفذ المسلمين إلى الهلاك رجاء غنيمة ، ولا تبعث سريةً إلى جمع كثير ، ولا تقل إني أرجو لكم النصر ، وإياكم والتغرير وإلقاء المسلمين في التهلكة ، وأغمض عن الدنيا عينيك .

وقبل أن ينبئ أبو عبيدة خالدًا بأمر العزل ، تقدم إليه ولاطفه ، وقال له : إن هذا التغيير يتناول الشكل فقط ، وأنه لن يقضي أمرًا من الأمور الحربية إلا بعد أن يرجع إليه .

والكلام في عزل خالد وتولية أبي عبيدة كثير ، أسرف فيه بعض الكتاب فحمله أكثر مما كان ، وقد نقل الدكتور أحمد الشرباصي[١] رأي الإمام ابن تيمية في هذا المجال ، وهو رأيٌ له وجاهته فآثرت أن أنقله بدروسه ، حيث قال الإمام ابن تيمية في كتابه (السياسة الشرعية) :

« إن المتولي الكبير إذا كان خلقه يميل إلى اللين ، فينبغي أن يكون خلق نائبه يميل إلى الشدة وإذا كان خلقه يميل إلى الشدة فينبغي أن يكون نائبه يميل في خلقه إلى اللين ؛ ليعتدل الأمر . ولهذا كان أبو بكر الصديق يؤثر استنابة خالد رضي الله عنهما ،

---

(١) موسوعة الفداء في الإسلام (ج٣/ ص٣٠٢) .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يؤثر عزل خالد واستنابة أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه لأن خالدًا كان شديدًا كعمر ابن الخطاب وأبا عبيدة كان لينًا كأبي بكر ، وكان الأصلح لكل منهما أن يولي من ولاه ليكون الأمر معتدلاً ، وبذلك يكون متشبهًا برسول الله ﷺ وهو معتدل حتى قال : أنا نبي الرحمة ، أنا نبي الملحمة ، وقال : أنا الضحوك القتال ، وأمتي وسط ، قال الله فيهم : ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ .

والذي يوضح وجهة نظر ابن الخطاب رضي الله عنه أنه كتب إلى الأمصار يقول : إني لم أعزل خالدًا عن سخطة ولا خيانة ، ولكن خفت افتتان الناس به ، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع ، ولما التقى خالد بعمر ، قال له : والله إنك عليٌّ كريم ، وإنك إليَّ حبيب ، ولن تعاتبني بعد اليوم على شيء ، وقد قال شاعر النيل حافظ إبراهيم في قصيدته العمرية يتحدث عن هذا الموقف :

سل قاهر الفرس والروم هل شفعت ... له الفتوح وهل أغنى تواليها

أتاه أمر أبي حفص فقبله ... كما يقبل آي الله تاليها

ألقى القياد إلى الجراح ممتثلاً ... وعزة النفس لم تجرح حواشيها

وانضم للجيش يمشي تحت رايته ... وبالحياة إذا مالت يفديها

فخالد كان يدري أن صاحبه ... قد وجه النفس نحو الله توجيها

وقيل خالفت يا فاروق صاحبنا فيه وقد كان أعطى الفرس باريها

فقال خفت افتتان المسلمين به وفتنة النفس أعيت من يداويها

وبعد انتصار المسلمين في معركة اليرموك ، تقدم أبو عبيدة نحو دمشق ، وهي مدينة منيعة الأسوار عالية الحصون ، وحولها خندق عظيم ملأته مياه نهر بردي ، وقد استعد أبو عبيدة للموقف فجعل على المقدمة عمرو بن العاص ، وفي الخلف خالد بن الوليد ، وشرحبيل على باب الفراديس ، ويزيد بن أبي سفيان على باب كيسان ، أما أبو عبيدة فقد وقف على باب الجابية ، وامتد الحصار قرابة شهرين ، لأن الدمشقيين قد أخذوا حذرهم قبل اندلاع معركة اليرموك ، فجمعوا الزاد ، ووضعوا الماء في الصهاريج ، وظهرت شجاعة خالد بن الوليد حين علم أنهم بداخل السور مشغولون في احتفال موسمي فسبح في الخندق المليء بالماء عائمًا مع نفرٍ من شجعان المسلمين ، ثم تسلق السور واتجه إلى الباب ففتحه بحيلة جبارة وكبرَّ وهلل ، فاندفع المسلمون وراءه ، وحين وجد الدمشقيون ألا مفر من القتال ، سارعوا إلى أبي عبيدة وارتضوا بالصلح ، ولم يسترح المسلمون بعد هذا النصر بل اتجه أبو عبيدة إلى فحل تحت لواء شرحبيل بن حسنة ، وهي لفتة قوية من أبي عبيدة حيث سار مع خالد وعمرو بن العاص وضرار ابن الأزور تحت لواء شرحبيل ، إذ لا فرق بين رئيس ومرءوس ، وكان الروم قد بلغ بهم الغيظ أقصاه ، وقد حاولوا بعد معركة اليرموك أن يجمعوا كل ما لديهم من

العتاد ومن لديهم من الأبطال ، ليقفوا الموقف الحاسم في وجه الجيش المنتصر ، فساقوا جيشًا كبيرًا بلغ تعداده ثمانين ألفًا ، وفي نيتهم أن يأخذوا المسلمين على غرة ، إذ يظنون أنهم سيركنون إلى الدعة بعد فتح دمشق واقتحام سورها المنيع ، ولكنهم فوجئوا بالجيش الزاحف للقائهم ، وقد كان أبو عبيدة يستشير القادة من أصحابه في كل ما يصنع فاجتمع الأمر على أن ينقسم الجيش فريقين ، فريق يذهب إلى حمص وما في اتجاهها من البلدان مثل حماة واللاذقية وقنسرين ، وفريق يذهب إلى بيسان في الجنوب وما وليها ثم إلى فلسطين ، وفلسطين ليست بالسهولة المتوقعة ، لأن قائد الرومان الأكبر « أرطبون » قد تحصن بها وجاءه المدد الكبير من المغرب ، وقد اشتهر بالبسالة الخارقة في حروب الفرس ، وجاء النبأ إلى عمر بن الخطاب بالمدينة فسأل ومن يقود الجيش بفلسطين ؟ فقيل : إنه عمرو بن العاص ، فقال : ستنفرج بإذن الله ، فقد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب ، ودار الهول في معركة ساخنة انتهت بانتصار الجيش الإسلامي في موقعة عرفت بموقعة (أجنادين) ولم يشأ عمرو بن العاص أن يقتحم القدس لأنها مدينة دينية لها حرمتها ، والمسلمون يعرفون أنها موضع الإسراء ، وكانوا يولون وجوههم شطرها في الصلاة ، فراسل (أرطبون) كي يسلم المدينة حفاظًا على مقدساتها ، ولكنه امتنع معتقدًا أن مددًا سيصله من الغرب ينقلب فيه الموقف لصالحه ، وقد طال الانتظار دون جدوى ، والمسلمون يحرصون على عدم اقتحام المدينة عنوة ، واشتد الحصار وأصبح المحاصرون في بلاء

عظيم ، ولما اشتدت الأزمة تنحى أرطبون عن القيادة ، وطلب من البطريق أن يصعد إلى أعلى السور ويخاطب المسلمين بأنه يطلب التسليم على أن يكون الخليفة عمر بن الخطاب نفسه هو الذي يتولى كتابة معاهدة الصلح ، ويتعهد بالأمان للنصارى ، ورضي أبو عبيدة باقتراح البطريق ، وبعث إلى عمر في المدينة فرحب وبادر بالحضور وكتب أمانًا يحفظ للمدينة حرمتها ، ولرجالها كرامتهم ، وكان دخول الفاروق إلى القدس يومًا مشهودًا سجلت وقائعه في صحف كثيرة يضيق المقام عن سرد القليل من محتوياتها ، وبذلك تمت فتوح الشام ، ورفرف علم الإسلام فهدى الناس إلى الصراط القويم .

وتنفيذًا لعهد أبي عبيدة أن يحضر عمر بن الخطاب إلى القدس ، لبى الفاروق الدعوة ، وحضر راكبًا فرسًا يتعاون مع خادمه في ركوبه ، وجاءت نوبة الخادم ، وعمر يستقبل القوم بإيلياء ماشيًا ، يسحب الفرس ، فلم يصدق الناس أنه أمير المؤمنين ، وسألوا الراكب متى يجيء عمر؟ فقال : هو أمامكم ، فأخذوا يضربون كفا بكف ، وتابع عمر سيره فرأى الناس فرسه يميل كأنه يشكو العرج ، فجاءوه ببرزون شديد يركبه الرؤساء ، فحين اعتلاه عمر مشي الجواد مشية مختال ، فصفعه عمر بالدرة ، وقال : لعن الله من علمك هذه الخيلاء ، ردوا عليَّ فرسي ، وعجل فامتطاه ، فألحوا عليه ، فقال : كلا! كاد هذا الجواد يعلمني الزهو والتكبر ؟ فليس مني ولا أنا منه ، وحين بلغ بيت المقدس قابله أمراء

الأجناد من العرب وعظماء النصارى فالتفت يمينًا وشمالاً ، وجعل يسأل : أين أخي ؟ قالوا ومن أخوك ؟ قال : أبو عبيدة ابن الجراح ، فقيل لابد أن يكون في الطريق إليك وسرعان ما حضر راكبًا ناقة مخطومة بحبل ، فسلم عليه وتحدثا عن المعاهدة ، وعرف منه من أحوال المعركة ما لم يكن يعلمه من قبل ، ثم قال عمر للناس انصرفوا فسأذهب مع أخي إلى منزله ، وكان النصارى قد أعدوا له مأدبة حافلة لم يشأ أن يطعم منها شيئًا ، وأشار بأن يأكل منها فقراء الناس دون تفريق بين ديانة وديانة ، وحين دخل إلى منزل أبي عبيدة لم يجد بالمنزل غير حصيرٍ متقطع يجلس عليه ، ومسمارًا كبيرًا في حائط علق عليه السيف والترس ، فقال عمر متعجبًا ؟ ألم تتخذ متاعًا ضروريًا يكفل حاجتك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، هذا يبلغني المقيل ، والحمد لله ! فقال عمر ـ على زهده : لا أرى إلا حصيرًا وشنًا وسيفًا وأنت أمير ! أعندك ما نأكل ؟ فقام أبو عبيدة إلى سلة منزوية في آخر البيت لم يرها الفاروق حين قدم فأخرج منها كسيرات من الخبز الجاف ، فأخذ عمر الكسرة وقال لأخيه : كلنا قد غيرته الدنيا سواك يا أبا عبيدة !

وحضر أبو عبيدة بعد توقيع المعاهدة — وقد سافر الفاروق راجعًا إلى المدينة — مأدبة قومٍ يحتفلون بتكريمه ، فقدموا له من الطعام ما لم يعهد ، فسأل : أكل الجنود يأكلون من هذا الطعام ؟ فقالوا : لا ، هذا طعام الأمير ، فأمر فرفع الطعام ، وقال : لا

أتميز على الناس بمأكلٍ ولا ملبس ولا مسكن ؟ والتفت إلى أصحابه يقول : « ألا رب مبيضٍ ثيابه ، وهو مسودٌ دينه ، ألا رب مكرم لنفسه في الظاهر وهو لها عدوٌ مبين ؟ ادرءوا السيئات القديمات بالحسنات الحديثات ، فلو أن أحدكم عمل من السيئات ما بينه وبين السماء ، ثم عمل حسنة بريئة خالصة لله فلعلها تعلو فوق سيئاته جميعها فتقهرها » .

ثم كان ما أراد الله أن يكون فقد انتشر الطاعون بالشام بادئًا من بلدة (عمواس) وهي بين الرملة وبيت المقدس ، ومن عمواس انتشر في البلاد كما ينتشر الجراد ، فقضى على خلق كثير جدًا قدروا يومئذ بعشرات الألوف ، ورأى أبو عبيدة ما حل بالقوم ، فأخذ يسترجع باكيًا فقد أصحابه من المجاهدين ، وجاء الخبر إلى عمر رضي الله عنه فأحب أن يكتب إلى أبي عبيدة وهو بالمدينة مشيرًا عليه أن يترك الشام ويكر إليه ، فأرسل إليه خطابًا يقول فيه :

« سلامٌ عليك ، فإنه قد عرضت لي حاجة ، أريد أن أشافهك فيها ، فعزمت عليك إذا نظرت في كتابي هذا ألا تضعه حتى تقبل إلي » .

قرأ أبو عبيدة خطاب صديقه ، فعرف أنه يريد أن يبعده عن الوباء الجارف الفاتك بالآلاف ، فالتفت إلى من حوله ، وقال : يغفر الله لأمير المؤمنين !

ثم أملى الرسالة الآتية لتحمل إليه سريعًا : يا أمير المؤمنين إني قد عرفت حاجتك إليَّ وإني في جندٍ من المسلمين لا أجد بنفسي رغبة عنهم ، فلست أريد فراقهم حتى يقضي الله فيَّ وفيهم أمره وقضاءه ، فخللني من عزيمتك ، ودعني في جندي » .

وقرأ عمر رسالة صاحبه فبكى ، فقال له من حوله : هل مات أبو عبيدة يا أمير المؤمنين حتى تدمع عيناك ؟ قال : لا ، وكأن قد ! وعجل عمر فكتب له قائلاً : لا تنزل الأرض الهابطة من الأردن ، واذهب بأصحابك إلى أرضٍ طيبة الهواء ، قليلة الهوام وهي « الجابية » فإنها أرض نزهة !

ولكن كان ما لابد أن يكون ، ولكل أجل كتاب ، قد مات أبو عبيدة بالطاعون ، ولم يمت في ميدان القتال – ولكنه مات في هبة ريح سامة تحمل الداء العقام مات في سنة ١٨ من الهجرة وبلغ عمر منعاة صديقه فبكى ، وقال : هل أوصى بشيء ؟ فقيل : قد استخلف عياض بن غنم على الجند بالشام ! فقال : أمرنا بما قال !

لقد كتب المؤرخون ما كتبوا عن أمين الأمة أبي عبيدة بن الجراح ، فوفوه حقه من الإطراء الصادق غير الكذوب ، ولا أجد في ختام الحديث عنه خيرًا من كلمةٍ جليلة ، صادقة كتبها الأستاذ الكبير محمد فريد وجدي في ختام حديث له عن أبي عبيدة قال فيها[1] :

---

(١) مجلة نور الإسلام (السنة الخامسة ١٣٥٣) ص٥٠٢.

« هذا الرجل هو أول من وُكِل إليه فتح الباب العالمي في وجه المسلمين ، كان جامعًا في شخصه بين ورع النساك المتبتلين ، وخبرة القادة المحنكين ، فلم يكن يجرر اذيال السندس والاستبرق ، ويركب الجياد ذات السرج المحلاة بالعسجد ، ويجول مختالاً بين الصفوف ، تحفّه الكماة ، وتُرفع على رأسه المظال الحريرية ، ولكنه كان كواحد من جنوده ، يلبس الأثمال ، ويأوى إلى كوخ ، ويركب حصانًا سرجه من ليف ، ولم ير أنه بصدد حرب يرجو من ورائها بعد الصيت ، وخلود الذكر ، فيسرف في القتل ويحرق المدن ، وينسف الدساكر ، ويؤيم النساء ، وييتم الولدان ، ويبعث الرعب في القلوب ، حتى تصطك الأسنان عند ذكر اسمه ، وترتعد الفرائص من تخيل شبحه ، لم يكن أبو عبيدة كذلك ، ولكنه كان هنيًا لينًا وادعًا ، يسر في نفسه الرحمة والعدل ، ويضمر العفو والصفح عن القادة المستسلمين » .

وهكذا كان أبو عبيدة ! قدس الله روحه ونضر مثواه .

*****

عبد الرحمن بن عوف

حينَ غَربت الشمس جَعَلَ عبدُ الرحمن بن عوف يأخذُ طريقه في شعاب مكة متجهًا إلى منزلِ أبي بكر بن أبي قحافة ، وكلاهُما ممن يزاولون التجارة في قُريش ، وقد سار لهما حديثٌ بالأمانة والصدق ، فراَجتْ تجارتُهما وأصبحَا من ذوي الرأي بين القرشيين !

سار عبد الرحمن إلى منزل صاحبه ، فوجد في طريقه صديقه الزّبير بن العوام فسأله عن قصده ، فعرف أن أبا بكر دعاه كما دعا نفرًا من أصدقائه ، فأخذا يتحدثان في أمر أبي بكر .

وقال عبد الرحمن : أبو بكر رجل خيرٍ ومعروف ، وما أذكر أني أخذت عليه هفوةً واحدة منذ عرفته . لذلك أجدني أرتاح ارتياحًا شديدًا له ، وعسى أن ينتهي المجلس على خير .

وما اقتربا من الدار حتى وجدا أبا عبيدة وعثمان بن عفان يطرقان الباب فتبادلوا التحية ، ونظر بعضهم إلى بعض وفي نفس كل واحد منهم خواطر تروح وتجئ ، وفتح الباب ليجدوا أبا بكر يُرحب بهم فرحًا ، ويقول : قد سبقكم إلىّ سعد بن أبي وقاص وطلحة وابن مظعون .

فقال عبد الرحمن : ستكون ليلة سعيدة إذن .

اكتمل العدد سبعة من كبار رجال قريش ، وكلهم صديق

لأصحابه ، يعرفهم معرفة المجاورة والمشاركة ، وبعد فترة يسيرة قال أبو بكر :

لقد اجتمعنا اليوم لننهي الرأي في حديث محمد بن عبد الله !

فقال سعد : نحن نعرف محمدًا أفضل رجال قريش على الإطلاق . وما جربنا عليه كذبًا في كلمة قالها على مدى أربعين عامًا !

قال أبو بكر . وأنا صفيه وخليله منذ عقلت أمر الحياة ، وكنت ولا زلت لا أفرح بشيء في الحياة فرحي برؤيته وأخذ الحكمة والعظة من مواقفه الحميدة .

قال عبد الرحمن : لا أظن أحدًا منا يختلف في الحكم على محمد ، فهو الصادق الأمين ، وإذا كان صادقًا معنا في كل ما قال وفعل أفلا يكون صادقًا حين يقول إني رسول الله ؟

قال عثمان ، لقد ألهمت حبه كما أني أوافقه على كراهة الأصنام تلك التي نصنعها بأيدينا ثم نعبدها ، وقد نحتاج إلى إحراقها للاستدفاء في ليلة شديدة البرد فنحرقها ثم نصنع غيرها ! أتكونُ هذه آلهةً تضر وتنفع ! مالك يا ابن مظعونٍ وأنت أخي لا تتكلم ؟

قال ابن مظعون : لقد حدثني أبو بكر في شأن محمد ، وما جئت الليلة إلا لأعلن إيماني بدينه .

فابتسم أبو بكر قائلاً : وقد حدثتكم جميعًا ، فماذا ترون ؟

فصاح المجتمعون : لا رأي بعد أن جئنا إليك ، فنحن لم نحضر إلا على نية الإيمان ، ونشهد جميعًا أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله!

قال أبو بكر : وعلينا أن نقابل رسول الله ، لنعلم عنه ما نجهل من أمر دينه ، فمتى نسعد به ؟ إن لم تكونوا ترون الانتظار !

قال طلحة : وفيم الانتظار ؟ نقابله غدًا في بيته .

فرد أبو بكر إنه يكونُ عند الصفا في الضحى فنقابله هناك ، وقد عرفت أنه يفكر في دارٍ جوار الصفا تكون مجتمعًا لمن يسعدون بدينه ، ومتى تأكد من إسلامنا فستهيًأ الدار؟

وهنا وقف أبو عبيدة قائلاً : نحن مسلمون من هذه اللحظة ، وما لقاؤنا برسول الله إلا تأكيدٌ لإسلامنا لا بدءٌ له .

فقال الجميع : نعم نحن مسلمون من هذه اللحظة ، والحمد لله على الإسلام ، ولنا فضل السبق بنعمة الله!

قال سعد : سبقنا أبو بكر وخديجة وعلي ، ونحن معهم على الطريق .

سعد عبد الرحمن بالإسلام ، وكان أحد الذين لا يفارقون رسول الله بمكة ، إلا إذا اشتغل بتجارته ، فيقضي إربه ثم يعود إليه في دار الأرقم مستمعًا إلى تعاليمه ، ومتأثرًا بشخصيته ، وقد سماه رسول الله ﷺ عبد الرحمن بعد أن كان اسمه عبد عمرو ، فكان كفار قريش ينادونه بعبد عمرو فلا يرد على أحدهم حتى

يقول يا عبد الرحمن ، وقد راجت تجارته وأحرز كسبًا أنفق الكثير منه في سبيل الدعوة ، ورأى أبو جهل رواج تجارته مع إسلامه الخالص ، وحبه لدينه ، فقدم إليه يقول :

يا عبد عمرو : فقال له : قل يا عبد الرحمن ، أردُّ عليك ، فقد سماني بذلك رسول الله ﷺ ، فإذا دعوتني بما أكره فلا كلام معك !

فقال أبو جهل : أنت رجلٌ تاجر وتحتاج إلى قريش في تيسير تجارتك فإذا أصررت على إسلامك فلن تجد من يشتري منك ، وسأوصي القوم بمقاطعتك .

فقال عبد الرحمن : ومتى عهدتني أقتصر على قريش ؟ إن تجارتي تسير إلى الشام وإلى اليمن ، ولا يستطيع أن تقف في طريقها ! ثم ماذا يضرك من أمر محمد ؟

قال أبو جهل مغتاظا : لقد سَفَّه أحلامنا ، وعاب آلهتنا ، وأحدث الفرقة في قريش ، فتبسم عبد الرحمن وقال : وما آلهتك ؟ أهي التي يصنعها النجار بالقدوم ؟ أو هي التي تجلبها من الجبل حجارة صماء ؟

ويئس أبو جهل فتركه على غيظ !

ولكن الحملة العدائية قد شبت نارها على المسلمين ، وأوذي المستضعفون إيذاءًا شديدًا ، ومنهم من قتل تحت العذاب .

ورأى رسول الله أن يهاجر نفرٌ من المسلمين إلى الحبشة ، فقد

يجدون فيها ما لا يجدون في مكة من الأمن ، وسار المستضعفون إلى بلاد النجاشي ومعهم من الأقوياء جعفر بن أبي طالب ، وعبد الرحمن بن عوف ، اختارهما رسول الله ، ونفرًا قليلاً من سادة المسلمين ، ليكونوا اللسان الطلق في شرح الدعوة الجديدة ، وليستطيعوا الدفاع عن المستضعفين إن تحرشت بهم قريش ، وأرسلت إلى ملك الحبشة من يُشَوِّهُ سيرتهم لديه ، وقد تحقق ذلك فعلاً ، فأرسلت قريش من يحاول إيذاء المسلمين هناك ، بأن يوقع بين المسيحية والإسلام في بلاد النجاشي ، ورأى المسلمون أن يجابهوا الموقف بما يدفع عنهم الشر ، وحينئذ قال عبد الرحمن ابن عوف لجعفر بن أبي طالب : أنت ابن عم رسول الله ، وأنا أوثرك على نفسي في الدفاع عن دين ابن عمك ثم تحدثا فيما يمكن أن يقال ، وتقدم جعفرٌ إلى مجلس النجاشي ليستمع مَنْ يتحدث بلسان قريش بعد أن قدم له الهدايا الخادعة قائلاً :

« أيها الملك قد أوى إلى بلدك منا غلمانٌ سفهاء فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينك ، بل جاءوا بدين جديد ابتدعوه ، لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إليك أشراف قومنا لتردهم إلينا حيث نستطيع ردعهم » .

فدعا النجاشي من يتحدث عن المسلمين فتقدم جعفر بن أبي طالب يقول :

« أيها الملك ، كنا قومًا أهل جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش فبعث الله فينا رسولاً نعرف صدقه ونسبه

وأمانته فدعانا إلى توحيد الله ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحُسن الجوار ، والكف عن المحارم ، ونهانا عن قول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأن نعبد الله وحده ، ولا نشرك به شيئًا ، فصدقناه وآمنا به ، فغدا علينا قومنا وظلمونا فخرجنا إلى بلادك ورجونا ألا نظلم لديك » ثم تلا جعفر بعض آيات الكتاب عن مريم والمسيح كان لها أحسن موقع في نفس النجاشي ، فبكى النجاشي ، وبكى من حوله من الأساقفة ، ولمس الساعون بالفتنة خيبة رجائهم فرجعوا آسفين !

ظل عبد الرحمن مع إخوانه يواسيهم ويشجعهم ، فلما اطمأن على مكانهم رجع إلى مكة ليزاول عمله التجاري ، وقد فرح المسلمون بأوبته ، وتحدث إليهم بما وجد في الحبشة من أمور كانت تخفى عليه ، وجرى في يده الرزق ، فكان ينفق عن سخاء ، وكأن الله عز وجل قد جعل النجاح في كل وجهةٍ ينتحيها ، فما يتجه إلى عمل حتى يعود عليه بأكثر مما يتوقع ، لأن ثقته في الله كانت تدفعه إلى الكسب الحلال ثم إلى الإنفاق في ذات الله .

عاد عبد الرحمن ليعين إخوانه في الإسلام ، وليقف جوار رسول الله ﷺ فيما يتعرض له من صعاب الأمور ، وقد سعدت تجارته فعادت بمكسب أخذ يوزع النصف منه على فقراء المسلمين ، ويتجر في النصف الآخر ، فإذا جد ربحٌ جديد استمر في عطائه مرحبًا ، وكانت له خبرته العملية التي جعلت ينابيع الثراء تتدفق من بين يديه ، حتى أذن الرسول بالهجرة إلى المدينة

لأصحابه ، وتلك بالنسبة إلى عبد الرحمن بالذات موضع تضحية لا حد لها ، ولكنها تضحية في سبيل الله ، إنه سيترك داره وأقاربه ، وماله الوفير وتجارته الكاسبة ، ويتجرد من كل شيء إلا من إسلامه ، وسيلاقي ما لا يحب من آلام الغربة ، والحاجة ، وقد قابله أحد المشركين ممن يحاولون التأثير عليه فقال له :

ستترك دارك الجميلة في مكة يا عبد الرحمن ؟ فقال : نعم ، قال : وتجارتك هل تجد لها سوقًا في المدينة ؟ فقال : بعون الله .

قال : وهل ضمنت التفوق على تجار اليهود من بني قريظة وبني النضير ؟

فقال : الرزق بيد الله يعطيه من يشاء .

ثم تمت الرحلة وآخى رسول الله بين المهاجرين والأنصار ، بحيث صار لكل مهاجر أخ يقاسمه ماله وداره حتى يمن الله بالرزق على المجاهدين من المهاجرين ، وكان من نصيب عبد الرحمن أن آخى سعد بن الربيع الأنصاري ، وكان مشهورًا بالكرم والسخاء فلم يكتف بإعطائه من الضيافة حين أنزله بيته مكرمًا بل قال له في صدق خالص :

يا عبد الرحمن ! أنت أخي في الإسلام وأخوة الدين أقوى من أخوة النسب وأنا أكثر الأنصار مالاً ، وقد قسمت مالي نصفين بيني وبينك ، فخذ أفضلهما لأفرح حين أجدك مسرورًا .

فأجاب عبد الرحمن : بارك الله لك في مالك .

فتابع سعد بن الربيع يقول : وإن لي زوجين فاختر أيهما

شئت لأطلقها . وتصير زوجتك بعد انقضاء العدة .

دمعت عينا عبد الرحمن : إذ شعر بإحساس قوي نحو عاطفة صاحبه ، ثم قال له في حب خالص :

بارك الله عليك في مالك وأهلك فهما لك وحدك ، ولا أريد شيئًا ومعي صحتي وعقلي .

قال سعد متعجبًا ؟ وماذا ستصنع بصحتك وعقلك ؟

فرد سعد يقول : دلني على السوق ، فأنا تاجرٌ وسيرزقني الله ، لأنه عودني دائمًا الكسب الحلال .

ودخل السوق لا يملك شيئًا فجعل يشتري الشيء بالدين ، ثم يبيعه بالمكسب القليل ، ويرد الدين لصاحبه ، وفي أيام اجتمع الكسب مع الكسب فصارا أساسًا لتجارة تعود على صاحبها بالربح ، وواصل السعي ابتغاء الرزق الحلال فأصبح يملك عددًا من الإبل ، ويؤجر بعضها ويتاجر في بعضها الآخر ، ثم تزوج أنصارية كريمة ، وانتقل إلى بيت اشتراه من كسب يده ، وعرف بعض إخوانه سعته ، فلم يبخل على الفقير منهم ، ولم يكتف بحق الله في ما قدره من الزكاة بل جعل يتصدق بنصف ما لديه ، ثم يتاجر فيعود إليه أكثر مما تصدق ، فصدق فيه قول الله عز وجل : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

[البقرة:٢٤٥]

ولم تمنع تجارة عبد الرحمن ، وسهره على تثمير ماله أن يشهد مشاهد الحرب جميعها مع رسول الله ، وكان مع القلة التي ثبتت مع رسول الله يوم أحد ، وقد أصيبت أسنانه وسقط منها ما جعله أهتم ، وجُرح في جسمه عشرين جراحة بعضها كان في رجله فأصابه بالعرج قليلاً ، ولم يُصب في غزوة غير غزوة أحد ، لأن الموقف فيها كان أكثر من أن يحتمل ، وكان يباهي بعرجه قائلاً : إنه شفاعته إلى ربه .

وحين أراد رسول الله ﷺ أن يؤمن المدينة إذ بلغه تحرش الروم بها بعث بسرية إلى دومة الجندل وبينها وبين المدينة خمس عشرة ليلة ، وأمَّرَ على القوم عبد الرحمن بن عوف ، بعد أن قدمه ، وعممه بيده الشريفة ، وأمر بلالاً رضي الله عنه أن يعطيه الراية ففعل ، وقال لعبد الرحمن ومن معه : اغزوا جميعًا في سبيل الله ، فقاتلوا من كفر بالله ، ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا ، فهذا عهدُ الله بينكم وبين نبيه وكان عبد الرحمن كعهده حريصًا على السلم إذا تيسر سبيله دون قتال ، فمكث ثلاثة أيام يدعو القوم إلى الإسلام فيأبون إلا السيف ، وكان رئيسهم الأصبع بن عمرو الكلبي رجلاً ذا فطانة ، فاستمع إلى رسل عبد الرحمن وعرف أن المسلمين لا يبدءون بالشر ، واستمع إلى بعض ما جاء به الرسول من تعاليم هادية تخرج الناس من الظلمات إلى النور فاهتدى إلى الإسلام وخالفه قومه بادئ الأمر ، ولكنه استطاع أن يقنعهم فأسلموا طائفة بعد طائفة ، وعلم رسول الله بما تم على يد عبد الرحمن بن عوف دون إراقة دماء ، فطلب إليه أن يتزوج

ابْنَةَ الأصبع إن قبلت رعايةً لوالدها ، وتقوية لمركزه ، فتزوجها عبد الرحمن وقدم بها إلى المدينة ، ولكنه لم ينجب منها إلا بعد عشرين سنة ، وفي هذه الموقعة يقول الشاعر الكبير الأستاذ أحمد محرم :

أعرضَ القوم وقالوا ديننا — يا ابن عوفٍ ديننا لا ما تشاء
ليس غير السيف تقتضي بيننا — وهو أولى يا ابن عوف بالقضاء
ورأى سيدهم ما هاله — من أمورٍ لا يراها الجهلاء
قال أسلمت فيا قوم اشهدوا — واهتدوا فالله حق لامراء
أسْلَمتْ من قومه طائفةٌ — وأبت طائفةٌ كل الإباء
ما على ذي همةٍ من حرج — إن تراخى الجد أوزاغ الرجاء
كل أمر فله ميقاته — طابت الأنفس أوطاب الغناء
يابن عوف لو رأى الغيب امرؤٌ — لرأتْ عيناك ما تحت الغطاء
لك من زوجك كنزٌ جلل — من كنوز الله أغنى الأغنياء

وانتظار عبد الرحمن ثلاثة أيام لا يبدأ بالقتال ، مما يدل على طبيعته الهادئة ، وهذه الطبيعة هي التي جعلته يتخلف مع خالد الوليد رضي الله عنه في يوم بني جزيمة بعد الفتح إذ تسرع خالد فقتل فريقًا من القوم بعد استسلامه ، ولم يرض رسول الله ﷺ بما فعل خالد ، فدعا علي بن أبي طالب رضوان الله عليه وقال له : اذهب إلى هؤلاء القوم ، واجعل أمر الجاهلية تحت قدمك ، وبعث معه مالاً كثيرًا ، فأدِّي الدية في الدماء ، وما أُصِيبَ من الأموال ، وبقيتْ بقيّةٌ معه ، فقال عليٌّ حين فرغ من الدية : هل

بقي لكم شيءٌ من دم أو مال لم يؤد لكم ؟ فقالوا : لا ، قال : فإني أعطيكم هذه البقية معي احتياطًا لرسول الله ﷺ ، ورجع فأخبر الرسول بما صنع فقال أحسنت ، ثم قام محمد ﷺ فاستقبل القبلة ، وقال اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد .

وكان عبد الرحمن بن عوف ممن غضب لما صنع خالد ، فقامت بينهما مناقشة صعبة ، بدأها عبد الرحمن بقوله : « عملت بأمر الجاهلية في الإسلام ، فرد عليه خالد ردًا قاسيًا ، حتى كان بينهما شرًا ، فبلغ ذلك رسول الله فقال : مَهْلاً يا خالد ، ودَع عنك أصحابي فوالله لو كان لك مثل أحدٍ ذهبًا ثم أنفقته في سبيل الله ما أدركتَ غُدْوَةَ رجل أو رَوْحَتَه من أصحابي ، وهذا القول من رسول الله يصور مكانة عبد الرحمن بن عوف لديه ، ويظهر قدر السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، وقد سكت خالد عن اقتناع .

ثم جاء يوم الحديبية ، وكانت قريش في مكة على قلب رجل واحد تعارض مجيئ رسول الله وصَحبَهُ لزيارة البيت الحرام ، وقد جزعتْ حين عرفتْ أن رسول الله ﷺ قد استنفر العرب ومَنْ حول المدينة من البوادي ليخرجوا معه ، وأنه سار إليهم في سبعمائة رجل وقد أعلن أنه ليس محاربًا ، ولكنه يزور البيت فقط ، وهذا ما ارتابت فيه قريش فتهيئوا للقتال وتركوا مكة إلى ذي طوى معلنين أن رسول الله ﷺ لنْ يدخلها عليهم أبدًا ، فلما رأوه قد خالفهم في الطريق ولم يجعل مَمرَّهُ بذي طوى رجعوا حائرين ، وأوفدوا للرسول من يستطلع أمره ، فرجع إليهم

يقول : إنه رأى كسرى في ملكه ، والنجاشي في عرشه ، ولكنه لم ير مثل محمد في أصحابه حبًا وامتثالاً ، وجاءت خزاعة فأعلنت لقريش أنها أصبحت تصدّ الحُجَّاجَ عن بيت الله ، وأن المسلمين لا يريدون شرا ، وقد ساقوا الهدى ، فردَّتْ قريش بأن الناس سيتحدثون أن محمدًا دخل مكة عنوة ، وهذا ما يسقط هيبتها في القبائل ، وظل القوم في اضطراب وخاصةً بعد أن رجع الحُلَيْسُ بن علقمة سيد الأحابيش إليهم يهددهم بأنهم يَصُدُّونَ عن البيت الحرام من جاء معظمًا له ، وصاح بهم : والذي نفس الحليس بيده لَتُخلُّنّ بين محمد وبين ما جاء له ، أو لأنفرن عليكم بالأحابيش نفرة رجلٍ واحد .

ويأتي سهيل بن عمرو سفيرًا لقريش ، ويدور حوار ينتهي بالموافقة على أن يرجع رسول الله ﷺ إلى المدينة هذا العام ، ويأتي العام القادم ، بعد أن يُعلن ذلك في الناس ، ويوافق الرسول مستجيبًا لحقن الدماء ويخالفه بعضُ الصحابة ، وكاد الشقاق يحدث بين المسلمين لولا حبُّهم لرسول الله ، ومعرفتهم أنه على الحق في كل ما يأتيه ، واختار رسول الله من أصحابه ثلاثةً يشهدون مؤتمر الصلح وهمْ أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف ، واتفقوا على كل ما تمخّضْ عنه صلح الحديبية من شروط ، ظنها بعض المسلمين مجحفة ، ولكن ابن عوف شرح وجهة نظره ، فرضي المسلمون جميعًا ، وكأني بالرسول وقد اختار عبد الرحمن بن عوف وأبا بكر مع عمر بن الخطاب ليهدئا من تشدده فقد عارض اقتراح قريش بادئ ذي بدء ، وقال :

ألسنا على حق ، فلماذا نُعطي الدنيَّةَ في ديننا ، وهي ليستْ دَنيَّةً لكنها ارتقابٌ وانتظار حتى يصدق الله وعده ويأتي الفتح بعد عام ، وهذا ما ردَّده أبو بكر ، وعبد الرحمن .

وفي غزوة تبوك ، كان عبد الرحمن بن عوف على رأس المجاهدين ، وقُبَيْلَ الفجر في ذات ليلة خرج رسول الله ﷺ إلى معتزل آمن يُسبّح الله ويدعوه وحده كعادته في غزواته الشريفة ، وكأنه تأخر عن ميعاد صلاة الفجر ، والتفت المسلمون فلم يجدوه ، ومن عادتهم ألا يتركوا موعد الفضيلة حين تحين الصلاة ، فنهض القوم ، وتقدم عبد الرحمن بن عوف للإمامة ، وصلَّى الركعة الأولى ، وهُنا حضر رسول الله ، فهمَّ بعضُ الصحابة بأن يُخْبِرُوه أثناء الصلاة أَنَّ الرسول قد أتى ، فأشار عليه الرسول أَلَّا يفعل ، وائتمَّ به ، وحين فرغ القوم من الصلاة قال لهم رسول الله : لقد أصَبْتُم وأحسنتم . ونحن نأخذ من هذا الموقف شيئًا ذا بال ، هو أن المسلمين قدموا عبد الرحمن بن عوف ، وفيهم أبو بكر وعمرو وعثمان وعلي ! وأنَّ الرسول ﷺ قد وافق على ذلك ، وائتمَّ به في الركعة الثانية ، والمؤرخون يقولون إن رسول الله لم يأتم في حياته بأحد من المسلمين ، إلا بأبي بكر وعبد الرحمن بن عوف ، وهي مَنْقَبةٌ عالية ، ذات شرف عظيم .

مضت أيام وجاء يَوْمُ العسرة ، فتجلَّى الكرم العربي في أبهى مظاهره ، والكرمُ العربي فطرةٌ عند العرب في عهود الجاهلية ، ثم جاء الإسلام فاكتمل الكرمُ على أكمل وجْه منظور ، وقد قرأت

كلامًا غير مفهوم لكاتبٍ غير مدقق يتحدث عن الكرم العربي فيقول : إنه مبالغٌ فيه ؛ لأن الكريم عند العرب هو الذي يجلس في خيمته ويذبح شاةً لضيفه فقط !! وقد نسي هذا الكاتب أن الذي ذبح الشاة التي يستقلها ، قد لا يملك غيرها ، ولكنه يجود بكل ما لديه ، فهو أفضل ممن يملك مائة ألف جنيه ويتبرع بعشرة آلاف ! لقد جاء يوم العسرة بالمدينة حين بلغ رسول الله ﷺ أن الروم قد جمعت الجموع وتأهبت لغزو المدينة ، وكان الحر شديدًا ، والزمن زمن جدب حتى قيل عنه زمن العسرة ، وقد أوشكت الثمار أن تطيب ، والناس ينتظرون نضجها بفارغ الصبر ليأكلوا من طعامها المستطاب ، فتجهز النبي للقتال ، وحثَّ الموسرين على البذل وهنا كان عثمان بن عفان وأبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب في طليعة من تبرعوا بالمال الوفير حتى قال رسول الله لأبي بكر لقد تبرعت بكل مالك فماذا أبقيت لأهلك ؟ فقال : لقد أبقيت لهم الله ورسوله . أما عبد الرحمن بن عوف فقد تبرع بمائة أوقية من الذهب الخالص ، هي نصفُ ماله ، فقال له رسول الله ﷺ : ماذا تركت لنفسك ، فقال : بقي عندي مثلُ ما تبرعت لا يزيد ولا ينقص ، فقال ﷺ : بارك الله لك فيما أمسكت ، وفيما أعطيت ، وفي هؤلاء الكرام نزل قول الله عز وجل : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة:٢٦٢] .

ومن مواقفه المشهودة أنه حين مرض في بعض أوقات عِلّاته أخرج ثُلثَ ماله فتصدَّق به بمرأى ومسمع ، يُعطي كل محتاج ما يكفيه ، فَقِيلَ له تُوصِي بالمال فيفرّق بعد وفاتك ، فقال : لأَنْ تُعطَي وأنت صحيح شحيح تخاف الفقر ، وترجو الغنى فهذا أفضل ، لا أن تنتظر حتى يأتيَ الرمق الأخير فتقولُ هذا لفلان وهذا لفلان .. وحين أعطى الفقراء ، وبقي لديه المال ، قال : يا أصحاب رسول الله مَنْ كان مِنْ أهل بدر فله عليَّ أربعمائة دينار ، فجاء أهل بدر وأخذوا ما أعطاهم ، ثم جاء عثمان بن عفان رضي الله عنه ليأخذ نصيبه لأنه بدريٌّ ، فقال له بعض الناس : ألست غنيًا يا ابنَ عفان ؟ فقال : هذه صِلةٌ لأهل بدر ، ولو كانت صدقة لما تقدمت ، فكان مبلغ ما أعطى عبد الرحمن في هذا اليوم مائة وخمسين ألف دينار .

ومرت أعوام ، وقد أَبَلَّ عبد الرحمن من مرضه ، واستأنف تجارته ، وربح ربحًا جزيلاً ، وسمعت عائشة رضي الله عنها رجَّةً في المدينة فسألت : ما هذا ؟ فقالوا : قافلة لعبد الرحمن بن عوف تحمل من كل شيء وقد قدمت من الشام ، وكانت سبعمائة بعير محملة بأوساقها ، فقالت عائشة : عبد الرحمن سيدخل الجنة حبوًا ، ويلغه قول عائشة رضي الله عنها مسمع عبد الرحمن فقال : إني لأرجو أن أدخلها قائمًا لا حابيًا ، وثمن ذلك أن أجعل القافلة كلها في سبيل الله ، وأوقف الجمال وأنزل ما عليها وجعل يفرق ما حملت على الفقراء .

ومع هذه النفقات في الصدقات كان عبد الرحمن يبكي متألمًا

ويقول : أخاف أن يكون الله عز وجل بما أملك من مال قد عجَّلَ لي الثواب في الدنيا ، وأخذت عيناه تدمعان ، فقال أحد جلسائه : ما يبكيك يا أبا محمد ؟ فقال : لقد مات رسول الله ﷺ ولم يَشْبَعْ هو وأهل بيته من خبز الشعير ، وها أنا آكل الخبز باللحم!

كما أُتي مرة بطعام شهي وكان صائمًا فلما رأى اللحم والمرق رفع يده ، وقال لجلسائه قُتل مصعب بن عمير وهو خير منّي ، وكفن في بردة إن غطت رأسه بدت رجلاه ، وإن غطت رجليه بدا رأسه ، وقُتل حمزة بن عبد المطلب وهو خير مني فلم يُوجدْ ما يُكفن به ، وها نحن أولاء بقينا لنأكل ونلبس ونتنعم ، وقد خشينا أن تكون حسناتُنا قد عجلت لنا .

يقول هذا عبد الرحمن وهو يعلم أنه أحد الثمانية السابقين إلى ألإسلام ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الذين هاجروا الهجرتين إلى الحبشة وإلى المدينة ، وأحد الذين نعموا برضا رسول الله!

لذلك كان عثمان بن عفان رضي الله عنه يقول من يزعم أنه خير من عبد الرحمن بن عوف فقد كذب .

وكأني بعثمان وقد استعرض تاريخ ابن عوف منذ عرفه فعظمت سيرته في عينه ، وقارنه بكثير ممن يعرف فرجحت كفته لديه ، فقال وكأنه يحدث نفسه بعد اقتناع أكيد : (من زعم أنه خير من ابن عوف فقد كذب!!) .

وما كان يعرفه عثمان عن عبد الرحمن كان يعرفه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، وهما من هما فكانا يستشيرانه في الأزمات الخانقة فيبدي الرأي الأصيل .

لقد كان المستشار الأول لأبي بكر الصديق عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وقد فكر أبو بكر حين أحس من نفسه الموت في أمر من يَخْلفه ، وكان اعتقاده الجازم أن الفاروق رجل الموقف ، ولكنه أراد أن يُشرك غيره في الرأي ، فاستدعى عبد الرحمن بن عوف ، وقال له : إن الخير في أن يختار خليفةً من بعده كيلا تتشعب الأهواء ، فمن يختار ؟ فاتجه إلى عمر ، وكان ذلك تثبيتًا لرأي أبي بكر فصمم عليه! لقد ارتاح أبو بكر حين وجد ابن عوف يشير عليه بمن اعتقد صلاحيته ، فصمَّمَ ونفَّذ . أما عمر بن الخطاب ، فكان عبد الرحمن أيضًا موضع استشارته في أمور كثيرة ذكرتْها كتبُ التاريخ .

ومن هذه الأمور ذات النتائج الحاسمة : فتح العراق ، وجبهته أخطرُ الجبهات ؛ لأن الفرس أصحاب اليهود ولهم ، سطوتهم المرعبة ، فجمع الفاروق أصحاب الأمر والشورى في المدينة ، وسألهم الرأي في الذي يتولى قيادة الجيش الإسلامي ، ففكَّر الجميع ، ثم انطلق عبد الرحمن يقول : وجدته يا أمير المؤمنين !! فجعل عمر يسأل ؟ ومن هو يا ابن عوف؟ فقال : هو الأسد عاديًا ، هو سعد بن أبي وقاص . تتطلع عمر في وجوه القوم فلم يجد اعتراضًا فقال : سآخذ بمشورة ابن عوف وكانت العاقبة سارة فقد رجع الجيش بالفتح المبين .

وفي مرة ثانية رأي عمر أن يلحق بـالجيش ليقـف علـى أمـور المحاربين بنفسه ، واستخلف علي بن أبي طالب على المدينة فعلم عبد الرحمن بن عوف بما كان مـن أمـر عمـر فلحـق بـه ونـاداه ، فوقف ينتظره فقال عبد الرحمن :

إذا كنت يا أمير المؤمنين ترى القعود عجزًا ، فاجعـل عجزهـا بي ، وأناشدك الله أن تظل كما أنت بالمدينة .

قال عمر : ولماذا يا عبد الرحمن ؟ كيف لا أباشر أمور الجـيش عن قريب؟

قال عبد الرحمن : إنَّ هزيمة الجيش وأنت به ، ليسـت كهزيمتـه وأنت بعيدٌ عنـه ، ولـو فـرض وقتلـت ، لانهـزم المسـلمون ، ولم تجتمع لهم كلمة ، فالله الله في المسلمين .

أطرق عمر ، وفكر فرأى الصواب في قول عبـد الـرحمن وكـرّ راجعًا .

وقد خرج عمر إلى ضواحي الشام استجابة لضرورة قـاهرة لم يستطع معها البقاء في المدينة إذ بلغه أن جيوش الـروم لا يحصـى لهم عدد ، وأن قواد المسلمين في حاجة إلى رأيه السريع ، ولكنه لم يكد يبلغ (تبوك) حتى لقيه قائد الجيش أبو عبيدة الجراح فـأخبره أن الطاعون قد وقع بأرض الشام .

قال الأستاذ : علي الطنطاوي بصدد هذا الموقف[١] :

---

(١) عبد الرحمن بن عوف ، للأستاذ الطنطاوي ص٢٨.

قال عمر لابن عباس ادع لي المهاجرين الأولين ، فحضروا واستشارهم فاختلفوا فقال بعضهم : معك بقيّةُ الناس ، وأصحابُ رسول الله ﷺ ولا نرى أن تُقْدِمهم على الوباء .

وقال بعضهم الآخر : قد خرجت لأمرٍ ، ولا أرى أن ترجع عنه ، وكان مما قاله أبو عبيدة : أفرارًا من قدر الله ؟

فقال عمر : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ، نَعَمْ ، نَفِرُّ مِنْ قَدَر الله إلى قدر الله ، أرأيت لو كانت لك إبلٌ هبطتْ واديًا له عدوتان ، إحداهما خصبةٌ ، والأخرى جدبة ، أليس إن رَعَيْت الخصبة رعيتها بقدر الله ، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله ؟

وجاء عبد الرحمن بن عوف ، وكان متغيبًا في بعض حاجته ، جاء ومعه حل المشكلة ، فنقل النص الشرعي الذي يؤيد ما رآه عمر العبقري بعقله ، وروي لهم الحديث الذي يعد معجزة من معجزات الإسلام ، وأمارةً من أمارات صدق محمد ﷺ ، والذي قرر به الرسول قاعدة الحجر الصحي المتبع اليوم ، يوم لم يكن على ظهر الأرض من يدري ما مسير الأمراض ، ولا كيف يكون انتقالها .

قال عبد الرحمن : إن عندي من هذا علمًا ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : إذا سمعتم به (أي بالمرض الساري) بأرضٍ فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرضٍ وأنتم فيها فلا تخرجوا » أ.هـ . كلام الأستاذ الطنطاوي .

وكان الصحابة يعرفون منزلة عبد الرحمن بن عوف من نفس أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، يعرفون أنه يصارحه في القليل والكثير ، والجليل والحقير دون تهيب ، وكانوا يرون في عمر شدَّة صارمة ، وأنها قد تخيف الناس ، وأن من الرأي أن يخفف هذه الشدة الحازمة فيرتاح القوم إلى لقائه دون رهق ، كان الصحابة يعرفون ذلك عن عمر ، كما يعرفون منزلة ابن عوف لديه فسألوه أن يفاتح الفاروق في هذا الأمر ، لأن الرجل ذا الحاجة قد تلجئه الضرورة إلى لقاء أمير المؤمنين فيهابه ، ولا يقضي حاجته .

استمع عبد الرحمن إلى ما قاله رفقاؤه ، فعرف أنهم على حق ، ولم يطق الانتظار ، فعجل بالدخول عليه قائلاً :

يا أمير المؤمنين : لن للناس ، فإنه يقدم عليك القادم فتمنعه هيبتك ، أن يكلمك في حاجته ، وهو إلى قضائها ذو احتياج .

ففكر عمر قليلاً ، ونظر متفرسًا في وجه عبد الرحمن ثم قال له : أنشدك الله أعليٌّ وعثمان وطلحة والزبير وسعد أمروك بهذا ؟

قال عبد الرحمن : اللهم نعم!

فقال عمر : يا عبد الرحمن لقد لِنْتُ للناس حتى خشيت الله في اللين ، ثم اشتددتُ حتى خشيت الله في الشدة ، وأقسم بالله لأنا أشدّ منهم خوفًا فوق خوفهم مني ! وقام يجر رداءه ويبكي . فجعل عبد الرحمن يقول : أفٍّ لهم من بعدك .

وكانت خاتمة عمر أنه حين طُعن في الصلاة تناول يد عبد الرحمن من بين الصحابة فاستخلفه ليتم الصلاة بعد طعنه !

إن معدن الرجولة في نفس ابن عوف غال ثمين ، وقد أدرك أبو بكر وعمر رضي الله عنهما هذا المعدن فَقَدَّرَاهُ حق تقديره ، وكان أعظم ما يروقهما منه أنه يعتمد على نفسه في صلاح أمره ، ويعتمد الناس عليه فيما يواجهونه من صعاب ، فهو موضع الأمانة لمن يريد أن يحفظ سرّه أو وديعته ، وموضع الاستشارة حتى تَتْبهم المسالك ، وتتعدد الدروب ، وموضع الحزم حين تختلف الآراء ، وتصطدم الأهواء ، وهذا ما اتضح من مسلكه في اختيار الخليفة الجديد .

رحل عمر إلى جوار ربه ، وكادت تكون فتنةٌ بين المسلمين ، ولكن عمر قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة أخذ يفكر في أمر المسلمين من بعده فقال : إن عينتُ أحدًا فقد استخلف من هو خير مني وهو أبو بكر ، وأن أترك فقد ترك من هو خير مني ومنه وهو رسول الله ، وإني جاعلٌ هذا الأمر إلى هؤلاء الستة الذين مات عنهم رسول الله ﷺ وهو راضٍ ، ودعا بعلي فحذره أن يقدم بني هاشم إذا ولي الأمر ، ودعا عثمان فحذّره أن يقدم بني أميه إن تم له الشأن .

ثم أمر أبا طلحة الأنصاري أن يكون في خمسين جنديًا من الأنصار ، فيكون مع أهل الشورى فيحرسهم ولا يدعهم يتفاوضون أكثر من ثلاثة أيام ، ولا يدع أحدًا يدخل عليهم فيها ، فيفسد ما بينهم .

ووكل بالصلاة في هذه الأيام الثلاثة صهيبًا وهو عبد رومي ليدل على أن الإسلام يعتبر التقوى فوق الأنساب .

ثم دارت المعركة حين خرجتْ جنازة عمر ، إذ تصدَّى للصلاة عليها كلٌّ من علي وعثمان ، فجاء عبد الرحمن معترضًا ، وقال كلاكما يحب الإمارة ، والصلاة لصهيب فقد استخلفه عمر كي يصلي بالناس ثلاثة أيام ، وتقدم صهيب فصلى .

واجتمع القوم المرشحون وهم : عثمان ، وعلي ، وسعد ، والزبير ، وطلحة ، وعبد الرحمن بن عوف ، ولم يأت الاجتماع بفائدةٍ ؛ لأن كلاً كان يريدها لنفسه ، حتى قال أبو طلحة الأنصاري كنت أخشى أن تتدافعوها ، لا أن تتزاحموا عليها ، والله لا أزيدكم على الأيام الثلاثة التي حددها عمر .

وحين كثر الخلاف دون جدوى رأى عبد الرحمن أمرًا يفتح باب الاتفاق ، فقال : أيكم يُخْرِجُ نفسه من الأمر ، فيكونُ هو الذي يختار الخليفة ؟

فلم يجبه أحد ، فقال : أنا أخرجُ نفسي وأنخلع منها ، فقال عثمان : أنا أول من رضي فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : أنت أمين الأرض والسماء .

وسكت عليٌّ فقال له عبد الرحمن : ما تقول يا أبا الحسن ؟

وكانت عينه يقظة ينظر إلى ما حوله من أمور الخلافة والناس ، فيقضي بالتي هي أعدل .

لقد سمع إن إبلاً من إبل الصدقة جاءتْ فوهبها عثمان لبعض بني الحكم ، فصحب ابن أخته المسور بن مخرمة ، وابن الأسود وأمرهما باسترجاع الإبل وتوزيعها على الناس ، وجاء الأمر إلى عثمان فأقره دون أن يعترض .

وخالف عثمان حين صلَّى بالناس أربعًا في منى ، وكان الرسول يصلي ركعتين على سبيل القصر ، وجادله فرأى وجهة نظره تدل على أنه لا يرى القصر واجبًا بل رخصة ولكنه أصر على وجهته ، لأن الرسول وأبا بكر وعمر صلوا ركعتين بمنى ! فهم أولى بالاتباع .

وهكذا كان عبد الرحمن صاحب فكرة يذود عنها ، على أنه لم يمانع في صحة وجهة عثمان بل ارتاح إليها ، حين حدثه عبد الله ابن مسعود بأن الخلاف فتنة ، وصلاة الأربع لا تكون سببًا للخلاف فقال عبد الرحمن : سيكون الذي ترى يا ابن مسعود بعد ذلك ! فلا أتشدد .

وكانت وفاته في خلافة عثمان سنة إحدى وثلاثين من الهجرة ، وهو ابن خمس وسبعين سنة ، وقد صلى عليه أمير المؤمنين ، ودفن بالبقيع !

هذه سيرة لم يجملها الخيال ، ولكن الواقع أكسبها كل جمال وجلال .

*****

سعد بن أبي وقاص

سعد بن أبي وقاص بطل فاتح من طراز خالد بن الوليد ، وأبي عبيدة بن الجراح ، وعمرو بن العاص ، ممن فتحوا الممالك ، وامتدوا بمساحة الإسلام إلى أماكن قاصية أشرق فيها ضياؤه فهدى الناس من الظلمات إلى النور .

وكانت نفس سعد منذ صباه قلقة حائرة تتلفت فيما حولها فتجد عبادة الأصنام ، وولوع قريش بتقديسها ، وتقديم الذبائح إليها ، فتساءل ما عسى أن تفعله هذه الحجارة الصماء ؟ ويزيد في عجبه أن الصنم يُعبد اليوم ، ثم يجيء الغد فيكسر خشبه ويصير طعمة للنار ، يُشوى به اللحم ، ويستدفئ به المقرور ! أهذا مصير الإله المعبود ، وقد تمر الكلاب وصغار الحيوانات من فوقه ، فتستمهنه بأخس ما ترمي من القاذورات ، ثم يصير إلهًا يعبد .

لذلك لم يكد يسمع عن دين جديدٍ يقوم به محمد بن عبد الله داعيًا إلى عبادة الله وحده ، حتى انطلق إلى رسول الله في السابقين الأولين ، فكان رابع أربعةٍ دخلوا الإسلام عن حبٍ صادق وإخلاص مكين .

يتحدث سعد عن حالته النفسية قبل أن يشرق الإسلام على قلبه فيقول فيما روى المؤرخون عنه : « رأيت في المنام قبل أن

أسلم بثلاث ليال كأني أسيرُ في ظلمة أتخبط فيها عن يمين وشمال كالأعمى ، ولا أُبصر شيئًا ، ثم نظرت وقد أبصرت عيني فجأة إذ رأيت قمرًا زاهر الضوء ، فياض النور يشرق في عيني ، وأمامي رجالٌ أخذتُ أتأملهم فوجدت فيهم أبا بكر الصديق ، وعلي بن أبي طالب وزيد بن حارثة ، وهم يتمتعون بالسير في الضياء المشرق فأقبلت أسألهم في حيرة : متى اهتديتم إلى هذا النور ؟ فقالوا : الساعة يا ابن أبي وقاص ، واستيقظت حائرًا أفكر فيما رأيت بالليل ، وخرجت من الدار إلى الكعبة فعلمت أن محمد بن عبد الله أتي بدينٍ جديد ، وأن أبا بكر وعلي بن أبي طالب وزيد ابن حارثة من أتباعه ، فصفقت بيدي ، وقلت : لقد صدقت الرؤيا ، وعلمت أن رسول الله يستخفي مع الملأ من قومه في شعب أجياد ، فقلت : هو طلبتي ، ولن أبرح حتى أقابله فأعلن إسلامي ، وكان سني حينئذ سبع عشرة سنة ، وفي روايةٍ أخرى أنه ذهب إلى دار أبي بكر ، فأعلمه برغبته في الإسلام ، فصحبه إلى رسول الله بأجياد ، وصلى معه ! وصار سعيدًا بما اهتدى إليه ، وقد رجع إلى منزله قرير العين يقول لأهل بيته كنت في ظلامٍ فأصبحت أمشي في النور .

وكان الخبر مفاجئًا كل المفاجأة لأمه حيث فزعت فزعًا شديدًا ، وحاولت أن تثني ولدها عن الدين الجديد ، وتقول في حدة : كيف تترك دين الآباء والأجداد إلى دين لا تعرف عنه قريش شيئًا ؟ فيقول لها : يا أماه! هذا الصنم في بيتك من الذي صنعه لك ؟

فتقول : فلان : فيصيح بها كيف يصنع النجار إلهًا وتعبدينه ؟ فتصرخ في وجهه أنت صابئ ، فيقول لها : أين الصنم القديم الذي كان هنا منذ شهر ؟ قالت : لقد احتجنا إليه في ليلةٍ باردة ، فأوقدناه وأدفأنا ، فيقول : يا أماه ، كيف يصير الإله وقودًا للنار ؟ فلما رأت عزمي أرادت أن تحرجني بما تظنني لا أقدر عليه ، فقالت : لتدعن دينك هذا ، أو لأمتنعن عن الشراب والطعام فلا آكل حتى أموت ، وتصبح أنت مسبة في العرب ، فيقول الناس : أهان سعدٌ والدته ، وحرم عليها الطعام والشراب ، حتى ماتت! ثم امتنعت يومًا وليلة لا تأكل ولا تشرب ، وانتظرت أن يأتي إليها سعد فيقول : لقد رجعت عن دين محمد كيلا تموتي من الجوع ، وأرسلت من يخبره بتأخر حالتها إلى درجة تنذر بالموت ، فأسرع سعد إليها ، وقال في تصميم : يا أمي استمعي إلى فلست بالصغير الجاهل ، والله ثم والله لو كانت لك ألف نفس وجعلت تخرج واحدة بعد واحدة أمامي حتى بلغت النفس الآخرة ، لتركتها تموت وتذهب ولا أرجع عن دين شرفني الله به ، يا أمُّ كلي واشربي ، أو دعي طعامك وشرابك ، فوالله لن أرجع إلى ما تريدين ، فلما رأت تصميمه وعضها الجوع بنابه ، أكلت وشربت وفيها نزل قول الله عز وجل : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ

بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [لقمان:١٤، ١٥] .

ظل سعد معتزًا بدينه ، وأخذ يجاهر به لا يخشى أحدًا ، وكان مَنْ سبقه إلى الإسلام يؤثرون السلامة فيصلُّون مستخفين عن سفهاء قريش في شعب من شعاب مكة ، ولكن نفرًا ممن يجحدون الإيمان ، قدموا إليهم يشتمون ويسبون ، ويظنون الأمر سيقف عند السب والشتم ، وكان سعد جديد عهدٍ بالإسلام ، وقد وقف يصلي مع رفاقه فشاهد من المشركين ما أنكر ولم يُطق صبرًا على ما سمع ، فنظر فوجد فَكَّ جمل كبير عن يمينه ، فحمله بين يديه ، وسعى إلى من يسب دينه فنهاه ، فلم يرتدع ، فرماه بما في يده رميةً شجت وجهه وسال منه الدم ، فكان هذا أول دم أُريق في الإسلام ، وعلم المشركون أنَّ المسلمين بدءوا ينتقمون لدينهم ، فأخذوا حذرهم ، ثم مَنَّ الله على المسلمين بإسلام عمر فانتقل عهد الاستخفاء إلى عهد الظهور ، وأصبح المسلمون يستعلنون بإيمانهم ولا يكترثون .

وحين انتقل المسلمون إلى المدينة كان سعد في طليعة المهاجرين ، وشهد المشاهد الحربية كلها مع رسول الله ﷺ ، وكان من أشرف مواقفه ما صنع يوم أحد ، حيث لم يتزحزح لحظة واحدةً ، حين

وقع الحرج بعد هجوم خالد وارتباك المجاهدين ، وقد دار بعينه باحثًا عن رسول الله ليكون فداءه ساعة الهول ، فرأى رجلاً يضع الخمار على وجهه ، ويتبعه المشركون كأنهم يقصدون قتله بالذات ، وبينهم وبينه المقداد بن الأسود يذود عنه ، فقال سعد : من هذا الملثم يا مقداد ؟ فقال : إنه رسول الله فالزمه ، فحميت نفسه ، وأخذ سهامه وجعل يرمي ويقول : اللهم هذا سهمك فاقتل به عدوك ، وسمعه رسول الله فقال : اللهم استجب لسعدٍ وسدد رميته وأجب دعوته ، ثم فرغت كنانتي مما بها من النبل ، فأعطاني الرسول كنانته فجعلت أرمي ، حتى انكشف عنه الناس .

وكان من عادته أن يتبع رسول الله ﷺ في سيره بالمدينة ، ليكون حارسًا له من خلفه . قالت عائشة رضي الله عنها : لقد سهر الرسول ذات ليلة ببيته ، فقال : ليت رجلاً صالحًا من أصحابي يحرسني الليلة ، فبينما نحن كذلك إذا سمعنا خشخشة سلاح ، فسأل رسول الله : من هذا ؟ فعرف أنه سعد بن أبي وقاص ، فقال له رسول الله ﷺ : ما الذي جاء بك يا سعد ؟ فقال : لقد وقع في نفسي خوفٌ على رسول الله فجئت أحرسه ، فدعا له رسول الله ، ونام هادئًا ، وسعدٌ بالباب كالأسد ، وكان الوقت وقت فتنة ، والمنافقون ينصبون الحبائل لرسول الله ، وهذا ما جعله ﷺ يتخوف ويسأل عن حارسٍ ، فألْهمَ اللهُ سعدًا ففاز

بالأجر عند ربه ، وأذكر أن أبا موسى الأشعري منذ سعد بالإسلام كان يحرص على أن يسير خلف رسول الله حارسًا إياه دون أن يطلب ذلك منه ! وهو حُبٌّ خالص تدفق في القلوب المؤمنة فانتقل إلى عملٍ ملموس يراه الرائي فيثني عليه ، وقد دعا له الرسول يوم أحد : أن يسدد الله رميته ، فكانت سهامه لا تخطئ ، وكانت هذه الدعوة حافزةً لسعد كي يكثر الرمي ، حين يلتقي الجيشان في معركةٍ بين الكفر والإيمان واثقًا أنه سيصيب مرماه عن يقين ، كما عُرف بحبه للأنصار وشدة اتصاله بهم عن صدق ، فسئل عن هذا التفاني ، سأله ابنه عامر بن سعد فقال له : يا بني هل تجد لذلك في نفسك شيئًا ؟ فقال عامر : لا أجد ، ولكني أعجب ! فقال : لا تعجب يا عامر فقد سمعت رسول الله ﷺ بأذني يقول عنهم : « لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق » ، ألا تود أن أكون مؤمنًا يا عامر ! قال : نعم يا أبتاه !

ثم بدأ الفتح الإسلامي يأخذ مده الطبيعي خارج الجزيرة العربية ، وجاءت الأنباء أن البطل العظيم المثنى بن حارثة الشيباني قد نازل الفرس في بعض المواقع ، وانتصر عليهم باسم الإسلام ، وقد كتب إلى الخليفة أبي بكر الصديق يرجو المدد ، فأمده بجيش كبير يرأسه خالد بن الوليد ، وكان المثنى أمينًا مع خالد ، فلم يحزنه أن يتولى القيادة سواه ، وهو صاحب النصر الحاسم في المعركة الأولى ، فجعل يمده بمشورته ، ويواكبه في

حلبات القتال حتى تم النصر ، وسقطت الحيرة والأنبار ، ولكن الفرس دُهشوا لانتصار العرب وجمعوا جموعهم ، فبعد أن كانت البلاد الفارسية مجزأةً يحكم كل بلد أمير مستقل ، وإن اعترف بالتبعية الاسمية لكسرى ، بعد هذا الانتصار الحاسم للمسلمين ، رأى (يزدجرد) آخر ملوك الفرس أن يجمع الأمراء تحت لواء واحد وأن يؤلف جيشًا كثيفًا بقيادة (رستم) البطل المشهود له في مملكة فارس ، حتى يعطي المسلمين درسًا لا ينسونه ، وعلم المثنى بتحرك الفرس إلى الحيرة والأنبار بقيادة رستم ، ومعه من الأسلحة والخيول والأفيال ما لا طاقة به ، علم ذلك ، فكتب سريعًا إلى عمر بن الخطاب وقد تولى الخلافة بعد وفاة أبي بكر ، يعلمه بما اعتزم عليه الفرس ، ويخبره أن الأمر جد يتطلب الإنقاذ السريع .

قرأ عمر كتاب المثنى ، فعرف أن الأمر جد ، وأن الانتصار الذي أحرزه المسلمون في الحيرة والأنبار يوشك أن ينتقض ، فتضيع هيبة المسلمين في فارس ، بعد أن زلزل الرعب قلوبهم ، فعزم على أن يقود الجيش الزاحف بنفسه ، واستعد لذلك ، ولكن عبد الرحمن بن عوف ونفرًا من الصحابة ، عارضوا هذا الاتجاه ، وقالوا له : يا أمير المؤمنين إن المعركة فاصلةٌ ، والفرس لا يستهان بهم ، فإذا فُرض وأصابك سهم أودي بك وأنت في ميدان المعركة ، فإن الخلل لا يتوقف على من يخوضون المعركة وحدهم ، بل ربما انتقل إلى أماكن أخرى ، أما إذا مكثت بالمدينة

واخترت قائدًا محنكًا يقوم مقامك ، فإذا أصابه خطرٌ ما أمكن استبداله دون أن يحدث اضطرابًا ما ، فصعد عمر على المنبر وقد جمع الناس فخطب فيهم قائلاً : أيها الناس إني كنتُ عازمًا على الخروج مع الجيش ، وأن ذوي اللب والرأي قد صرفوني عن هذا الرأي ، وأشاروا بأن أقيم وأبعث رجلاً من فضلاء الصحابة يتولى إدارة الحرب ، فمن تشيرون به ؟ فقال أحد الحاضرين : يا أمير المؤمنين قد وجدته ، قال عمر : فمن ؟ ، قال : الأسد عاديًا ، قال الفاروق : من هو ؟ فقال : سعد بن أبي وقاص .

فابتسم عمر وقال : لقد شرح الله صدري لهذا الاختيار ، وكان سعدٌ بعيدًا عن المدينة ، حيث كان عاملاً للخليفة على صدقات هوازن ، فأرسل من يستدعيه على ألا يتأخر لحظة واحدة ، لأن الأمر جد ، وسرعان ما حضر سعد ، فتلقاه عمر ، وقال له بعد أن فاتحه في أمر فارس :

يا سعد ، سعد بني وهب ، لا يغرنك من الله أن قيل عنك : خالُ رسول الله ، وصاحب رسول الله فإن الله عز وجل لا يمحو السيئ بالسيئ ، ولكن يمحو السيئ بالحسن ، وليس بين الله وبين أحد نسب إلا طاعته ، فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء ، والله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ، ويدركون ما عنده بالطاعة ، فانظر الأمر الذي رأيت عليه رسول الله ﷺ ، منذ بُعث إلى أن فارقنا ، فالزمه ، فإنه الأمر ، هذه عظتي ، فإن

تركتها وعدلت عنها حبط عملك ، وكنت من الخاسرين .

ثم تركه يومًا يستريح ، ويستجمع أمره ، ويختار معه من يثق فيه من أبطال الحرب ، ورجال المشورة ، وقضى سعدٌ ليلة يدبر الأمر ويستشير الله فيمن يأخذ ومن يدع ، وانبلج الصبح وهو لم يذق النوم ، لأن عظم المسئولية الخطيرة قد تجسد أمام عينيه ، فلما أصبح الصباح بادر بالاتصال بأمير المؤمنين ، وذكر له بعض من يريد اصطحابه من خيار المقاتلين ، فنفذ أمره كما أراد ، وتواضع سعد لله فطلب من أمير المؤمنين حين هم الجيش بالمسير أن ينصحه وينصح الجنود معه ، ففكر عمر ثم قال :

يا سعد إني وليتك العراق ، فاحفظ وصيتي ، فإنك تقدم على أمرٍ شديد كربُه ، لا تخلص منه إلا بالحق ، فعود نفسك ومن معك الخير ، واستفتح به ، واعلم أن لكل شيء عتادًا ، وعتاد الخير الصبر ، فالصبر الصبر على ما أصابك أوْ نَابَك ، لتجتمع لك خشية الله ، واعلم أن خشية الله تجتمع في أمرين ، هما طاعته واجتناب معاصيه ، فمن أطاعه بغضه الله في الدنيا ، وحببه في الآخرة ، ومن عصاه كان على الضد من ذلك ، فتحبب إلى الله ، ولا تزهد في التحبب إليه وحده ، فإن الله إذا أحب عبدًا حببه إليه ، فاعتبرْ منزلتك من الله بمنزلتك لدى كرام الناس فهم ألسنة الحق ، والله موفقك وراعيك » .

علم يزدجرد كِسرى الفرس أن جيشًا كبيرًا زحف من المدينة

ليقاتله في عقر داره ، فاجتمع بقواده ، وقال لهم : إن سبب هزيمة الحيرة والأنبار أنكم استخففتم بالعرب ، وظننتموهم بداة جفاة شُرَّدًا لا يتقنون فنون القتال ، وقد كان ذلك قبل أن يبعث فيهم نبي جَمَعَ شَمْلَهم ، وحدد لهم غايتهم ، ورصد الجنة جزاء لمن استشهد في سبيل دينه ، فأصبحوا قادة الجيوش وأرباب الفتوح ، وحديث الروم في اندحارهم أمامهم مثل شاهد لما نقول . فقد كنا في حروب الروم نعاني الأهوال ، ونعدهم جبابرة الحرب ، فإذا كانوا قد انهزموا أمام العرب ، فالأمر خطير خطير ، ثم توجه إلى رستم أكبر قواده ، وقال له : أنت رجل فارس اليوم ، ولا بطل لها سواك ، وكان رستم يهاب لقاء العرب ، ويضمر ذلك في نفسه دون أن يصرح به ، فقال له : إن ما تحدثت به عن العرب مبالغ فيه ، ولا يزالون كما عهدنا بداة يهابون العجم ، وسأظل معك أعينك بالرأي ، ونرسل من خيرة الجنود من سيستأصلهم ، فلا يملكون غير النكوص ! فهاج يزدجرد ، وقال : الرأي ما أراه ، وأنا مصمم على أن تكون على رأس الجيش ، وتختار من القواد من يرأسون الكتائب ، تحت لوائك ولا مفر من ذلك ، ووافق المجتمعون يزدجرد ودعوا رستم إلى تسلم القيادة فقبل مكرها .

وقد أراد سعد أن يرهب كسرى بالدعاية قبل المعركة ، فاختار وافدًا من كبار رجاله ، كلهم عظيم في رأيه وفي شجاعته ، وقدموا إلى كسرى يخبرونه بما بعث به قائدهم سعد ، وواجههم رستم فطلب أن يبلغوه ما لديهم وأن يقوم هو بإبلاغه إلى كسرى ،

فأبو وأصروا على لقائه ، وجاء الأمر إلى يزدجرد فحبسهم أمدًا غير قصير على الباب ، ظنًا أن ذلك يوقع الرهبة في صدورهم حين يرون عزة الإيوان ، وجبروت السلطان وحجاب كسرى ، وقد وقفوا صفوفًا في أيديهم السيوف والرماح ، ثم أحضر الترجمان ، وجلس كسرى على العرش متأففًا ثم بادأهم بقوله : ماذا أتى بكم من بلادكم ؟ ألأننا تشاغلنا عنكم بعض الوقت ظننتم لديكم قوة وجسارة ! فقال النعمان بن مقرن بعد أن استأذن رفاقه في أن يكون صاحب القول : إن ديننا أيها الملك قد أحل الحلال وحرم الحرام ، وحسن الحسن ، وقبح القبيح ، ونحن ندعوكم إليه ، فإن أبيتم فعليكم الجزية ، وإن قبلتم خلفنا فيكم كتاب الله على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم ، فاغتاظ كسرى وتكلم بكلام قبيح كله ذم للعرب واستخفاف بهم ، واستدعى بوقرٍ من التراب كي يحمله رئيس الوفد على رأسه استهزاءًا به ، وقال : لولا أن قتل الرسل مما لم نعتده ، لقتلتكم على جراءتكم الكاذبة ، وسأرسل لكم رستم ليدفنكم جميعًا في خندق القادسية فتقدم عاصم بن عمرو ، وقال : أنا سيد هؤلاء وسأحمل التراب وخرج الوفد وكسرى حائر يضرب كفا بكف .

خرج القوم فبلغوا سعدًا ما كان من أمر كسرى ، فقال : لقد تصورت في نفسي كل ما قيل ، وكأني كنت حاضرًا بينكم ، أما يزدجرد فقد أقلقه ما سمع من الوفد الإسلامي وإن أظهر أمامه الاستخفاف به ، ودعا رستم قائده ، وقال : هؤلاء وهبوا

أرواحهم للقتال ، وهي أرخص لديهم من أحقر متاع ، وليس لدينا جيشٌ يحمل هذه الثقة ، وأحب أن أعيد الكرة معهم ، ولكن على ألا أقابلهم ، فيظنوا تصنعًا لدي ، وتأخذهم الغرة أكثر مما أخذتهم من قبل ، فلتقم أنت باستدعاء وفدٍ غير الذين قابلتهم ، واكتب إلى قائدهم بذلك ، مخبرًا أنك قائد الجيش ، ولا صلة لي بموضوع اللقاء ، وأغلظ لهم في القول ما استطعت ، وذكرهم بعز فارس وذل العرب من قبل ، وكُن حاسمًا قاطعًا بحيث لا يظهر منك غير الاستعلاء والثقة وعسى أن يسفر مسعاك عن ذهاب هؤلاء عنا بما يريدون من المال دون أن نجازف بحربٍ لو دارت علينا دائرتها فليس لنا مكان في الأرض ، بل إن من يطيعنا من الأحلاف سيكونون أول الناشزين ، ورستم في أعماقه خائفٌ يترقب ، ويود ألا تنشب حربٌ يصطلي بنارها ويكونُ أول ضحية لها ، فسر باقتراح كسرى ، وبعث إلى سعد يطلب وفدًا آخر غير الذي اتجه إلى كسرى ، فقد يجد من الأمر في مجال التشاور ما يرأب الصدع ، وتفرس سعد في أصحابه فرأى المغيرة ابن شعبة صاحب الموقف ، فبعثه به ، وقد فهم رسالته حق الفهم ، فأقبل شامخًا يسير ، وله أربع ضفائر دارت حول رأسه فأورثته مهابة ، ثم تقدم إلى سرير رستم ووساده ، فجلس عليه غير هياب ، فهاج عليه نفرٌ من الحجاب ، وقالوا : هذا مجلس القائد ، ولن ترقى إلى مستواه ، فانتهزها المغيرة فرصة سانحة ، وقال : كانت تبلغنا عنكم الأحلام الراسخة ، ولكني

أرى الآن قومًا يستعبدهم رؤساؤهم ، ويتخذونهم أربابًا من دون الله ، نحن في الإسلام سواءٌ لا يتميز القائد عن المقود بمجلس أو ملبس أو مأكل ، وأنا لم آت إليكم ولكنكم دعوتموني ، فكان الواجب أن يحفظ لي مكان الزائر ، وقد علمت الآن أن ملككم مضمحل ، إذ يفرق بين السادة والرعية ، ولا يرى الجميع أمام الله والناس سواء .

وحضر رستم وعرف ما كان ، وقد أراد أن ينفذ كلام يزدجرد بأقسى ما يكون من القول ليرهب المغيرة فقال : إنه لم تكن لدينا أمةٌ أصغر شأنا من العرب ، لا نراكم شيئًا ولا نعدكم أناسًا ، وكنتم إذا قحطت أرضكم وأصابكم الجوع استغثتم بنا ، فنأمر لكم بالتمر والشعير ثم نردكم ، وقد علمت أنه ما دفعكم إلى الحرب إلا ما أصابكم من الجوع والجهد في بلادكم ، لذلك فأنا آمر لأميركم بكسوة وبغلٍ وألف درهم ، وآمر لكلٍ رجل منكم بوقر من التمر وبثوبين وتنصرفون عنا .

فتكلم المغيرة كلامًا اعترف فيه بما كان من تفرق العرب قبل الإسلام ، ثم بما من الله به من العزة منذ جاء محمد بدينه الحنيف ثم شاء إغاظته فقال له : إن احتجت إلينا كي نمنعك فكن لنا عبدًا تؤدي الجزية عن يد وأنت صاغر فاشتاط رستم غيظًا ، وقال في حدة : لن يرتفع الصباح حتى أقتلكم أجمعين ، ثم راجع رستم نفسه ، فبعث يطلب سفيرًا آخر يكون لديه حسن القول ،

وأجيب إلى طلبه ، فكان السفير أنكى وأوجع ، وكشف الشر عن نابه فلم تكن إلا الحرب .

وحين التقى الفريقان سأل رستم : أتعبرون إلينا النهر ، أم نعبر إليكم ؟ فقال سعد : بل اعبروا أنتم ، وحين تم العبور جلس رستم على سريره ، وعبأ في القلب ثمانية عشر فيلاً عليها الصناديق والرجال ، وجعل الجالنوس على ميمنته ، والبيرزان على ميسرته ، وكان سعدٌ مريضًا لا يستطيع أن يركب لجروح مستعصية في فخذه ، فأشرف على الناس من القصر ، وصار يرمي بالرقاع تحمل أوامره ، وعجب بعض المسلمين وأنكر ، فلما تبينوا المرض في جسمه عذروه ، وقبل أن تبدأ الحرب أرسل ذوي الرأي من الرؤساء والأبطال إلى كتائب الجيش يثبتونهم ، ويتلون آيات من سورة الأنفال ، فخطب خطباؤهم بما فيه الكفاية تحميسًا وحضًا ، ثم قال سعد : لا تبدءوا حتى نصلي الظهر ، وسأكبر بعدها أربع تكبيرات لتأخذوا العدة في الثلاثة الأولى ، ثم تهجمون عند الرابعة ، وكان الأمر كما قدر ، ولكن المسلمين فوجئوا بالفيلة تقتحم عليهم الميدان ولا عهد لهم بها ففرقت كتائب المجاهدين وساد الذعر ، وفرت الخيل نافرة منها ، ولولا أن ثبت المشاة والرجالة لحلت الهزيمة ، ورأى سعد من شرفة القصر ما راعه ، فأعان المقاتلين ببني أسد ، فتقدموا إلى الميدان وجعلت خيولهم تحجم خوف الفيلة ، فأرسل سعد إلى بني

تميم ، وقال : أوجدوا لنا حيلة في إرهاب الفيلة ، ففكروا في طعن راكبيها بالرماح ، ورشقهم بالسهام ليسقطوا صرعى ، وجاءوا من خلف الفيلة فقطعوا حبالها بسيوفهم وقطعوا أذنابها ، فارتاعت الفيلة وشردت من الميدان ، وقتل أصحابها ، وجاهد بنو أسد جهاد الأبطال حتى غربت الشمس ، وأصيب منهم في هذه المعركة خمسمائة شهيد ، وكانوا ردءًا للناس .

وحل الظلام ، فوقفت الحرب ، وأخذ المسلمون أنفاسهم ليفكروا في موقعة الغد ، وماذا سيصنعون مع الفيلة .

وفي هذا اليوم ظهرت بطولة نادرة هي بطولة أبو محجن الثقفي وهذا بعض حديثه :

حديث أبي محجن

كان أبو محجن محبوسًا في أسفل القصر ـ قصر سعد بن أبي وقاص ـ فسمع ضجيج الحرب ، ووقع الحديد وشدة البأس ، فجعل يحبو حتى صعد إلى سعد ، وطلب منه أن يخلي عنه ليشترك في القتال ، فزجره ، ولكن الحمية كانت تغلي في صدره ، فذهب إلى سلمى بنت حفصة وهي زوجة سعد ، فقال لها : هل لك في خير ؟ فقالت : وما ذاك ؟ قال : تعيرنني البلقاء فرس سعد ، ولله علي إن سلمني الله أن أرجع إليك وأضع قدمي في القيد ، فقالت : وما أنا وذلك ، فرجع إلى محبسه وجعل يصرخ بأبيات قال فيها :

كفى حزنًا أن تردى الخيل بالقنا وأترك مشدودًا علىّ وثاقيا

إذا قُمتُ عناني الحديد وأغلقت مصاريع من دوني تصم المناديا

فرق له قلب سلمى ، وقالت : إني استخرت الله ، ورضيت بعهدك ، وأطلقته ، فذهب إلى البلقاء (فرس سعد) واقتادها وأخرجها من باب القصر ، وركبها وانطلق حتى إذا كان بجبال ميمنة المسلمين كبر ، ثم حمل على ميسرة الفرس يفتك برمحه وسيفه فأوقف مسيرتهم وقتل كثيرين من قتلاهم ، ثم غاص في المسلمين واتجه إلى ميمنة العدو فأوقفهم ، وأخذ يجندلهم بسيفه ورمحه ، لا يبدو له فارس إلا صرعه ، وأخذ يدور بين الميسرة والميمنة مقاتلاً حتى حانت الفرصة فاقتحم القلب وحمل على من به ، والمسلمون يتعجبون ويتساءلون من هذا الذي لا نعرفه من قبل ؟ ويقول بعضهم : لولا أن الملائكة لا تباشر الحروب لكان هذا ملكًا ، وأخذ أبطال المسلمين من أمثال عمرو بن معدي كرب الزبيدي وطلحة والقعقاع بن عمرو يتعجون ، وجعل سعد ينظر إلى البطل ، ويقول : لولا أن أبا محجن محبوس في أسفل القصر لقلت إنه هو ، وهذه البلقاء فرسي ، فلما انتصف الليل وتحاجز الناس رجع أبو محجن إلى قيده ، وربط البلقاء كما كانت ، وسلمى تشهده معجبة ، وقد عرفت بلاءه الصادق ، فقالت : يا أبا محجن ، في أي شيء حبسك سعد ؟ فقال : والله ما حبسني بحرام أكلته أو شربته ، ولكنني كنت صاحب شراب في الجاهلية ،

وأنا امرؤ شاعر يدب القول على لساني فأصف الخمرة ، وتداخلني أريحية فألتذ بوصفها ، فذلك حبي ، ثم أخبرت سعدًا بحديثها مع أبي محجن ، فدعا به وأطلقه ، وقال : لا أؤاخذك بالقول حتى تفعل ، فقال أبو محجن : والله لا أجيب لساني إلى صفة شيء قبيح بعد الآن .

وكانت سلمى زوجة سعد حين دار القتال قد شاهدت هجوم الفيلة ، وانكسار المسلمين ، فأخذت تصرخ وامثناه ، ولا مثنى للخيل بعد اليوم ، والمثنى كان زوجها ، وقد قتل فأوصاها بوصايا حربية في يومه الأخير ، وأمر أن تحملها إلى سعد كي يقوم بها ، فإنها وليدة تجربة لا يعرفها غير من اصطلى بحرب الفرس من قبل ، ففعلت ، ورأى سعد جزالة رأيها ، وشدة بلائها ، فعرض عليها الزواج فأجابت ، أقول حين سمع سعد صراخها ، دعاها غاضبًا ، وقال لها : ألا ترين ما نزل بجسمي من البلاء ، قالت : ولكني تذكرت بطلاً يفر نظيره الآن ، وانطلقت إلى الميدان تثير الحمية في نفوس الأبطال كعهدها أيام المثنى ، فحمستهم ذكرى البطل الباسل ، واندفعوا إلى القتال ، وقد طال الليل على سعد وهو يفكر في معركة الغد ، وقد وكل رجالاً من المسلمين ينقلون الشهداء من الميدان إلى حُفَرٍ قريبة ، ووكل جماعة من النساء بمداواة الجرحى ، وطلع الصباح ولم ينشب القتال ، والمسلمون حائرون لا يدرون ميعاد الزحف ، ولكن طلائع

الجيش الذي أتى من الشام لنصرة المسلمين ، وعدده ستة آلاف قد بعثت الأمل في النفوس ، وعلم القعقاع بن عمرو التميمي ما كان من أمر الفرس بالأمس ، فأراد أن يوقع في نفوسهم الرعب ، فجعل يقسم المجاهدين أعشارًا ، وهم ألف ممن كانوا في حوزته ، وصفهم في صفوفٍ عرضية ليظن الفرس أن وراءهم العدد الكثير ، ثم خطب القوم محمسًا ، وتقدم إلى الميدان فافتتح المعركة حين نادى من يبارز ؟ فبرز إليه رجلٌ من الفرس ، فحمل عليه وهو يقول : يا لتارات المسلمين ، وتصارعا فقتله القعقاع ، ثم نادى من يبارز ؟ فتقدم إليه رجلان ، ثبت لرجل فقتله ، وثبت الحارث بن ظبيان للرجل الثاني فجندله ، وهنا احتدمت المعركة إذ رأى الفرس ثلاثةً من الأبطال يصرعون ، والقعقاع واقف يهدد ، ومن حسن الحظ أن الفيلة لم تأت هذا اليوم نظرًا لما مر بها من جراح اليوم الماضي ، ونشط المسلمون نشاطًا قلب الكفة ، إذ بعد أن كان الأمس يوحي بالتعادل كاد اليوم بشيرًا بالنصر المؤزر ؟ ثم جاء اليوم الثالث والحماسة على أشدها ، وقد قدمت بقية جيش الشام بقيادة هشام بن عتبة بن أبي وقاص فعلموا ما كان من أمر القتال في اليومين السابقين ، وعبأ هشام جيشه سبعين سبعين ، حتى إذا بدأت المعركة كثر المسلمون وأبلى هشام والقعقاع أحسن البلاء ، وكانت الفيلة قد أخذت حظها من الراحة في اليوم الماضي ، وحضرت في اليوم الثالث ، فتوجه إليها القعقاع بسيفه وكان يضرب الخرطوم بعزمة قوية فيصرخ الفيل

ويهم هاربًا ، ثم إن سعدًا واعد المسلمين أن يكبر ثلاثًا ، فلما كبر في المرة الأولى تقدمت (أسد) وكانت صاحبة البلاء الأكبر في اليومين السابقين ، ثم كبر الثانية فتقدمت النخع ، وكبر الثالثة فتقدمت بجيلة وكنده ولاحق الناس بعضهم بعضًا ، وكان صليل الحديد يصوبه في الأسوار عند القيومة ، واتصل الحرب بعد المساء في ظلمات الليل ، ورأى الفريقان من الأهوال ما لم يُعرف من قبل ، وسعدٌ يبعث ببصره في الظلام ليرى أين ترجح الكفة ! ولم يعرف من الظافر من الخاسر حتى أشرق الصباح فبدت بشائر النصر ، ولكن القعقاع لم ينخدع ، فقال لزملائه : اصبروا ساعةً وأنا في مقدمتكم ولا تكونوا أقل حمية من هؤلاء ، وأشار إلى الفرس ، وجعل همه أن يصطاد الرؤساء من أمثال رستم والفيرزان والهرمزان ، وقال لصحابه : إذا سقط هؤلاء سيتفرق القوم ، ووافق عمرو بن معدي كرب ، وهشام بن عتبة ، وعاصم بن عمرو ، وقيس بن مشكوح على ما ارتآه القعقاع ، ثم هبت ريح عاصفة قلبت مركبة رستم في (العتيق) فهمّ به القعقاع حين رأى السرير مائلاً ، وقد ظنه فيه فلم يجده ، فأرسل هلال بن علقمة للبحث عنه ، فوجده مختبئًا تحت ستارة ، فهجم عليه وصرعه ، فصاح بالناس : قتلت رستم ، وفزع الفرس وصاح الجالينوس عليهم ليعبروا العقيق ، وكان أكثرهم مقيدًا بالسلاسل كي لا يهربوا ، فسقطوا في العتيق ، وهو النهر الذي كان فاصلاً بين الجيشين قبل الالتحام ، واستولى ضرار بن

الخطاب على علم الفرس ، وحمله ذاهبًا به إلى سعد فكان بشير النصر ، وطارت البشارة إلى عمر بن الخطاب بالمدينة ، وكان قلقًا يخرج إلى الضواحي لعله يجد قادمًا يبشره ، فلما جاء البشير سأله عمر فلم يجبه ظنًا منه أنه أحد الرعية وجعل يعدو ، وعمر يجري من خلفه ، حتى إذا بلغ أول منزل سأل أين أمير المؤمنين ، فقالوا له : هو خلفك يجري وأنت لا تنتظره ، فاعتذر إليه ، وبلغه رسالة سعد ، فجمع الخليفة الناس ، وخطبهم في المسجد وكان اليوم من أسعد الأيام لدى أهل المدينة ، إذ لم يكونوا يتوقعون أن يأتي النصر الحاسم على هذا الوجه السريع ، وقرأ عليهم رسالة سعد وفيها يقول : « أما بعد ، فإن الله قد نصرنا على أهل فارس ، ومنحهم سنن من كان من قبلهم من أهل دينهم ، بعد قتال طويل ، وزلزال شديد ، وقد لقوا المسلمين بعدة لم ير الراءون مثلها ، فلم ينفعْهم الله بذلك ، بل سَلَبَهُمْ إياها ، ونَفَلَهَا المسلمون ، وأتبعهم المسلمون على الأنهار ، وأصيب منهم كثيرون ممن لا نعلمهم ، والله بهم عالم ، كانوا يُدَوُّون بالقرآن ، إذا جَنَّ عليهم الليل دويَّ النحل ، وهم آسادُ الناس ، بل لا يُشبههم الأسود ، ولم يَفْضُلْ مَنْ مضى منهم مَنْ بقي إلا بفضل الشهادة ، وهم أحياء عند ربهم يرزقون » .

هذا وقد كانت الغنائم كثيرة ، تُعَدُّ شيئًا هائلاً من ذهب وفضة وحيوان ونساء وأكسية ، فلما وصلت إلى عمر بن الخطاب

بكى بكاء مرًا ، وقال : ما أعطى الله قومًا هذا إلا تباغضوا وتحاسدوا ، ولا تباغضوا وتحاسدوا إلا جعل الله بأسهم بينهم شديدًا .

وحين رأى كثيرٌ من الفرس نصر المسلمين ، تقدموا إلى سعد يطلبون المهادنة ، وأن يكونوا مع المسلمين فيما يأمرون ، وقد أسلم جند كثير ، فأصبحوا أعوانًا في الجيش الإسلامي ، ومن لم يُسلم عومل معاملة أهل الذمة من الكتابيين تنفيذًا لأمر عمر ، حيث كان يعامل المجوس معاملة اليهود والنصارى مستندًا إلى حديث رواه عبد الرحمن بن عوف عن رسول الله : إذ قال عن المجوس : « سنوا بهم سنة أهل الكتاب » .

وبعد هذا النصر المؤزر العظيم في القادسية أرسل سعد إلى عمر بن الخطاب يسأله ماذا يصنع ؟ فردّ عليه بأن يذهب إلى المدائن مقر البلاط الكسروي ، وأن يخلف النساء والجرحى والأطفال بالعتيق فلا يكونون معه على أن يفرض لهم حقهم في الغنائم ؛ لأنهم يحرسون متاع الجيش ، فتوجه الجيش إلى المدائن ، وفي الطريق قام قتال في برس ، إذ تجمعت فلول المنهزمين وكأنهم يريدون الثأر ، وكانت حالتهم المعنوية بالغة السوء فدمرهم المسلمون بعد كفاح لم يطل .. ثم عادوا الكرة في بابل فكانت الهزيمة أيضًا ، لأن النصر يتبع النصر ، وما زالوا يوالون النصر في معارك هزم فيها النخير خان والهرمزان بمن جمعاه من الفلول ،

ومازلوا يسيرون حتى بدت علائم الإيوان من بعيد فكبر المسلمون تكبيرةً ارتج لها الأفق ، وصاح ضرار بن الخطاب ، هذا إيوان كسرى ، هذا ما وعد الله ورسوله ، فسرت في المسلمين نشوة ؛ إذ ذكروا بشارة الرسول يوم الخندق حين ظنوا بأنفسهم الظنون أمام القبائل الزاحفة مع قريش لاقتحام المدينة ، فقال لهم الرسول : إنكم ستملكون الإيوان ! إيوان كسرى ، وهو رأي قوبل بالنفور من المنافقين ، حتى قال أحدهم : وكأنه يشمت بوضع المسلمين الحرج ، أيعدنا محمد أن نحتل إيوان كسرى ، وأحدنا الآن لا يأمن على نفسه ؟

وقد حكي المؤرخون أن فتح الإيوان كان عامل ثقةٍ لبعض المرتدين بالجزيرة ، حين رأوا البشائر تتحقق دون انتظار ، وفي وسط هذه المشاعر الحافلة بالثقة والانتصار ، نزل المسلمون على (بهر شير) وهي على شاطئ دجلة الغربي ، وتحصن العدو أمامهم فجعلوا يرمون القلاع بالمنجانيق ، وضيقوا عليها الحصار فاستسلمت ونزل المسلمون منازلها ، ثم رأوا أن ينهضوا إلى الإيوان وبينه وبينهم البحر ، وخافوا أن يطول الموقف بانتظار موسم الجزر فيتمكن يزدجرد من الفرار بكل ما يحوي الإيوان من ذخائر ، وإذ ذاك ظهر الفدائيون من المسلمين راكبين ظهور الخيل في ستمائة فارس على رأسهم عاصم بن عمر ، وهو صاحب بأس شديد كالقعقاع ، فاقتحمت الخيول دجلة ، واضطرب الفرس فساقوا خيولهم إلى الماء ودارت معركة بحرية

هائلة لا بالسفن والبوارج بل بالخيول ، وتحمس المسلمون على الشاطئ المقابل ، فأمر سعد بأن يركبوا الخيول ويتابعوا زملاءهم ليكونوا عونًا على النصر ، ولا تسل عن الحشد المتتابع ، وحين رأى الفرس المدد الجديد يتدافع أيقنوا بالهزيمة وآثروا الفرار ، وهكذا سهل اقتحام المدينة ، وتقدم سعد فصلى صلاة الشكر بالمسلمين داخل الإيوان ، وقرأ في الركعتين قول الله : ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَـٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴾ .

[الدخان:٢٥-٢٩]

وحين تراءت كنوز الذهب والفضة ، أظهر المسلمون عفة بالغة أمامها ، فما حاول أحد من المجاهدين أن يقتنص درة أو لؤلؤة أو عقدًا لنفسه ، يستأثر به دون أصحابه ، حتى قال سعد حين رأى الكنوز بين يديه دون أن يمس أحدهم منها شيئًا : والله إن الجيش لذو أمانة ، ولولا أن الله فضل أهل بدر على الناس لقلت إنهم وأهل بدر سواء .

وتابع الجيش إرسال قواده إلى البلاد الفارسية المختلفة فدارت وقائع منها الهين السهل ، ومنها الشديد الحار كمعركة جلولاء الشهيرة ، حيث كانت أعظم تجمع للفرس بعد القادسية ، وقد

قال يزدجرد للمقاتلين من جنوده : قد تكون هذه آخر معركة لنا ، فإن انتصرنا ارتد لنا الأمل ، وإن انهزمنا فقد بذلنا كل الجهد ، وكان قائد المعركة من المسلمين القعقاع بن عمرو التميمي في اثنى عشر ألفًا من الجنود ، ومعه وجوه الأنصار والمهاجرين وأعلام العرب ممن أسلموا بعد الفتح ، وأرادوا أن يؤدوا دورًا يعوضون به ما فاتهم على عهد رسول الله ، وقد طاولهم أهل فارس ، وجعلوا لا يخرجون من الحصون إلا إذا أرادوا ، والمسلمون يريدون معركة فاصلة تحسم الأمر على وجه السرعة ، وكان بينهم وبين الفرس خندق يحول دون الالتحام ، ورأوا أن يملئوا الطريق حول الخندق بالشوك والحسك لتعثر الأقدام فترتد عن القتال ، ولكن الحزم والعزم والإقدام من هاشم بن عتبة والقعقاع قد انتهى بالجنود إلى الحومة في سرعة عاجلة ، وقد صاح الصائحون من المتحمسين يا معشر المسلمين قد اقتحمنا الخندق فهيا ، ولم يكن قد اقتحم بعد ، ولكن ذلك كان تحميسًا للمقاتلين ، فتدافعوا إليه فوجدوا القعقاع قد وقف على الباب وضربه بيده فاندفع ، ودار القتال ، فكانت آخر معركة شهدتها الفرس بعد القادسية ، إذ قيل أنهم خسروا نحوًا من مائة ألف ، وتلا ذلك معارك أخرى في حلوان ، وتكريت والجزيرة يحتاج سردها إلى مجال آخر .

وبعد أن تم النصر أقام سعد بالمدائن مع المسلمين ، فلم

يتحملوا جوها ، وشكوا إلى عمر بن الخطاب ، فأمر سعدًا أن يرتاد منزلاً بريًا لا يفصل بينه وبين المسلمين بحر ، وقد وقع الاختيار على الكوفة فأعجبه مكانها ، فكانت مدينة المسلمين ، وعمرت بالسكان وأصبح سعدٌ واليًا عليها بأمر أمير المؤمنين ، وظل بها نحوًا من ثلاث سنوات ونصف ، وهو في أتم اليقظة يرعى شئون العامة ، ويثمر الأرض ، ويزرع الخراب ، وعمر بن الخطاب من ورائه يسأل عن حكمه وعن سيرته في الناس ، وقد وفد عليه البطل الشجاع عمرو بن معدي كرب الزبيدي فسأله : ما حال سعد ؟ فقال عمرو : هو الأسد في عرينه ، متواضعٌ في حياته ، عربي في بردته ، يعدل في القضية ، ويقسم بالسوية ، ويعطف علينا عطف الأم الرءوم ، وينقل إلينا حقنا نقل الذرة ، وعمروٌ شجاع الرأي والسيف ، لا يداهن ولا يماري ، وقد تحدث بما شهده فصدقه عمر عن فراسة وذكاء ، وبعد أمد دبت فيه الوشاية من بني أسد حول سعد ، رأى عمر أن يسكت هؤلاء فعزل سعدًا ، ثم بدا له أن يرده ثانية ، فأبى ، وقال : أتأمُرُ على قوم يفترون ؟ وظل عمر معتزًا به ، ولما طُعن وتحقق الوفاة جعل سعدًا بين الستة الذين رشحهم لخلافته ، فهو إذن منه في ركن حصين .

ونترك جهاده الحربي إلى نبذ من أخلاقه الكريمة فنقول :

كان سعد يمنع أن يتحدث عن رسول الله ﷺ ، فقد روت ابنته عائشة بنت سعد أنها قالت : سُئل سعد عن بعض

الأحاديث فاستعجم ولم يردّ ، فسئل في ذلك فقال : أخشى أن أحدثكم الحديث الواحد فتجعلوه مائة حديث ! وهذا يدل على شدة حرصه من ناحية ، وعلى ألمه لما يُفترى على رسول الله ﷺ من أقوال لم تصدر عنه ، وإذا كان ذلك مما حدث في عصر الصحابة فما ظنك بما جاء بعده ، حيث افترى الواضعون على رسول الله ﷺ كثيرًا من الكذب ، ولولا أن علماء الحديث وضعوا المقاييس الصحيحة للحديث المتواتر والحديث الصحيح وغيرهما لكان الناس في أمر مريج .

هذا بعض نظره الشديد إلى الحذر ، أما حقُّه لرعاية أقدار الناس فقد بلغ من ذلك المنزلة العالية ، فقد وقع بينه وبين خالد ابن الوليد ما يقع بين المتجاورين من خلاف ، فانتهز أحدهم فرصة هذا الخلاف ، وذهب إلى سعد يحاول أن يصف خالدا رضي الله عنه بما ليس فيه ، فقال له سعد : يا هذا ؟ فإن ما بيني وبين خالد لم يبلغ ديننا ، ومعنى هذه العبارة الدقيقة أن ما حصل بيني وبين خالد لا يوجب عليك أن تخالف أمر دينك فتقول عنه ما لا يليق ، فالدين حرز منيع ، يحول دون المسلم ، وتناول الأعراض ، وهو قولٌ لو فطن إليه الناس لأراحوا أنفسهم من بلاء كثير .

وقد قسم ما زاد عن أموال الغنائم يوم القادسية على حفظة كتاب الله عز وجل استجابة لأمر عمر بن الخطاب في ذلك ، وكان بينه وبين نفسه لا يستريح إلى منع المجاهدين من الزيادة ،

وقد أدوا بلاءهم الحميد في النصر ، فجاءه بشر بن ربيعة محتجًا ، وقال أبياتًا جاء فيها :

أنخت بباب القادسية ناقتي وسعدُ بن وقاص على أميرُ

تذكر هداك الله وقع سيوفنا بباب قُديس والمكر عسير

عشية ودّ القوم لو أن بعضهم يُعارُ جناحيْ طائر فيطير

فكتب سعد أبيات بشر إلى عمر رضي الله عنه ، فخالف ما كان عليه ، وكتب إليه أن يعطي المحاربين على قدر بلائهم ، فأعطى كل واحد ألفي درهم .

وقد اعتزل الفتنة حين شب القتال بين علي ومعارضيه ، ولزم بيته ، إذ تحاشى أن ينضم إلى فريق فيحارب مسلمًا في فريق آخر ، وأراد معاوية بدهائه أن يستميله إليه ، فكتب إليه خطابًا يقول فيه :

أما بعد ، فإن أحق الناس بنصرة عثمان أهل الشورى من قريش الذين أثبتوا حقه ، واختاروه على غيره ، ونصره طلحة والزبير ، وهما شريكان في الأمر ، ونظيراك في الإسلام ، وخفّتْ لذلك أم المؤمنين ، فلا تكره ما رضوا ، ولا ترد ما قالوا ، وإنما نريد أن نردها شورى بين المسلمين والسلام » .

فكتب إليه سعد يقول : « إن عمر لم يدخل في الشورى إلا من تحل له الخلافة ، ولم يكُنْ أحد أولى بها من صاحبه ، إلا باجتماعنا عليه ، غير أن عليًا كان فيه ما فينا ، ولم يكن فينا ما فيه ،

ولو لم يطلبها ولزم بيته لطلبته العرب ، ولو بأقصى اليمن ، وهذا الأمر قد كرهنا أوله ، وكرهنا آخره ، وأما طلحة والزبير ، فلو لزما بيوتهما لكان خيرًا لهما ، وأما عائشة فليغفر الله لها ما أتت » .

وهذا جوابٌ مفحم لو أنصت إليه معاوية لأراح من شر كثير .. وحين تم الأمر لمعاوية دخل عليه ، فقال : السلام عليك أيها الملك ، فضحك معاوية ، ما كان عليك يا أبا إسحاق أن تقول : يا أمير المؤمنين . فقال : أتقولها جذلان ضاحكًا ، والله ما أحب أني وليتها بما وليتها به !

ومما ينضم إلى ما سبق ، ما رواه عامر بن سعد أن سعدًا سمع رجلاً يسب عليًا وطلحة والزبير ، فنهاه فلم ينته ، فقال له : إذن أدعو عليك ، فقال الرجل : أراك تهددني كأنك نبي ، فانصرف سعد ، وتوضأ وصلى ركعتين ، وقال : اللهم إن كنت تعلم أن هذا الرجل قد سب أقوامًا سبقت لهم الحسنى ، وأنه قد اسخطك بتهم ، فاجعله آية وعبرة !

وقد أجيبت دعوة سعد ، إذ شردت ناقةٌ من إحدى الدور ، ولا يردها شيء حتى دخلت في زحام الناس ، واعترضت الرجل فأخذته بين قوائمها وما زالت تجرجره حتى لفظ أنفاسه ، وقد يكون هذا قدرًا ، ولكنه حق وقع .

وفي حجة الوداع ، كان بمكة مع رسول الله ﷺ وأصابه المرض ، وجاء رسول الله يعوده ، فقال : يا رسول الله إني ذو

مال ، ولا يرثني غير ابنة ، كان حينئذ لم ينجب أولادًا غيرها ، أفأتصدق بثلثي مالي ؟ فقال النبي : « لا » ، فقال : أبنصفه ، قال النبي : « لا » ، قال : فبثلثه ، قال : « نعم ، والثلث كثير ، إنك إن تذر ورثتك أغنياء ، خير لهم من أن تذرهم عالة يتكففون الناس ، وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله : إلا أُجرت بها ، حتى اللقمة تضعها في فم امرأتك » .

وحين توفاه الله في سن الخامسة والسبعين على قول ، والثمانين على قول آخر ، كان قد أعد قبل ذلك جبةً من صوف ، وقال لأولاده : إذا دنا أجلي ، فكفنوني بها ، فقد لاقيت بها المشركين يوم بدر ، واحتفظت بها منذ هذا الأمر ، لتكون معي في القبر ، ثم حُمل عقب وفاته من منزله بالعقيق حتى أتى به إلى مسجد رسول الله ، فوضع أمام بيوت النبي بفناء الحجر وصلى عليه مروان بن الحكم والي المدينة ، ودفن بالبقيع .

هذا قليل مما يقال عن سعد ! أما الكثير فقد حفظته صحف التاريخ !

*****

الزبير بن العوام

أما والده فهو العوام بن خويلد يجتمع نسبه مع النبي ﷺ في قصي ، وأما والدته فذات تاريخ مجيد في الجهاد ، إذ هي صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ .

وصفية بنت عبد المطلب كانت شديدة الحب لأسرتها الهاشمية ، ولما مات أخوها الأكبر الزبير بن عبد المطلب ، وقد خلف والده في زعامة بني هاشم ، حزنت عليه صفية وأرادت تخليد ذكره فسمت وليدها « الزبير » ورجت أن يكون مثله همامةً ومروءة ، وقد زاد عليه لأنه شرف بالإسلام كما شرفت به أمه !

وإذا كان الزبير قد اشتهر بالشجاعة في اقتحام الحصون المنيعة ، وتسلق الأسوار الشامخة ، ومنازلة العدو في مواقف الشدة ، فإن أثر صفية بنت عبد المطلب كان واضح الأثر في تكوينه ، إذ يروى المؤرخون عنها أكثر من موقف في مضمار الشجاعة الباسلة ، ومن حديثها في ذلك أن رسول الله ﷺ يوم الأحزاب ، خاف على النسوة والصبيان أن تقتحم عليهم المدينة فيتعرضوا لبطش المشركين ، فجمعهم في حصن بني حارثة ، وهو أمنعُ من أن يقتحم ، واعتصم معهم حسان بن ثابت ، لأنه لا يحب مشاهد القتال ، فبينما كانت صفية بنت عبد المطلب تشرف على الحصن

من أعلاه متفقدة ما حوله ومن حوله ، أبصرت فارسًا يهوديًا يطوف بالحصن وفي وجهه علائم الغدر ، فخشيت أن يقتحمه أو يدل عليه ، فسارعت لحسان بن ثابت ، وقالت له : يا حسان : هذا العدو يطوف بالحصن وما آمن أن يقتحمه بسلاحه ومعه جماعةٌ من خلفه ، أو يدل علينا ، ورسول الله في أتون المعركة لا يدري ما نتعرض له ، فانزل إليه وقاتله ، فقال حسان : يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب ، ما أنا برجل قتال ، حتى يئست منه فاعتمت بثوبها ، وأخذت عمودًا من حديد ، ونزلت إليه ومعه سلاحه وسيفه ، فنازلته وقتلته ، ثم رجعت تقول لحسان ، قم فاسلبه ، فما يمنعني من سلبه إلا أنني امرأة وهو رجل ، فقال : يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب ، مالي حاجة في سلبه ، فأخذت تتعجب منه !

في كنف هذه المرأة الباسلة تربى الزبير فنشأ جسورًا مقدامًا ، بل تربى ولده عبد الله بن الزبير فكان من شجعان المسلمين وعقدت له الخلافة على العراقيين عدة سنوات !

وقد شرف بالإسلام بدعاية أبي بكر ، إذ أن الصديق توسم فيه النجابة والشجاعة ، وهو ابن خمس عشرة سنة ، فشرح له مبادئ الإسلام ، وضمه إلى الصفوة السابقين من رعيل الإسلام الأول ، فأخذ يعلن إسلامه دون تهيب ، واغتاظ عمه المشرك من إقدامه على الدين الجديد وعدَّ ذلك إهانةً للأسرة فجمع من حوله من احتاطوا بالزبير ولفوه في حصيرٍ ، وأخذ يدخن عليه

بالنار كي يزهق أنفاسه ، ولكن الله نجاه منه ، إذ تخلص من الحصير بقوةٍ خارقة أمدها الله بها ، ونهض ليعلن مقاومته حتى يئس منه عمه فرجع مخذولاً ، وبذلك نعلم أن الاضطهاد لم يكن وقفًا على المستضعفين من أمثال بلال وعمار ، وخباب ، بل امتد إلى شباب الأسر الكريمة ، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما استكانوا !

وقد ظل الزبير موضع ثقة رسول الله ومكان رعايته وتقديره ، ومن مواقفه الخالدة التي جعلته أول من حمل سيفًا للقتال من المسلمين ، أنه سمع ذات صباح أن رسول الله بمكة قد قتل ، وأن أحد المشركين تربص به فأصابه ، فحمل سيفه لساعته ، وصمم على أن يثأر له بقتل كل من يعترض سبيله ، ولكن أحد رفاقه من المسلمين أخبره بكذب الفرية ، فتوجه من فوره إلى رسول الله ليطمئن على سلامته ، وكان الرسول بأعلى مكة ، لا يعلم شيئًا عن هذه الأكذوبة ، فقال للزبير حين رآه ممتشقًا سيفه : ما يدعوك إلى ذلك يا زبير ، فقص عليه ما كان ، فدعا له ولسيفه . فكان الزبير أول من حمل سيفًا للقتال في الإسلام .

ثم هاجر إلى الحبشة مرتين بأمر رسول الله ، واستأذن والدته فشجعته ، وقالت له : أنت مُسلم فافعل ما بدا لك ، ولن يخذلك الله ، ثم لما سنحت مناسبة الهجرة كان في طليعة المهاجرين وهاجرت أمه معه ، وأبدى من مظاهر الفداء والفروسية ما نال به إعجاب رسول الله ﷺ حتى قال له في بعض مواقعه : « فداك

أبي وأمي » وهي تحية نبوية لم يقلها رسول الله لغير الزبير .

وحين استعد المسلمون لملاقاة المشركين ببدر ، كان الرسول ﷺ في حاجة إلى أن يعلم عدد المشركين الذين نفروا لقتاله ، حتى يأخذ أهبته ، فاختار ابن عمه علي بن أبي طالب وابن عمته الزبير ، كي يستطلعا الأمر في رحلة سرية عاجلة ، فخفا للأمر ، ووجدا في الطريق غلامين لبعض سادة قريش ، فاستخبراهما عن العدد ، فلم يكن لديهما إجابة ، فصحباهما إلى رسول الله ، فسألهما في هدوء : كم عدد القوم ؟ فقالا : هم وراء الكثيب ، ولم نعرف مقدار الجمع ، فسكت الرسول قليلاً ثم قال : كم ينحرون من الإبل ؟ فقالا : ما بين تسعة وعشرة في اليوم الواحد ، فقال رسول الله : هم ما بين التسعمائة والألف ! وطلب من أصحابه أن يستعدوا ، وقال كلمته الشهيرة : « هذه مكة رمتكم بأفلاذ أكبادها » ، ودارت المعركة فكان الزبير في طليعة المناضلين ، وقد جعل مكانه قريبًا من مكان رسول الله ليفتديه بنفسه إذا حدث مكروه .

وكأن نجاح علي بن أبي طالب والزبير بن العوام ، قد رشحهما للاستخبار الدائم ، والاستطلاع الدقيق ، حين يحتاج الأمر إلى معلومات صحيحة ، وأظهر ما كان ذلك يوم الأحزاب ، فقد تجمعت قبائل العرب بقيادة قريش لغزو المسلمين ، واقتحام المدينة بعددٍ هائل لا قبل للمسلمين به ، وظنوا أنهم بهذا الجمع الكثيف سيقضون على الإسلام نهائيًا في موطنه الآمن بالمدينة ،

إذ بذلوا قصارى وسعهم في جمع الجيوش من كل فج ، وفي إعداد السلاح المتنوع ذي البطش القاتل ، فكانت قريش في أربعة آلاف مقاتل ومعها ثلاثمائة فرس وألف بعير ، وغطفان في ألف فارس مسلح ، وبنو مرة في أربعمائة ، وبنو سليم في سبعمائة ، وبنو أسد في نظير ذلك العدد ! وأرادوا أن يحكموا الخطة فاتصلوا ببني قريظة داخل المدينة ليكونوا معهم في إحكام الحصار ، وشدة بلائه ! وقد وقف الخندق حائلاً دون الهجوم المنتظر ، واقتصرت المعركة أولاً على التراشق بالنبال ، ثم حصلت المبارزة حين تصدى علي بن أبي طالب لعمرو بن ود فقتله ، وعمرو بن ود يومئذ أشجع فرسان المشركين قاطبة ، وكان قد تأخر عن موقعة بدر ، فعيره النساء بمكة ، وقلن له : ماذا نصنع بشجاعتك وحماسك وقد تركت أصحابك ينهزمون في بدر ، فجاء متحفزًا للهجوم ، ومكفرًا عما وقع فيه من التقهقر ، وقد استهزأ بعلي حين طلب منازلته ، وقال له : يا ابن أخي أنت صغير ، ولا أريد أن أقتلك ، فقال علي : ولكني أريد أن أقتلك فحمي الغضب في نفسه ، وبدأت المبارزة الصعبة وقد انتهت بمصرع عمرو ، فنزل بالمشركين من الحزن ما أشعل الحقد في الصدور ، وكبر المسلمون مهللين ، هنا فكر الرسول في أمر بني قريظه لأنهم بالتحامهم بالمسلمين في المدينة مصدر خطر كثير فأرسل إليهم الزبير بن العوام يستطلع خبيئة أسرارهم ، فرأى الشر باديًا في أفواههم ونفوسهم ، فعلم أنه الغدر ، وكان الزبير يروح ويغدو عليهم آملاً أن يثنيهم عما اعتزموه فلم يرجعوا عن الغى ، وذكروا

رسول الله ﷺ بأسوأ ما يذكر به إنسان .

روي البخاري في صحيحه : قال النبي ﷺ يوم الأحزاب : « من يأتينا بخبر القوم ، فقال الزبير : أنا ، ثم قال : « من يأتينا بخبر القوم ؟ » فقال الزبير : أنا ، ثم قال الرسول : « من يأتينا بخبر القوم ؟ » ، كررها ثلاثًا ، فقال الزبير : أنا ، فقال ﷺ : « إن لكل نبي حواريًا وحواري الزبير » !

كما روي البخاري في صحيحه : قال عبد الله بن الزبير ، كنت يوم الأحزاب ، جعلت أنا وعمرو بن أبي سلمة مع النساء – لصغر سنهما – فنظرت من أعلى الحصن فوجدت الزبير على فرسه يختلف إلى بني قريظة مرتين أو ثلاثًا ، فلما لقيته قلت : يا أبتي رأيتك تختلف إلى بني قريظة ، فقال : وهل رأيتني يا بني ؟ قلت : نعم ، قال : كان رسول الله ﷺ قال : « من يأتي بني قريظة فيأتيني بخبرهم ؟ » فانطلقت فلما رجعت ، جمع لي رسول الله ﷺ أبويه فقال : « فداك أبي وأمي » .

لقد كان رسول الله يعلم من أمر بني قريظة ما يدخل الريبة في نفسه ، ثم أراد الشاهد العملي على ما يخامره من شك ، فبعث الزبير ، وجاءه بالخبر اليقين ، وحين انتهت معركة الخندق بانتصار المسلمين ، لم ينته دور الزبير بانتهائها ، بل نهض مع رسول الله إلى حصن بني قريظة بالمدينة ، وقد تحصنوا بحصونهم ومعهم الطعام والشراب ، وظنوا أن حلفاءهم من الأوس سيشفعون لهم ، وقد حاصرهم المسلمون خمسًا وعشرين ليلة ، ثم

رأوا الحصار سيطول ففكر علي بن أبي طالب في اقتحام الحصن ، ولابد له من شريك يعاونه في هذه المهمة الجسيمة ، ولم يخطر بباله غير الزبير بن العوام ! فقال له : يا زبير أرأيت أن الأمر قد طال ، ولابد أن نفعل شيئًا ! فقال الزبير : قل ما تراه فقال علي : إن عمي وخالك حمزة قد ذاق الشهادة في سبيل الله فلنقدم عليها باقتحام السور ، والنزول مجازفةً من فوقه إلى باب الحصن ، فإذا تم لنا الظفر ، فقد أنجز الله وعده ، وإذا كانت الشهادة فهي إحدى الحسنيين ، قال ذلك علي ، وشرع يمتطي الحجارة ليبلغ أعلى السور ومن خلفه ابن عمته الزبير ، ووفقهما الله ، فأديا المهمة كما تخيلها علي ، ونهضا إلى الباب ، ففتحاه ، وتدفق المسلمون إلى الداخل ، وفزعت بنو قريظة ، ثم انتهى أمرها إلى ما سجلته صحف التاريخ !

وفي يوم خيبر كان الزبير وأمه صفية بنت عبد المطلب ممن صحب الجيش الإسلامي بقيادة رسول الله ﷺ ، وقد أبلى الصحابة بلاء حسنًا ، وكان في طليعة هؤلاء البواسل علي بن أبي طالب ومحمد بن مسلمة والزبير بن العوام ، وقد اختلفت الرواية في شأن مصرع (مرحب) البطل اليهودي ، أكان على يد علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ أم على يد محمد بن مسلمة ، أما الذي لا خلاف عليه فهو مصرع (ياسر) أخ مرحب ، إذ كان بطلاً مغوارًا ، وعز عليه أن يُصرع أخوه ، فهب متحمسًا ليأخذ بثأره ، ونادى من يبارز ؟ فقال رسول الله ﷺ للزبير بن العوام :

« اخرج إليه يا زبير » ، وسمعت صفية أمر رسول الله بالخروج فهرولت مسرعة إليه ، وقالت : أيقتل ابني يا رسول الله ! أيقتل الزبير ، فقال رسول الله : « بل سيقتل غريمه وينجو » ، ثم دار صراع مرير كانت عاقبته مصرع « ياسر » ونجاة الزبير : وهذا موقف سجله الطبري بالجزء الثالث من تاريخه ولا أدري لماذا لم يذكره الذين كتبوا سيرة الزبير من المحدثين .

وجاء يوم فتح مكة ، وقد عزم رسول الله على فتحها ردًا على قريش حين نقضت عهدها ، وغدرت بحلفاء رسول الله من خزاعة ، وكان في عزمه ﷺ أن يفاجئ القوم دون أن يعلموا بمسيرة الجيش فيأخذهم على غرة ، وذلك من أسباب النصر السريع ، ودعا الله أن يأخذ العيون فلا ترى مسيرة الجيش ، ولكن بعض الصحابة أدركه الضعف الإنساني ، وهو حاطب بن أبي بلتعة فأراد أن يتخذ يدًا عند بعض المكيين ، فأرسل جارية تسمى سارة بكتاب إلى قريش يعلمهم فيه بمسيرة جيش المسلمين ، وكانت هذه زلةٌ لا يغتفرها غير رسول كريم ، وقد علم رسول الله بما دبر حاطب فأرسل علي بن أبي طالب والزبير بن العوام (هما معًا دائمًا) فأدركا المرأة في الطريق وطلبا أن تسلم إليهما الرسالة ، فأنكرت أنها تحمل شيئًا ، وأصر علي والزبير على أن يبحثا في ثيابها إذا واصلت الإنكار ، وأنها لا تقنعهما بالزيف لأن رسول الله قد علم ، وهو صادقٌ فيما يأمر ، فلما رأت الجد الصارم من الرجلين حلت ذوائب شعرها ، وأخرجت الرسالة

فصحباها إلى المدينة ، ودعا رسول الله حاطبًا ليسأله عن سبب هذه الجريمة ، فارتاع حاطب وقال في ضراعةٍ : يا رسول الله إني مؤمن بك وبكتابك ما تبدلت ، وما تغيرت ، ولكني امرؤ ليس لي في القوم من أهل ولا عشيرة ، ولي بين قريش أهلٌ وولد ، فصانعتهم بهذه الرسالة ، لتكون يدًا لي عندهم ، فاغتاظ عمر بن الخطاب ، وقال لرسول الله : دعني أضرب عنقه فإنه منافق ، فقال رسول الله وقد بلغ من الحلم غايته : « وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » وحاطبٌ من أصحاب بدر عن يقين ، وانصرف حاطب أسفًا حزينًا لما فعل ، وفي هذا الحادث نزل قول الله عز وجل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [الممتحنة:١] .

وجاءت غزوة حنين ، وكانت في مبدئها مأساة للمسلمين ، إذ سار الجيش الإسلامي في اثنى عشر ألفًا منهم ألفان من أهل مكة والباقون ممن صحبوه من المدينة ، وقد أعجب المسلمون بكثرتهم

فلم تغن عنهم شيئًا ، إذ تقدمت المواجهة الأولى جهة العدو ، فخرج لهم كمين كان مستترًا في شعاب الوادي ومضايقه ، وسلط عليهم النبل والسهام كأنهما المطر المنهمر ، فتراجعوا متقهقرين ، وشاهد الجيش رجوع المقدمة منهارة فأخذه الرعب ، وجعل القوم يولون الأدبار ، وشاهد رسول الله ﷺ ما طرأ من بوادر الهزيمة ، فثبت في المعركة ومعه قرابته وصحبته من المهاجرين والأنصار ، وصاح العباس وكان جهوري الصوت : يا أهل القرآن يا أهل سورة البقرة ، هلموا إلى رسول الله ، وأخذ رسول الله ينادي القوم ويقول :

أنا النبي لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

وظهر من المؤلفة قلوبهم ممن أسلموا يوم الفتح ما يدل على الشماتة والتشفي ، وحين دوى صوت العباس فأسمع من بالوادي صاح الأنصار : لبيك لبيك حتى اجتمع حول رسول الله جمع عظيم ، وأنزل الله سكينته على المؤمنين ، فكر المسلمون على العدو كرةً سريعة أفقدتهم الصواب ، فتفرقوا فزعين في كل اتجاه ، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ، ثم جاء دور الزبير بن العوام الحاسم ، فقد أبصر مالك بن عوف ، زعيم هوزان ، وقائد المشركين يحاول أن يجمع الفلول الهاربة ليعيد الكرة ، فاقتحم الجمع وحده ، إي والله وحده ! وفي يده سيفه فأخذ يضرب ذات اليمين وذات الشمال ، دون أن يقف أمامه أحد ، حتى شتت شمل الجماعة ، وفر مالك مذعورًا ، وقد اعتقد أن

شيئًا خارقًا قد حدث ، ولا طاقة له بمواجهته ، وحين فر مالك لم يبق من أتباعه من يحاول القتال ، وقد مدح الزبير حسان بن ثابت لثباته العجيب فقال من قصيدة :

هو الفارس المقدام والبطل الذي يصول إذا ما كان يومٌ محجل

فكم كربة ذب الزبير بسيفه عن المصطفى والله يعطي ويجزل

ولم تفارقه شجاعته الباسلة بعد وفاة الرسول ، إذ كان من أبطال الفتح الإسلامي في معارك الفرس والروم ، وقد تكررت مواقف البطولة الخاصة به في هذه المعارك ، وكان يصطحب معه ولده الصغير (عبد الله بن الزبير) ليرى المعارك دون أن يشترك فيها لصغر سنه ، وكأنه بذلك يعطيه دروسًا من دروس الشجاعة العملية ، لينشأ شجاعًا باسلاً يقتحم الأهوال ، وقد روي الطبري عن ابن إسحاق عن عبد الله بن الزبير ، أنه قال : كنت مع أبي الزبير عام اليرموك ، فلما تهيأ المسلمون للقتال ، لبس لامته ، وامتطى فرسه ، ثم قال لعبدين كانا معي : احبسا عبد الله معكما في الرحل ، فإنه غلام صغير ، ولا يستطيع القتال ، وتوجه إلى الميدان وتركني مع غلاميه ، فلما اقتتل الناس ، نظرت إلى قوم من المسلمين يقفون على التل ، ولا يشتركون في القتال ، فحمي البأس في نفسي ، وركبت فرسًا للزبير كان قد تركه في الرحل واتجهت إلى هؤلاء الواقفين أسمع كلامهم ، ولم أر لديهم من الحماسة ما أتوقعه ، وحين عاد والدي أخبرته ، فجعل يضحك ويقول : قاتلهم الله أبوا إلا ضعفًا .

أما الموقف الخالد ، الذي لا ينسى للزبير فقد كان في مصر حين أرسله عمر بن الخطاب على رأس جيش بعتاده ليكون مددًا للقائد عمرو بن العاص ، وقد تحصن الروم في حصن بابليون ، وأقام العرب على حصاره مدة قاربت سبعة أشهر حتى نفد الصبر ، ومل الناس ، فقال الزبير لعمرو بن العاص : إني أهب لله نفسي ، وأرجو أن يُفتح الحصن على يدي ، ثم أتى بسُلم كبير فوضعه جانب الحصن من ناحية الحمام ، وقال لأصحابه : إذا سمعتموني أكبر ، فكبروا معي ، وكبر الزبير حين نزل فدوي التكبير فظن المحاصرون أن الأبواب قد فتحت ، وأن المسلمين قد دخلوا عليهم من كل مكان ، ولم يستطيعوا التقدم فتهيأت الفرصة للزبير وبادر بفتح الباب الكبير ، فتدافع المسلمون إلى الداخل ، وحينئذ طلب القائد الصلح .

ومعروفٌ أن الزبير كان من الستة الذين اختارهم عمر بن الخطاب قبيل وفاته ليكون أحدهم خليفة المسلمين من بعده ، وقد تم اختيار عثمان ـ رضي الله عنه ـ فكان الزبير ينصحه ويشير عليه حتى بلغ الكتاب أجله فاستشهد عثمان ، وقامت حرب الجمل ، فاقتحمها الزبير وطلحة ، وكلاهما كاره لما يصنع ، وقد ذكرت كتب التاريخ أن الإمام عليًا ـ كرم الله وجهه ـ نادى الزبير وحادثه على انفراد فقال له : أتذكر إذ كنت أنا وأنت مع رسول الله ﷺ ، فنظر إلي وضحك وضحكت ، فقلت أنت : لا يدع ابن أبي طالب زهوه ، فقال رسول الله : « ليس مجزه

ولتقاتلنه وأنت له ظالم » ، فأطرق الزبير ، وانصرف عن القتال ، ونزل بوادي السباع ليصلي فقتله عمرو بن جرموز غدرًا ، وجاء بسيفه إلى علي ، فاستأذن عليه ، فلم يؤذن له ، وبعد حين أتاه نعي طلحة فاستعبر باكيًا ، وقال : « إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير وعثمان من الذين قال الله فيهم : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ . ثم قال : سمعت أذناي هاتان رسول الله ﷺ يقول : « طلحة والزبير جاراي في الجنة : أي إنصاف هذا ؟ وأي سمو مثالي رفيع من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب !

بيت الزبير

تقدم الحديث عن الزبير بن العوام ـ رضي الله عنه ـ وقد يكون من كمال الرؤية الخاصة به أن نتحدث عن اثنين من كرام بيته ، هما زوجته المجاهدة أسماء بنت أبي بكر ، وولده البطل عبد الله بن الزبير ، وكلاهما ذو صلة حميمة به .

أما أسماء بنت أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنهما ـ فقد كانت فتاةً حصيفة الرأي منذ صغرها ، وكانت تشهد رسول الله ﷺ يأتي إلى منزلها في العشية ، ليتحدث مع صديقه الصديق فيما يكربه من أمر المشركين ، تعرف موعده ، وتهش للقائه هي وأختها الصغيرة عائشة ، وقد أطلت ذات ظهيرة من النافذة فلمحت رسول الله قادمًا ، وقالت في نفسها لا نعهده ﷺ يجيء

في هـذا الوقـت إنـه ليمشـي سـريعًا كـأن وراءه مهمـة عاجلـة ، وأسرعت إلى والدها فأخبرته ، فقام من فوره ، واتجـه إلى البـاب لملاقاته .

وطلب الرسول أن يخلو بصاحبه ، فقـال : يـا رسـول الله إنمـا هما ابنتاي أسماء وعائشة ولا يفشيان سرًا ، ثـم أجـاب طلبتـه ، فاتجه به إلى مكان ينفردان به .

قال الرسول : « قد أذن لي في الهجـرة يـا صـاحبي » ، ففـرح أبو بكر ، وقال : هذا ما كنت أتوقع . فمتى ؟

كان الرسول على علـم بمـا يـدبره المشـركون حولـه ، وأنهـم اعتزموا أن يقتلـوه ، وحـددوا الليلـة القادمـة لمهمـتهم الآثمـة ، فأخبر أبا بكر بما علم ، وسُر الصديق فأعلن أنه استعد للموقـف من قبل ، وعنده الراحلتان والدليل ، والموعد المساء .

طلب أبو بكر من أسماء – كُبراهما – أن تهيئ الـزاد ، ثلاثـة أيام ، وتلحق بهما في غار ثور إذا جن الليل ، وأن تكـون حـذرةً فلا تخبر أحدًا ، فالأمر جد ، وأحست أسماء أنها أصـبحت ذات رسالة ، وأنها ستسهم في نصرة الإسلام إذا حملت الزاد ، وهيأت أسباب الراحة ، وأنها جديرة بأن تكون موضع السر ، فلن تبوح به لأحد ، وجاء الليل ، وتم كل شيء على أحسن ما يُرجـى مـن الوجوه !

وأصبح المشركون في مكة على شر حال ، فقد أجمعـوا أمـرهم على اغتيال رسول الله في مرقده ، واختاروا أربعين مـن الشـباب

لتنفيذ المؤامرة ، وظلوا يرقبون النائم من الباب ، فيرون شبحًا مضطجعًا ، فيطمئنون ، ويدعون التنفيذ إلى منتصف الليل حين يهدأ القوم ، وحين يكون السكون سائدًا فيساعد على انتظام المؤامرة ، فلما حان الموعد اقتحموا المكان ، ونظروا إلى النائم ، فإذا هو علي بن أبي طالب ! هنا خارت نفوسهم ، وسقطت السيوف الكثيرة من أيديهم ، تلك السيوف التي اجتمعت على قتل رجل واحد ، وقد أخذوا يتساءلون أين محمد ؟ ماذا نصنع بقتل علي ؟ ! لقد خابت المؤامرة ، وسقط التدبير .

وكان أبو جهل على مقربةٍ من القوم ينتظر أن يجيئه البشير بمصرع سيد خلق الله ، فرأى الشباب يضطربون وفي وجوههم علائم الغيظ والكدر ، فتساءل في لهفة ! ماذا تم ؟ فصاحوا : هو علي ! أما محمد فقد نجا !

دهش الطاغية ، وهداه فكره إلى أن يذهب إلى بيت أبي بكر ، فلعله يكون مع صاحبه هناك ، وتقدم الملأ من المتآمرين فقرع الباب في عنف ! ففتحت أسماء الباب ، فقال في غلظة وشراسة : يا بنت أبي بكر ، أين أبوك ؟ فقالت في ثبات : لا أدري ! فكرر السؤال متوعدًا ، فرفعت صوتها ثانية تقول : لا أدري ، فثار ثائرة ، ورفع يده ليهوي بها على وجهها الرقيق ، فيسقط القرط من أثر اللطمة ، وأدركته الحيرة ، فقال في نفسه : ماذا صنعت؟ أجئت هنا لأضرب فتاة عزلاء لا تستطيع الدفاع ، ونظر إلى رفاقه من خلفهم فوجد علائم الاستنكار في وجوههم ،

وكأنهم يقولون له : ما هذا يا رجل ؟! هل انتهى أمرنا جميعًا إلى أن نلطم فتاة عزلاء ، ونعد ذلك انتقامًا ! خِزيٌ جلل القوم ، وكساهم ثوب الخجل ، وأدرك أبو جهل ما بنفوسهم ، فتراجع منكسرًا ، يعض على إبهامه ! ويقول للقوم في طيش : حاصروا السكك والدروب ، قفوا في أي مكان يذهب بالسائر إلى المدينة ، فقد يكونان متأهبين للرحلة ، ولم يرحلا بعد! وتفرق القوم على غير نظام .

لم تدهش أسماء لما كان ، وقد غسلت جرحها ، وواستها عائشة مواساة الأخت الشفيقة ، ولم تلبث أن جاء جدها أبو قحافة ، والد أبي بكر ، وكان شيخًا ضريرًا أقعده الداء فما يبارح منزله إلا لمامًا ، جاء وقد بلغه صنيع أبي جهل يلتمس طريقه التماسًا ، حتى بلغ أسماء فناداها برفق ، وجعل يسأل عن ابنه ، فعرف بفطنته أنه رافق الرسول دون أن تخبره أسماء بما تعلم ، ثم تقدم يسأل : ماذا ستصنعان من بعده؟ هل ترك لكما مالاً يعين على الحياة ؟ ولم تشأ أن تنغص جدها بما يزعجه فقالت : يدك يا جدي ، وتقدمت إلى أحجار صغيرة كومتها في لفافة ، وعليها غطاءٌ من أدم ، وأخذت بيده ومرت بها على اللفافة ، وقالت : هذا خير الله ! هذه هي النقود التي تركها ، فلا بأس علينا من غيابه ، ومد الرجل الضرير يده فاستراح إذ ظن الحجارة ذهبًا وفضة ! وقال : كنت سأحمل عبئكما ، وما أنا بمستطيع .

دخلت أسماء إلى أختها عائشة ، فقالت الصغيرة : ولماذا لم تصدقيه القول ؟ قالت : لم أرد أن أثقل عليه ! إننا نستطيع أن نعيش بالمدخر من الزاد ، وسيأتي يوم نهاجر فيه كما وعدنا أبونا ، ولن يغفل عنا !

كانت أسماء تعرف مكان غار ثور ، وتعلم أن الصاحبين يستتران فيه ، فكانت تهيئ الطعام نهارًا ، وتسير في حذر تحت ستار الظلام حتى تصل إلى الغار ، فتقدم الزاد والماء ، وتعلق كلاً منهما في جانب وتشدهما بحبل ، تعلقه فوق كاهلها وهي سائرة ، وقد همت بالرجوع بعد أن قدمت الوعاءين بما فيهما من زاد وماء ، وأرادت أن تجمع بينهما بالحبل كما فعلت من قبل ، فوهي الحبل ، وسقط ، وأبو بكر ينظر فقال لها : لا بأس ، شقي نطاقك نصفين ، واجعلي منهما أداة لمتاعك ، نطاقٌ للماء ونطاقٌ للزاد ، فقال ﷺ : « أنت إذن ذات النطاقين » ، ومن يومها كان هذا الوصف أحب إليها من كل ما عداه .

وفي الليلة الثالثة ذهبت بالطعام كعهدها ، فلم تجد الصاحبين الجليلين ، فعرفت أنهما ارتحلا ، كما جاءتها الأنباء أن عصابات الشرك تترصدهما في الطريق ، وقد بذلت الذهب والفضة لمن يأتي بهما حيين أو ميتين ! فزاد خوفها وقلقها ، ولكنها قالت في نفسها إن الذي نجى رسول الله ليلة الهجرة ، وقد أحدق به الأعداء من كل صوب ، واجتمعوا على أمر واحد هو أن يقتل ، لابد أن ينجيهما من كل شر ! وتذكرت الزبير زوجها ، فقد هاجر من قبل ، هاجر مع الفريق الأول الراحل إلى المدينة ،

ولاشك أنه ينتظرها هناك ، بعد أن يهيئ المبيت والمقيل ، وفي الزبير مودة تعرفها ، فهو لا يصبر على بعدها ، كما يعز عليه أن تبقى وحيدة مع أختها الصغيرة وفي قلبها جنين يوشك أن يتم شهور الحمل ، ولابد أن تضعه بين يدي زوجها وأبيها ، لتجد المعين والنصير ، وهذه صفية بنت عبد المطلب والدته ، تنتظرها لتكون لها ساعة العسرة أمًّا رءومًا ، لقد هاجرت صفية من قبل ، وجاء دور أسماء ، ولم يطل المدى بها في مكة ، فأرسل الزبير من يدعوها ، ومعها عائشة ومحمد وهكذا التأم شمل الأسرة بعد افتراق !

كان في طبع الزبير حدة ، وهو يعلم منزلة أبي بكر ومنزلة أسماء منه ومن عائشة زوج رسول الله ، فكان يخفف من شجونه حين يجدها حاسمة تصدر الأمر في كثير من الحالات دون أن ترجع إليه ، ثم يفكر في تؤده فيجد من عقلها النابه ، وتصرفها الحكيم ما يدفعه إلى الإعجاب ، وقد ولدت عبد الله بعد أيام من مجيئها إلى المدينة فكان عبد الله بن الزبير أول مولود من المهاجرين ، ونشأ نشأة فروسية علمية معًا ، فكان يستمع إلى أحاديث الرسول ويحفظ القرآن عن غيب ، وكان يهم بالانخراط في الغزوات ، ولكن رسول الله يحول دون رغبته لصغر سنه ، وحين جاءت حروب الردة امتشق حسامه وهم بالذهاب مع أبيه فحال دون ذلك صغر سنه أيضًا ، ثم زاد إلحاح عبد الله ، فسمح له أبوه أن يجيء معه في مواقع الروم ، وأردفه معه على جواد واحد ، فكان عجيبًا أن يحمل الفرس سيفين وفارسين ، وهو مشهد لم يرُ من

قبل ، وقد تحدث به الناس ، ثم سمح له فشهد القتال وحده كما شاء .

وفي خلافة عثمان بلغ عبد الله سن الفتوة فصحب الجيش الناهض إلى إفريقية ، وانضم إلى لواء القائد عبد الله بن سعد ، وقد طال الأمد في القتال لمراوغة الأعداء ، فاقترح عبد الله على القائد أن يرهق العدو ، فلا يدعه يستريح بالليل ، وذلك بأن يقسم جيش المسلمين فريقين ، فريق يقاتل بالنهار ، وفريق يقاتل بالليل ، ولم يكن العدد يقدر ذلك فتحير (جرجير) قائد الجيش وأراد أن يبعث العزم في قومه ، فتقدم الفرسان ، وقد ترصده عبد الله إذ قدر أن في هلاك القائد هزيمة الجند ، وجعل من همه أن يغتاله ، وقد شق الطريق على خطورة خطته حتى وصل إليه ، وطرحه على الأرض صريعًا بسيفه ! وكانت هذه البسالة ذات دوي بين المسلمين فعرف لعبد الله مكانه في الحرب ، وأخذ يتابع الحروب الزاحفة بنجاح واكتساح .

ثم حدثت فتنة المسلمين بمصرع عثمان ، ورأى عبد الله أن ينضم إلى عمته عائشة ، فقاد حرب الجمل وأرث الأحقاد على علي بن أبي طالب ، وهو في هذا ظالمٌ متسرع ، وقد قام جدال بينه وبين والده الزبير ، اضطر الزبير من بعده أن ينضم إلى جيش الجمل رعايةً لمقام السيدة عائشة ، وقد قال في ذلك متألمًا : « ما شهدتُ موقفًا من مواقف الإسلام إلا ولي فيه رأيٌ ، ما عدا هذا الموطن فلا رأى فيه » وهو كلام لا يصدر إلا عن متألم حزين .

وتوالت الخطوب واستشهد أيضًا ، ورأى عبد الله أن المكان أصبح خاليًا فتزعم المعارضة ، ووقف صامدًا أمام الجبهة الأموية ، وحالفه التوفيق بدءًا ، ثم انتهت العاقبة بما هو معروف من هجوم الحجاج على مكة ، وضربها بالمنجنيق ، وفساد النفوس بما بذل عبد الملك من الرشي المالية الكثيرة ، والوعود المغرية بالمناصب الخلابة فأخذ أتباع عبد الله ينصرفون عنه ، وقد رأو المنجنيق ينصب على جبل أبي قبيس ويضرب الكعبة ، دون أن تأخذ الحجاج رهبة راجفة حين يعتدي على أول بيت وضع للناس ؟ وقد فزع المكيون لهول ما شاهدوا ، وذهبوا يطلبون الأمان من الحجاج ، ورأى عبد الله أتباعه يتخاذلون ويرجعون بالملامة عليه فأدركه اليأس ، ولم يجد صدرًا حنانًا يبثه شكواه الآسية غير صدر أمه أسماء ، وكانت عجوزًا عمياء تخطت التسعين ، ولا تزال مفكرة مدبرة تعرف ما يحيط ابنها من الأهوال ، فدار بين الأم والابن حوار رائع ، قدمه بعض الأدباء(١) في سياق أدبي رفيع ، ولا أجد خيرًا من أنقل منه ما يصور المشاعر الأليمة في صدق دقيق !

قال عبد الله : يا أماه خذلني الأعوان ، وانفض عني الأهل والإخوان ، ولم يبق معي إلا القليل ، ومن لا يستطيع أن يصبر أكثر من ساعة ، وقد رضي بنو أميه أن يمنعوني ما أردت من الدنيا إن استجبت لهم فماذا تقولين ؟

---

(١) بلاغات النساء ، لابن طيفور ، بتصرف .

أسماء : أنت أعلم بنفسك يا بني فإن كنت تعتقد أنك على حق تدعو إليه ، فامض فيه ، ولا تمكن غلمان بني أمية من رقبتك يعبثون بها ، ولا تقل : إني كنت على حق ، فلما وهن أصحابي ضعفت عزيمتي فليس هذا فعل الأحرار ، ولا أهل الدين ، ولم بقاؤك في الدنيا بعد ذلك ، فوالله لضربة بالسيف في عز ، أحبُ من حياة في ذل ، والقتل أحسن من المهانة .

عبد الله : يا أماه : أخاف إن قتلني أهل الشام أن يمثلوا بي ويصلبوني .

أسماء : يا بني إن الشاة لا يضرها سلخها بعد ذبحها ، فاستعن بالله ، وامض في طريقك !

عبد الله : هذا رأيي ، فوالله ما ركنت إلى الدنيا ، ولا فضلت الحياة فيها على القتال في سبيل الله ، ولكني أردْت أن أستمع إلى مشورتك ، لتزيديني قوة وهداية ، واعلمي يا أمي إني مقتول في يومي هذا ، فلا يشتد حزنك ، وسلمي لله الأمر ، وعنده حسن الثواب ، وهو يعلم أني ما خرجت على الأمويين إلا إرضاءً له ، وغضبًا لدينه ، لم أرتكب عن عمد منكرًا ، ولم أقترف فاحشة ، ولم أجر في حكم ، ولم أغدر في أمان ، ولم يبلغني عن عمالي حيف ، إلا أنكرته ، وليس عندي آثر من طاعة مولاي وخالقي ، اللهم إني لا أقول هذا تباهيًا بنفسي ، ولكن تعزيةً لأمي لتسلو به بعد فقدي .

أسماء : والله إني لأرجو أن يكون جزائي فيك حسنًا ، إن تقدمتني احتسبتك ، وإن ظفرت سررت بظفرك ، ثم قالت : اللهم إني قد أسلمته لأمرك ، ورضيت فيه بقضائك فأثبني فيه ثواب الصابرين الشاكرين .

وهم بالخروج إلى الحرب فعانقته ، فوقعت يدها على درعه تحت ملابسه ، فقالت : ما هذا صنيع من يريد ما تريد ، أتخاف الموت ؟ قال : والله ما لبستها إلا لأشد متنك .

قالت : هذا لا يشد متني ، فخلعها وخرج ، وحمل على الأعداء ، وقاتلهم مستميتًا فكان لا يميل على ناحية إلا هزم من فيها ، فرماه جندي من أعدائه بحجر بين عينيه ، فشج رأسه ، وأسال دمه وآلمه إيلامًا شديدًا ، فوقف مطرقًا ساكنًا في مكانه ، فأسرع إليه عدوه ، وقتلوه وصلبوه وبقي معلقًا أيامًا !

وأرادت أمه أن تخفف من حزنها ، فاتجهت إلى مقره ، وقالت في أسفٍ : أما آن لهذا الفارس أن يترجل ! ولكن الحجاج صمم على بقائه .

وذهبت كلمة أسماء إلى عبد الملك بن مروان بدمشق ، فكتب إلى الحجاج أن يعجل بدفنه ، فحضرت أسماء وتسلمته وغسلته ، ومشت وراء من حملوه حتى ووري التراب .

ولم يمض أيام حتى لحقت به !

هذان كريمان من بيت الزبير ، أم فاضلة نجيبة ، وولد شجاع مهيب .

طلحة بن عبيد الله

يقول الأستاذ خالد محمد خالد في كتابه (رجال حول الرسول) :

لا يجئ ذكر طلحة إلا ويجئ ذكر الزبير معه ولا يجئ ذكر الزبير إلا ويذكر طلحة معه فحين كان رسول الله ﷺ يؤاخي بين أصحابه في مكة قبل الهجرة ، آخى بين طلحة والزبير ، وطالما كان عليه السلام يتحدث عنهما معًا مثل قوله :

« طلحة والزبير جاراي في الجنة » .

وكلاهما يجتمع مع رسول الله في القرابة والنسب ، أما طلحة فيجتمع نسبه مع الرسول في مرة بن كعب ، وأما الزبير فيلتقي نسبه مع الرسول في قصي بن كلاب ، كما أن أمه صفية بنت عبد المطلب عمة الرسول .

وكل منهما « طلحة والزبير » كان أكثر الناس شبهًا بالآخر في مقادير الحياة ، فالتماثل بينهما كبير في النشأة ، في الثراء ، في السخاء ، في قوة الدين ، في روعة الشجاعة ، وكلاهما من المسلمين المبكرين بإسلامهم ، ومن العشرة الذين بشرهم الله بالجنة ، ومن أصحاب الشورى الستة الذين وكل (عمر) إليهم أمر اختيار الخليفة من بعده ، حتى مصيرهما كان متماثلاً ، بل كان واحدًا .

هذا ما قاله الأستاذ خالد ، وهو قول صائب ، فقد رأيت تجاور اسم الزبير وطلحة في كتب التاريخ تجاورًا يجعل بينهما مشاركة وجدانية فيما يأتيان ويدعان من الأمور ، لولا أن الزبير كان يميل إلى الثورة في بعض المواقف ، ويظل طلحة هادئًا ساكنًا ، ومن أعجب ما لاحظته أن كتب السلف المتقدمة لم تفرط في حديثهما مع مواقفهما الحاسمة ، كما أفرطت في حديث من هو دونهما ، لذلك كان الذي يكتب سيرتهما ، يعاني رهقا في الكتابة ، لأنه يجمع سطورًا متناثرة من عشرات الصفحات ، يبذل فيها من الجهد ، ما كان في غنى عنه ، لو احتفل بهما ذوو الأقلام قدر ما لهما من التوفيق والسداد .

كان طلحة – فيما أرى- كالغدير المترقرق الذي يسير إلى غايته فيروي الزرع ، ويشفي صدور الظماء من الإنسان والحيوان ، فيؤدي رسالته كأحسن ما يكون الأداء ، ولكنه مغطي بظلال الشجر عن اليمين والشمال ، مستور عن أعين العامة ، يحسون أثره ، ولا يرون منظره ، هكذا سيرة طلحة تستتر بحوائل كثيفة ، ويقرأها الدارس متناثرة ، ولكن من رحمة الله بالتاريخ أن رسول الله ﷺ اثنى على طلحة ثناءً حفظته كتب الأحاديث ، فدون بمداد ثابت لا تجففه شمس ، ولا يذهب بجدته هواء مهما تعاقبت الأجيال ، أثنى عليه يوم أحد فسماه « طلحة الخير » ، وأثنى عليه يوم تبوك فسماه « طلحة الفياض » ، وأثنى عليه يوم حنين فسماه « طلحة الجود » ، ولذلك حديث سيأتي .

أما الشاعر الكبير الأستاذ أحمد محرم فقد خصه بثناء حافل في ديوان مجد الإسلام إذ قال عنه :

طلحة الخير طلحة الجود أبشرْ	صرت تُـدعى بطلحة الفياض
نفحةٌ بعد نفحةٍ وانتهاضٌ	في مجال السخاء بعد انتهاض
في حنينٍ يدٌ ، وفي أحدٌ أخرى	وهذي تبوك ملأى الوفاض
من جزور نحرتها تطعم الجيش	وتشفيه من أذى وارتماض
ذاق من شدة الضنى ما كفاه	وهو مستحصد العزيمة راض
حزمته الأمور في طاعة الله	فما هم مرة باعتراض
عالمٌ أن أفضل المقادير ما شاء	وخير الأمور ما هو قاض
لك في المسلمين يابن عبيد الله	برقٌ مبارك الإيماض
تستهل الصنائع الغر إن لا	ح وتجري الصلات ملء الحياض
هكذا المؤمن الموفق يغنى	في مروآته غناء المواضي
يدفع الحادث الجليل ويقضي	الحق سمح اليدين قبل التقاضي

ولنبدأ بسيرته الطاهرة فنذكر أنه أسلم في الرعيل الأول ممن دعاهم أبو بكر الصديق إلى الإيمان فأسرعوا مسرورين ، وذلك أن طلحة كان في قافلة تجارية ترتاد الشام ، وقد خف إليه راهب نصراني يشتري بعض ما حمل من البضائع ، فسأله عن أرضه فعرف أنها مكة ، فأطرق الراهب كالمأخوذ ، وسأله طلحة عما به ، فقال : إنها بلد النبي المنتظر ، وقد قربت أيامه ، فجعل طلحة

يردد بلد النبي المنتظر ، وقد قربت أيامه ، ثم يجول بذهنه فيمن يعرف من رجال مكة ، أيهم سيكون النبي المختار ، وما يهتدي إلى شخص حتى يلوح سواه ، فيحار في التفضيل ، ثم انتهى موسم التجارة ، وعاد إلى المدينة فسمع الناس يتحدثون عن دعوةٍ سرية يقوم بها محمد بن عبد الله ، وهو من هو في نفسه علو مكانة ، وحسن خلق ، ونبل سلوك ، وكان يتاجر مع أبي بكر في صفقات مشتركة ، وقد تزاملا في بعض الرحلات فعرف في أبي بكر صدق الإخلاص ، ونظافة السلوك ، واطمأن إلى زمالته اطمئنانًا كبيرًا ، وكما كان طلحة يثق في أبي بكر كان أبو بكر يكن له ما يكافئ مودته ، ويعرف معدنه الأصيل في الكرم ، وصفاء النَّفس ، فتوجه يدعوه إلى الإسلام ، وكانت نفس طلحة مهيأة لاستقبال الدين الجديد فسرعان ما رحب ، وأصبح من السابقين الأوائل في الإسلام ، ولم يخلص من العنت في قومه ، إذ تعرض له بالسوء من ساءه أن يبزغ نور الإسلام ، فصبر وصابر حتى انجلت بلواه ، وما زاده الاضطهاد إلا ثباتًا وسكينة .

ورأى أن يشغل نفسه بالتجارة ، فربح عمله ، وجرى المال بين يديه ، فكان ينفق أكثر ما يكسب على المستضعفين من الأرقاء ، وممن أسلموا وتلمسوا السبيل للنجاة ، فكان لهم من طلحة سدادٌ من عوز ، وشبعٌ من جوع ! ثم حانت ساعة الهجرة ، فرأى أن يهاجر مع عائلة صديقه أبي بكر ، إذ علم أن الصديق قد سبقهم مع صاحبه إلى المدينة ، فبقي معهم يدبر الأمر حتى تم

التدبير فساق القافلة واتخذ وجهته إلى المدينة ، فسعد به رسول الله ، وقابله أبو بكر مثنيًا على اهتمامه بأهله ، ومن يومها أخذ مكانه بين المجاهدين .

وكان في نية رسول الله أن يعترض قوافل مكة الذاهبة إلى أرض الشام ، لأن المشركين قد استولوا على دور المسلمين بمكة ، ونهبوا أموالهم ، وجعلوها رزقًا مباحًا لأطماعهم ، وقد فكر المسلمون في استردادها بالحسنى فما رجعوا بطائل ، بل وجدوا التغطرس والتعالي والازدراء ، فلم يبق بدٌّ من اعتراض قوافلهم ، وعلم النبي ﷺ أن قافلة قادمة من الشام بقيادة أبي سفيان ستصل بعد حين ، فأرسل طلحة بن عبيد الله ، وسعيد بن زيد يستطلعان نبأها ، ويعودان فيخبران بما يعلمان ، ولم يطل الوقت حتى قامت المعركة في « بدر » وحضرها المسلمون من المهاجرين والأنصار ، ولم يتخلف غير طلحة بن عبيد الله ، وسعيد بن زيد ، إذ كانا في مهمتهما الاستطلاعية وقد قدر رسول الله لهما رسالتهما الدقيقة ، فحسبهما بين من اشتركوا في المعركة ، وحفظ لهما نصيبهما من الأنفال ، وجعل طلحة وسعيدٌ يأسفان أن فاتهما شرف الالتحام في المعركة ، ولكن رسول الله حين رعي جانبهما في الأنفال ، قد رد عمليًا على ما تلجلج في نفسيهما من الأسف فهما حاضران وإن كانا غائبين .

ثم حانت معركة أحد ، وفيها بذل طلحة جهده ، وكأنه كان يستشعر في نفسه أن عليه واجبًا قد فاته في غزوة بدر فلابد أن

يقوم بما يعوض ما فات ، وكانت بوادر النصر مع المسلمين في أول الأمر ، ولكن الرماة تركوا مواقعهم فوق الجبل ، فتحينها خالد بن الوليد ، وهجم على المسلمين بكتيبته حيث احتل مكان الرماه ، وصاح بقريش يعلمهم أنه تمكن من حصار المسلمين ، وهذا ما وقع فعلاً ، فحدث هرج عظيم ، وتقهقر المسلمون لا يدرون أين يذهبون ، ولكن رسول الله ﷺ يثبت كالطود بين نفر من أصحابه ، وقد عاد الثبات إلى نفوسهم ، واستحبوا الموت على الحياة ، ثم توالت الأحجار ترمى موضع رسول الله فأصيبت رباعيته وشج وجهه ، ودخلت حلقتان من المغفر في وجنته ، وهم بالسير إلى جهةٍ آمنة فسقط في حفرة كان الكفار قد صنعوا أمثالها بالميدان ليقع فيها المسلمون وهنا أسرع علي بن أبي طالب بمحاولة انتشاله ، وتقدم طلحة بن عبيد الله فاحتضن الرسول ليقيه من السهام المتتالية ، وظل محتضنًا له حتى خرج من الحفرة ، وعاد إلى ثباته المناضل ، وقد تعددت الإصابات في جسد طلحة دون أن يلقي لها بالاً ، لأن همه الأكبر كان نجاة الرسول .

وقد أراد محمد ﷺ أن يعتلي صخرةً ليرقب سير المعركة ، فلم يستطع لبعدها عن طاقته ، فانحنى له طلحة ليصعد فوق ظهره ، وأخذ يرتفع به شيئًا فشيئًا حتى بلغ الصخرة واستوى عليها ، وعمد بعض المشركين إلى رسول الله بضربةٍ نافذة فتلقاها طلحة بيده ، فقطعت أصبع منها ، وتأثر رسول الله بفدائية طلحة فبشره بالجنة ، وقال : « أَوْجَبَ طلحة » ، أي فعل ما يوجب له جنة الخلد ، وقد تكاثرت الجراح في جسده ، حتى يكاد جسمه كله أن

يكون دمًا سائلاً ، وحين قدم أبو بكر وأبو عبيدة يحاولان تضميد جراح الرسول ، قال : « عليكما بصاحبكما » ، وأشار إلى طلحة ، وقد غلبته جراحه المتفجرة فأصيب بإغماء فأسرع أبو بكر يصب الماء على وجهه ليفيق ، فلما فتح عينه ، وشاهد من حوله سأل : كيف رسول الله ؟ كيف رسول الله ؟ فأجيب بأنه بخير ، فحمد الله !

وقد كانت عائشة ـ رضي الله عنها ـ تثني على موقف طلحة يوم أحد ، وتروي عن رسول الله ﷺ بأنه قال : « إن طلحة ممن قضى نحبه وما بدلوا تبديلاً » ، أي ممن وفى نذره وفي كتب السنة المطهرة أن أعرابيًا سأل رسول الله ﷺ عن معنى قول الله تعالى : ﴿ قَضَىٰ نَحْبَهُۥ ﴾ [الأحزاب:٢٣] فسكت وبعد قليل أقبل طلحة على مجلس رسول الله فقال : « أين السائل ؟ » فقال الأعرابي : أنا يا رسول الله فقال : « هذا ممن قضى نحبه ! » وفُسر ذلك لدى الصحابة بأنه طلحة هو الشهيد الحي .

وحين استعد الرسول لغزو الروم في معركة تبوك ، كان الحر شديدًا ، وكانت الثمار لم تينع بعد ، والجدب يأخذ بالنفوس ، والرحلة شاقة إذ يتعرض المسلمون إلى اجتياز الفيافي القاحلة في أرضٍ ليس بها ماء ! ولكن عزيمة الرسول دفعت المسلمين إلى طاعته ، ونهض أهل الثراء إلى التبرع لنفقات الجيش ، وقد عرف يومئذ بجيش العسرة فأبلى عثمان وأبو بكر وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بلاء عظيمًا ، واحتاط طلحة فحمل معه ما قدم

من المال عدةٍ من النياق ، ومقدرًا أن يذبح كل يوم ناقةً ليأكل المسلمون ، وما تأخر طيلة الرحلة عن ذلك ، وقد سماه رسول الله في هذه الرحلة « طلحة الفياض » ومن قبلها سماه يوم أحد « طلحة الخير » وهما اثنتان وبقيت الثالثة !

وقبل أن يتهيأ الرسول بجيشه إلى تبوك علم أن الذين في قلوبهم مرض أخذوا يحرضون المسلمين على النكوص ، وقالوا : لا تنفروا في الحر ، ولما كانت الظروف مواتيةً لبث الفتنة فقد رأوا أن يؤلفوا عصابة للدعاية ضد الغزو ، وقال قائلهم : إنهم الروم ، هم بنو الأصفر أيحسب محمد أنه سيلاقي عربًا كيوم بدر . لن يرجع محمد إلينا إذا ارتحل ، وفيهم نزل قول الله : ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ [الفتح:١٢] ، في هذه الفتن الغاشية جاء إلى رسول الله أن المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي يدبرون الخطط ليثنوا القوم عن القتال ، فبعث إليهم طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه ، فأوقدوا النار في المنزل ، وفر أحدهم من أعلى البيت قافزًا فانكسرت رجله واقتحم الباقون النار ، فنجوا بعد أن أصابهم لهيبها ، وخمدت الفتنة ، ونظم الرسول شؤون المسير ، ووفى طلحة بما وعد ، فأعد النياق للذبح ، وجاراه بعض الموسرين من المسلمين ، فخفف ذلك كثيرًا من البلاء .

وبعض الكاتبين يتساءل عن غزوة تبوك ، ويعدها مجازفة !

ولكنها كانت ضرورية ، إذ تحرش الرومان بالمسلمين بعد غزوة مؤتة ، وأعلنوا لجواسيسهم أنهم سيقتحمون المدينة ليستأصلوا المسلمين ، فكان لابد من إرهابهم ، ليعلموا أن المسلمين ليسوا قادرين على الدفاع فقط ، بل على الهجوم أيضًا ، وأدت الغزوة رسالتها في إرهاب العدو ، ومخالفة الصديق .

وكأن شجونًا يسيرة كانت تخالط نفس طلحة بن عبيد الله مما تخيله من قسوة عمر بن الخطاب ، فكان يشكو إلى أبي بكر شدته في الأخذ بالحزم الصارم ، وأبو بكر يصغي ويهدئ ، وقد بدا ذلك في بعض مواقف حرب الردة ، حيث أراد الزبرقان بن بدر والأقرع بن حابس أن يذهبا بجنودهم دون أن يقاتلوا المسلمين على شريطة أن يضمن لهما خراج البحرين ، ووافق أبو بكر على ذلك ، وكان السفير بينهم وبين جيش الردة طلحة بن عبيد الله ، وقد فرح في نفسه حين رأى أن الزبرقان والأقرع سينسحبان دون قتال ، وعد ذلك هدنةً نافعة ، ولكن عمر بن الخطاب علم بالأمر ، فرفض التسوية منكرًا حدوثها ، وعمد إلى الورق فمزقه بمشهد طلحة ، فغضب غضبًا شديدًا ، ووصل إلى أبي بكر يسأله في شدة : أأنت الأمير ، أم عمر بن الخطاب ؟ فقال أبو بكر : الأمير عمر ، غير أن الطاعة لي ، واستمع طلحة الرد فعرف أن أبا بكر فكر في الأمر ، ورجع عن رأيه ، وليس في ذلك شيء !

روي الطبري : لما مرض أبو بكر مرضه الأخير ، وأوصى بالخلافة لعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ دخل عليه طلحة

ابن عبيد الله فقال له : استخلفت على الناس عمر ، وقد رأيت ما يلقى الناس منه ، وأنت معه ، فكيف إذا خلا بهم وحده ؟ وإنك ملاقٍ ربك ، فسائلك عن رعيتك ، فتحرك أبو بكر ، وكان نائمًا ، وقال لمن معه : أجلسوني فأجلسوه . فقال لطلحة : أبا لله تخوفني ، إذا لقيت ربي فسألني أقول له : استخلفت على أهلك خير أهلك ! فسكت طلحة .

وجاءت مأساة الجمل ، فاشترك فيها طلحة ، كما اشترك الزبير ، وقتلا شهيدين ، إذ قتل عمرو بن حرموز الزبير في وادي السباع ، ورمي مروان بن الحكم بسهمه فقتل طلحة ، وبكاهما علي ، وهما من محاربيه ، وقال عن طلحة : إن الرسول سماه طلحة الجواد يوم حنين حين تبرع قبل المعركة بما فاق غيره ، ولم يدخر وسعًا في الإنفاق ، وتلك هي الثالثة .

قالت سعدى زوجة طلحة :

« دخلت على طلحة ذات يوم فوجدته مهمومًا ، فسألته ما شأنك ؟ فقال : المال كثر عندي حتى أهمني وكربني ، فقلت له : وما عليك ، قم فقسمه على الفقراء لترتاح ، فقام نشيطًا ، وما رجع حتى فرغ ، ولم يبق معه درهم .

وقال جابر بن عبد الله : ما رأيت أحدًا أعطي الجزيل من غير مسألة كما رأيت من طلحة بن عبيد الله وكان من أكثر الناس برًّا بأهله وأقربائه ، فكان يعولهم جميعًا على كثرتهم ، ولا يدع أحدًا

من بني تيم محتاجًا إلا كفاه ، وكفى عياله ، كان يزوج الأيامى ، ويخدم العائل ويقضي مغارم المدين .

وسمع علي بن أبي طالب رجلاً ينشد :

فتىً كان يدنيه الغنى من صديقه   إذا ما هو استغنى ويبعده الفقر

كأن الثريا علقت بجبينه   وفي خده الشعرى وفي الآخر البدر

فقال ذاك هو طلحة بن عبيد الله ، وكان طلحة حينئذٍ من محاربيه ! ولكنه إنصاف النبلاء ، وشمم الراسخين .

وإن حديث طلحة الجواد الكريم يحبب لنا حديث الكرم والكرماء ، لذلك سأتبع ترجمته بأمثلةٍ رائعة لهؤلاء الأجواد سجلتها صحائف التاريخ ، سأنشرها مستقلة لتكون زادًا خُلُقِيًا للقارئ الكريم .

*****

سعيد بن عمرو

أخذت القوافل تأتي من عكاظ إلي مكة ، بعد أن انتهي السوق التجاري والأدبي مخلفًا ذكريات طيبة لدى المشاهدين ، ولاحظ الذين يرحلون في القافلة أن الزاهد الورع زيد بن عمرو ابن نُفيل صامتٌ لا يشارك في الحديث ، وتند منه أحيانًا زفرات يطيلها كأنه يعاني داء دخيلاً ، وقد عرفوا منه هذا الصمت الدائب من قبل ، ولكنهم لم يعهدوا هذه الزفرات المتواصلة التي عبرت عن شجونٍ تصطرع في نفسه ، وحين جاء وقت الطعام نزلوا في واحةٍ خَصيبة ، ودعوه كي يشاركهم في طعامهم ، فاعتذر وانتحى جانبًا يفكر فيما يشغله ، فقال أحدهم :

ما الذي شغل زيد بن عمرو ؟ وإن أمره اليوم لعجب !

فقال آخر : كل أيامه عجب ، فهو يحضر الأعياد في موسم الحجّ ، فينظر إلى الآلهة مغتاظًا ، وكأن بينه وبينها ثأرًا شديدًا ، وقد تكلم بما كان موضع استنكار الناس ، حين أخذ يحقر الآلهة ، ويقول : أصنامٌ من خشب لا تنفع ولا تضر فكيف يعبدها العقلاء ، ثم يذهب إلى جدار الكعبة فيستند إليه ، وينظر إلى الرائحين والغادين ممن يذبحون الذبائح ، ويقدمون القرابين ، ويضحك ساخرًا ويقول : لمن تقدم هذه الذبائح ! ولماذا تترك هكذا دون أن تؤكل ، حتى تفسد ، وفي مكة فقراء يحتاجون إليها ؟

ألا ترضى آلهتهم بإطعام المساكين ؟!

قال ثالث : وكأنه يتعجب ، ولماذا سكتت قريش عنه ، وقد حقَّر آلهتها ، وامتنع عن شرب الخمر ، وعدَّه جريمة ، وأخذ يقول : إنه على دين إبراهيم .

فرد عليه صاحبه يقول : لقد كان أقاربه الأدنون أول من أحسوا بشذوذه فتقدم إليه عمه (الخطَّاب) ، وجعل يشتمه ، ويقول : إنه برئ منه ، ولن ينتقم له إذا اعتدى عليه أحدٌ من قريش ، فقد سبَّ الآلهة ، وحقَّر الأوثان ! وحين أصر عمرو على موقفه اعتدى عليه بالضرب أمام الناس ، فحالوا بينهم وبينه ، واحتمل زيد بن عمرو الأذى صابرًا .

وخلص القوم من طعامهم فنهضوا للسير حين مالت الشمس إلى المغيب ، وخف معهم زيد بن عمرو ، وهو كعهده صامتٌ لا يتكلم ! ولما بلغت القافلة مكة ، خفَّ إليه شابٌ أريحي فقال له : هلمَّ اركب معي ناقتي لأذهب بك إلى منزلك دون أن يرهقك السير ، فقال له : وهل أستطيع أن أدخل منزلي ؟

قال الشاب متعجبًا : ولماذا يا رجل؟ البيت بيتك ، وأهلك مشتاقون إليك فزفر زيدٌ زفرةً حارة ، وقال وكأنه يحدث نفسه : أهلي مشتاقون إليَّ ، أنت لا تعرف عن أهلي شيئًا ؟ إن زوجتي قد استمعت إلى عمي (الخطاب) وقد أمرها أن تخالفني فلا تطيع لي أمرًا ؛ لأني صابئ عن دين الآباء ، وإذا حضرتُ بعد هذه

الرحلة فستراسله ليحضر ، ويتم الشجار بيني وبينه ، وقد يعتدى عليَّ كما فعل من قبل !

قال الشاب : وإلى أين ستذهب إذن ؟

قال : سأذهب إلى جبل حراء فلي به مأوىً ، إنه منعزلٌ هادئٌ ، أتحدث فيه مع نفسي ! وأجد في خلوتي أمنًا وعزاءً .

قال الشاب : وهل تطلب مني شيئًا ؟ فسكت زيد ولم يرد ، فقال الشاب : عزمت عليك أن تطلب ما تشاء !

فقال زيد : إذا كان الأمر لا يرهقك ، فاذهب إلى دار ورقة بن نوفل وقل له : إني جئت من عكاظ ، وإني أقيم بجبل حراء ، فإذا شاء أن يحضر إليَّ فسأسعده ببعض الحديث .

فأجاب الشاب بالقبول مرحبًا ، وانطلق إلى دار ورقة بن نوفل .

كان ورقة بن نوفل يجلس وحيدًا في منزله ، وكأنه يتعبد في دير خالٍ ليس به أحد ، فسمع طرقًا على الباب ، فنهض ليعلم من الطارق ، فوجد الشاب يحييه في أدب ، ويقول له : لقد جاء زيد بن عمرو بن نفيل من عكاظ ، وهو بجبل حراء حيث تعرف مأواه ، وقد بعثني إليك راجيًا أن يراك .

فتهلل وجه ورقة بن نوفل بالبشر ، وقال بشرك الله بالخير ، لقد كنت أفكر في زيد وأتمنى أن أراه ، فلا أحد في مكة يسعدني بحديثه كما يسعدني عمرو ، ولن أمكث لحظة بل سأسير فورًا

إليه .

قال الشاب : اركب معي ، فأنا أرى في وجهك هدوء عمرو ، وألمس في روحك روحه ، ولم تتصادقا إلا حين تعارفت القلوب ، وامتزجت الطباع ، فابتسم ورقة ، وقال :هيا هيا .

دنا جبل حراء ، فنزل ورقة وودع الشاب ، وأخذ طريقه في جنبات الجبل صاعدًا في حذر ليبلغ مكان صاحبه الذي اتخذه مأوىً من قبل ، ورفع صوته حين قرب منه مناديًا إياه ، فهب إليه زيد ، وكأنه ينهض إلى لقاء حبيب طال بعده عنه وبرح به الشوق إليه ، فعانقه ورقة عناقًا حارًا ، وصحبه إلى مأواه ، فلما اطمأن بهما المجلس ، قال ورقة : هيه : ما عندك يا عمرو ؟ هل من جديد ؟

فقال زيدٌ : جديدٌ والله أي جديد ؟ فائتلق وجه ورقة بالبشر ، وقال : أسعدني بما لديك ، فما عهدتك إلا صاحب خير ومعروف .

فقال زيد : أتسمع عن قس بن ساعدة يا ورقة !

فقال ورقة : عجبًا ، ومن الذي لا يعرف خطيب العرب قسٌ ابن ساعدة الأيادي ، وقد عرفه قيصر الروم ، واستمع إلى حكمته ، وأثنى عليه بما يستحق .

قال زيد : لقد كان معنا في عكاظ ، ووقف خطيبًا بين القوم ، فأدهشني بما قال ؛ فتطلع ورقة إلى صاحبه قائلاً : وماذا قال :

عجل يا أخي .

فقال زيد : لقد زادني يقينًا وإيمانًا بما أعتقد حين تحدث عن إله يدير الكون ، وعن نبي سيبعث عن قريب بدين صحيح .

فقال ورقة : وهل حفظت ما قال : فرد زيد يقول : كلمة كلمة ، وحرفًا حرفًا ، وكُنتُ في رحلة العودة صامتًا أفكر فيما قال ، وأعيده مرةً بعد مرة ، كيلا يغيب عني حرف مما قال .

قال ورقه : لا تبطئ وأعد ما تعلم!

قال زيد : لقد جاء إلى عكاظ يركبُ جميلاً أورق ، وله مهابةٌ ورونق ، فاجتمع حوله الناس من كل صوبٍ ، وهالني اندفاع الناس إليه فذهبت فيمن ذهب ، فما أن اكتمل الجمع ، وساد السكون ، حتى رفع صوته الجهير يقول :

أيها الناس اسمعوا وعوا وإذا وعيتم فانتفعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آتٍ ، ليلٌ داج ، ونهار ساج ، وسماءٌ ذات أبراج ، وبحار تزخر ونجوم تزهر ، وضوءٌ وظلام ، وبرٌ وآثام ، وملبسٌ ومركب ، ومطعمٌ ومشرب ، مالي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون ، أرضوا بالمقام فأقاموا ، أم تركوا هناك فناموا ، وإله قس ، ما على وجه الأرض دينٌ أفضل من دين قد أظلكم زمانه ، وأدرككم أوانه ، فطوبى لمن أدركه فاتبعه ، وويلٌ لمن خالفه ، ثم أنشأ يقول :

في الذاهبين الأولين   من القرون لنا بصائر

لما رأيت مواردًا ... للموت ليس لها مصادر
ورأيتُ قومي نحوها ... يمضي الأصاغر والأكابر
أيقنتُ أني لا محالة ... حيث صار القوم صائر

صاح ورقة : أعد يا زيد : لقد كثر المتألهون من أمثالنا ، انضم إلينا خطيب العرب قس بن ساعدة ، إن دينًا جديدًا قد أظلنا زمانه فمتى متى ؟ هل قال شيئًا آخر عنه ؟ ألم تتقدم إليه وتسأله ؟

قال زيد : لقد تهيبته يا ورقة ؛ كان جليلاً فخمًا في عيني ، حتى كنت أخفض بصري هيبة له ، فلا أتطلع إلى وجهه المنير ، وقد أحاطت به لحية بيضاء زادته نورًا فوق نور .

قال ورقة : ضاعت فرصة قويةٌ منك ، فماذا أنت صانع ؟

فقال زيد : سأرحل إلى الأديرة ، وإلى الرهبان وإلى الأماكن المختلفة أسأل القوم هل لديهم نبأً عن هذا الدين وعن نبيه القادم ؟

قال ورقة : صعبٌ عليك يا زيد أن ترحل ، وصعبٌ علي أن تفارقني وأنت سمير آمالي وأشواقي !

قال زيد : لن أطيق صبرًا ، وسأرحل ؛ ماذا أصنع في مكة ؟ ألأتشاجر كل يوم مع الخطاب ، ألأرى عدوتي في منزلي تثير اللجاج ولا أقدر على إسكاتها ؟ سأرحل وسآتيك إن شاء الله بالخبر اليقين .

(٣)

فكر زيد بن عمرو فيما يبتغي ، وقال في نفسه إن أقرب الناس فهمًا لما أدعو إليه هم الذين يسكنون الدير من الرهبان ، فهم يرسلون أعذب الأصوات في المساء والصباح ترنيمًا بحب الله ولا يسجدون لصنم ، ولا يتقدمون بقربان لوثن ، وفيهم جلالٌ وهيبة فلابد أن أستمع إليهم ، في بصرى وفي دمشق .

وخف زيدٌ لا يعوقه حر الشمس في البيداء ، ولا رعدة الهواء بالبادية في الليل حتى أشرقت جنبات بُصرى ، ورأى شجرةً ذات ظل فأنس إلى نسيمها وجلس يستريح .

وكأن القدر قد ساق إليه من يريد ، فرأى شابًا أسود اللحية أبيض الوجه يتقدم إليه مسلمًا ، وكأنه كان يشكو حر الهجير فجلس جواره يستظل بغصون الشجرة ، ولابد من الكلام في مثل هذه الحالة ، فابتدأ الشاب يقول لزيد :

من أي مكان جئت يا أخا العرب ؟ فقال زيد :

جئت من مكة ، قاصدًا بصرى ، فابتسم الشاب قائلاً : ومن تريد في بصرى ؟

فقال : أريدُ راهب الدير ..

فدهش الشاب ، وقال : أنصراني أنت ؟ فرد زيد في هدوء : كلا ، ولكني أتعبد على دين إبراهيم جد الأنبياء !

فأطرق الشاب ، وقال : اعلم أني من رهبان الدير ، وإن كنت لم أبلغ من المعرفة ما بلغه الكبار من الرهبان ، وقد تابعت سيري لأتوجه إليه فلتكن معي .

فرح زيد ، لأنه وجد من يسهل عليه لقاء رئيس الدير كبير الرهبان ، وسار الرجلان صامتين ، وخواطر كل منهما تجيش في صدره فتمنعه عن الحديث ، حتى إذا وصلا إلى الدير تقدم الراهب الشاب ، وقال لزيد : انتظر ، حتى آذن لك !

ومضت مدةٌ يسيرة ، ظنها زيد وقتًا طويلاً لفرط إحساسه بما يقدم عليه من الأمر الجليل ، ثم حضر الشاب يستصحب رفيقه ، فأوصله إلى شيخ كبير يملأ الشيب رأسه ولحيته ، فرحب بالزائر الضيف ، وأدناه إلى أقرب مكانٍ من مجلسه ، ثم قال له :

قدمت يا بني من مكة ! هكذا أخبرني رفيقك ! فقال زيد : نعم يا سيدي .

قال الراهب الشيخ : وجئت تسأل عن الهداية في بُصرى .

قال نعم : قال : ولم لم تعتنق النصرانية يا بني ؟ قال زيدٌ في صراحة : لقد اعتنقها أخي ورقة بن نوفل ، ولكني أحب أن أكون على دين إبراهيم ، الذي بنى البيت الحرام ، ورفع قواعده ، وأذن في الناس بالحج !

سكت الشيخ الراهب ، وقال في هدوء : كلنا نحب إبراهيم ، فهو أبو الأنبياء ، ولكني أعجب لأمرك !

قال زيد : وفيم العجب ؟ فرد الراهب : جئت من مكة إلى بُصرى تسأل عمن يجدد دين إبراهيم ، مع أن نبيًا بمكة قد حان موعد ظهوره ، سيقوم بدعوة إبراهيم ، وقد عرفنا نبأه في صحف التوراة والإنجيل .

ارجع إلى بلدك يا زيد ، فالماء قريبٌ من منزلك ، وقد بعدت عنه كثيرًا كثيرًا ..

قال زيد في رقة : أحقٌّ ما تقول يا أبتاه !

قال الشيخ : ولماذا لا أقول الحق ، أنا أنتظر في هذا الدير سماع البشرى بمقدم النبي الجديد ، فارجع إلى بلدك يا زيدُ فقد تراه ! إن وقته قد حان .

قال زيد : ألا أذهب إلى راهب دمشق ؟ فنظر إليه راهب حمص ، وقال : إنك لعنيد ليس لدى راهب دمشق غيرُ ما لدي ، اقض معنا يومًا أو يومين لنفيك حق الضيافة ثم ارحل إلى بلدك بسلامة الله .

قال زيد : هيهات هيهات أن أصبر يومًا أو يومين ، لابد أن أعود ثانية من الآن ، لقد كان الماء على ضربة معول في أرضي التي أسكنها ، وإني لأتوق إلى ارتشاف الماء . ورأى زيد قافلة تأخذ طريقها إلى مكة ، وما يحيط بها من القرى ، فانتظم في ركبانها ، وأشواقه لا تجعله يستقر ناعمًا بالهدوء ، وكان يهتف باسم الله إذا غلبه الحنين ثم يصبح قائلاً : متى النور يا ظلمات ؟

متى النور يا ظلمات ؟

وكلما تقدمت القافلة في السير نزل بعض ركابها ، حتى إذا بلغت ديار بني كلب لم يبق غير زيد ورفيق له ، فقال له صاحب العير لن أذهب إلى مكة بشخصين اثنين ، فخذا طريقكما راحلين إلى بلدكما ، وصمم وأكد ، فنزل الصاحبان !

ولكن إلى أين ؟ ليت القدر أمهل زيدًا حتى يصل إلى مبتغاه ، إن قطاع الطريق من لصوص الأعراب قد أخذوا على الرجلين طريقهما ، وظنوهما يخفيان مالاً في ثيابهما ، وليست بهؤلاء الأوغاد رحمةٌ حانية ، فتجمهروا عليهما ، وطغت الغلظة على قلوبهم ، فأعملوا فيهما السيف ، وتحقق زيد مصرعه ، فكان آخر ما قاله : ليت ولدي سعيد بن زيد يتبع رسول مكة فيكون عوضًا لي ، وأهنأ به في مرقدي البعيد .

ولم يجد الأعراب شيئًا من المال لدى الرجلين القتيلين ، فطرحوهما بالعراء ، ومرَّ بالطريق من أهل مكة من عرف زيد بن عمرو حين شهده منبطحًا في الخلاء ، فأخذ يسأل الناس عن أمره فعرف قصة اللصوص ، وأخبره منهم من سمع قوله الأخير عن ولده ، فأسف المكي أسفًا شديدًا ، ورجع إلى بلده ، لينتهي إلى منزل زيد ، وليبلغ أهله النبأ الفاجع وقد أدركت زوجه شدة خطئها معه ، وأنها كانت حربًا عليه ، فندمت وبكت ، وجاء ولده سعيد ، فعرف الخبر ، وسمع وصاة أبيه ، وجلس في ناحية يبكي وينشج ، وطار الخبر إلى ورقة بن نوفل ، فبكى صاحبه

بشعر حزين قال فيه :

رشدتَ وأنعمتَ ابن عمرو فإنما تجنبت تنّورًا من النار حاميًا
فأصبحت في دارٍ كريم مقامها تُعللُ فيها بالكرامة هانيا

(٣)

توالت الأيام سراعًا وظهرت دعوة رسول الله ﷺ في مكة فآمن به نفر قليل كانوا يجتمعون في دار الأرقم بن الأرقم المخزومي ، وعلم سعيد بن زيد بن عمرو نبأ الدعوة ، وما تحدَّث به الناس عن محمد ، فاجتمع بزوجته الشابة العاقلة فاطمة بنت الخطاب ، وكانت أختًا لعمر بن الخطاب فقال لها :

أي فاطمة : إن طيف أبي يراوحني ويغاديني منذ سمعت حديث محمد ، وقد قال وهو يلفظ أنفاسه : اللهم إن كنت قد حرمتني من هذا الخير فلا تحرم منه سعيدًا .

قالت فاطمة : وأنا لا أعلم من سيرة محمد قبل أن يقوم بهذا الأمر إلا الصدق والأمانة ، وكانت قريشٌ تصفه بالصادق الأمين فكيف يصدق مع الناس ولا يصدق مع رب السماء .

قال سعيد : زدتني إيمانًا فتحدثي : قالت : وكانت صواحبُ خديجة يعلمن عنها أنه كان يقري الضيف ، ويحمل الكل ، ويرعى الضعيف ، ويعين على نوائب الدهر ، وأنه كان يعتزل في جبل حراء ، كما فعل أبوك من قبل !

قال سعيد : إذا أسلمت وتبعت دين محمد ، أتكونين معي ؟

أم تكونين كوالدتي مع أبي ؟

قالت فاطمة : أنا معك ، وقد أحببت محمدًا وآمنت به ولكني أخفيت الأمر عنك! فابتسم سعيد ، وقال : من الصباح سأذهب إلى دار الأرقم ، وأعلن إسلامي وإسلامك ، وفعلاً ، لم يكد نور الشمس يملأ شعاب مكة ، حتى توجه سعيد إلى جبل أبي قبيس ، وبه دار الأرقم ، فسأل عن رسول الله ، وأعلن إيمانه ، ونطق بالشهادتين ، وأرسل محمد ﷺ معه خباب بن الأرت يُعلمه شيئًا من كتاب الله .

ولابد من الخبر أن يذيع ، وأن يتعالمه الناس ، وكان عمر بن الخطاب حينئذ لا يزال على الشرك ، ويضمر للدين الجديد كل عداوة ، وفيه حميةٌ وحفيظة ، فأراد أن يكون له شأن مع محمد وأصحاب دار الأرقم ، فامتشق سيفه ، وعلى وجهه مظاهر الغضب والحمية ، فقابله بعض عارفيه وسأله .

إلى أين يا ابن الخطاب ؟ لماذا تتقلد سيفك كأنك ذاهبٌ إلى معركة ؟

فقال عمر : معركةٌ فعلاً ، ولكنها مع محمد بن عبد الله ، هذا الذي سفَّه أحلامنا ، واحتقر آلهتنا !

أتقول إنك ذاهبٌ إلى محمد ؟ فأجاب فورًا : نعم ، وسيكون لي معه شأنٌ تتحدث به مكة في جميع مجالسها .

أليس الأولى أن تذهب إلى أختك فاطمة بنت الخطاب .

فارتاع عمر ، وقال : وما شأن فاطمة ؟ عجِّل أيها الرجل !

إنها على دين محمد ، وكذلك زوجها سعيد بن زيد بن عمرو . يقرءان القرآن ومعهما أحد أصحاب محمد يعلمهما حقائق الدين الجديد .

هذا هو المزعج حقًا ، والله لن أتركها أو تحيد عما صبأت إليه !

واتجه إلى بيت سعيد بن زيد ، وأخذ يقرع الباب قرعًا شديدًا ، أزعج من فيه ، فاتجه سعيدٌ ينظر من فرجة في الباب ، فرأى عمر متقلدًا سيفه ، فرجع حزينًا يقول لفاطمة : إنه عمر : إنه عمر !

قالت فاطمة في هدوء : وما شأنُ عمر معنا ؟! إننا على الحق وهو وقريش مع الباطل وخاف خبابٌ على نفسه فاختبأ في مكان قصي بحيث لا يراه عمر ، وتقدم سعيد إلى الباب ففتحه بحذر ، ودخل عمر يصيح : ما هذه الهينمة التي كنت أسمعها ؟! أكنتما تقرءان كلام محمد .

قالت فاطمة في بسالة : نعم يا عمر وأنا مسلمة ، وزوجي مسلم ، فلم يتمالك مشاعره ورفع يده إلى وجهها ، فضربها ضربةً أدمت وجهها ، وسال الدم منه .

فقال سعيد : دعها يا عمر فأنا على دين محمد مثلها ، فخف إليه ، ووطأه وطأً شديدًا ، فقامت فاطمة تدفعه عن زوجها ، وقالت : أتلطمني يا عمر وأنا أختك ؟! إن الحق في غير دينك

وأنا أتبع الحق ولن أحيد عنه ، إني لأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله !

فتحير عمر ماذا يفعل ؟ وقال أعطوني الكتاب الذي تقرءونه لأنظر ما فيه فقالت فاطمة في شجاعة : إنك رجسٌ ، وكتاب الله لا يمسه إلا المطهرون ، فقم واغتسل وتوضأ ، وكأن شيئًا غير طبيعي بدل شعور عمر ، فقام وتوضأ ، ثم قال : أين الكتاب ؟ فقدمت له فاطمة الصحيفة فأخذ يقرأ ، وكان ممن يجيد القراءة مع نفرٍ من القرشيين ، وأخذ يقرأ قول الله عز وجل : ﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ

لِذِكۡرِيٓ ﴾ [طه:١-١٤] .

هنا خشع عمر وقال : أين محمد ؟ دلوني على محمد ، فلما سمع خبابٌ ذلك خرج من مكمنه !؟ وقال : أبشرْ يا عمر فإني أرجو أن تكون دعوة رسول الله ﷺ لك يوم الخميس قد استجيبت ، لقد قال : اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بعمرو بن هشام ، فقال عمر : وأين رسول الله ؟ قال خباب : هو في الدار التي في أصل الصفا ، فانطلق عمر إلى دار الأرقم وأعلن إسلامه في مشهدٍ مؤثر يعرفه المسلمون .

ومن ذلك الحين وسعيدُ الذي لم تتجاوز سنه العشرين ، يعمل في حماية الإسلام ، ويهتدي بهدي رسوله الكريم ،وقد هاجر إلى المدينة مع من هاجر فرارًا بدينه ، وشهد المعارك كلها إلا معركة بدر ، فقد كان موكلاً بأمرٍ خطير أسنده إليه رسول الله ﷺ لثقته فيه ، ولم يكن يحب الإعلان ، بل يأتي كل أمره في السلم والحرب هادئًا لا يذكر عن نفسه شيئًا ، وهو أمرٌ عرفه عنه المسلمون فكانوا يكبرونه لتواضعه وخشوعه ، وقد تعتاده ، ذكرى أبيه زيد فتدمع عيناه ، ويُعزيه عنه أنه أنفذ وصاته ، وأنه سار على الصراط المستقيم .

ومع هذا التواضع المخلص ، فقد جاهد في سبيل الله بعد ارتحاله ﷺ إلى الملأ الأعلى ، جاهد في حروب الردة ، وفي حروب الفتح بفارس ، وفي حروب الروم بالشام ، وحفظ له التاريخ موقفين رائعين ، أحدهما : في معركة اليرموك ،

وثانيهما : في معركة دمشق .

أما معركة اليرموك فكانت من أحسم المعارك في تاريخ الإسلام ، فقد بلغ جنود الروم بها ما يزيد على مائتين وأربعين ألفًا من الجند ، بقيادة البرنس تيودور شقيق الإمبراطور هرقل ومعهم مئاتٌ من القسس والرهبان ينشدون الأناشيد الدينية ليشدوا أزر المقاتلين ، ورأى خالدٌ أن جيش المسلمين وعدده أربعةٌ وثلاثون ألف مقاتل لا تتمكن من الصمود أمام هذا الطوفان الهائل إلا بعزيمة من تأييد الله ، فجمع الأمراء ، وأعلمهم أن القيادة يجب أن توحد تحت أمير واحد ، وكان هو القائد المختار يوم الزحف ، فرتب الأمراء ، كلٌ أمير في مكانه يمنع ما خلفه ولا يترك موقعه ، ومن الحماسة المفرطة أن القرشيات من نساء مكة قد خرجن مع أزواجهن للتحميس ومداواة الجرحى ، فطلب خالدٌ منهن أن يرجمن من تحدثه نفسه بالفرار ، وحين دارت المعركة في اشد مواقف هولها ، وتساقط كثير من المسلمين ، هجم النساء فدخلن وسط الجند ، وأخذن يحمسن المجاهدين ، وفيهن من ماتت شهيدة تسيل دماؤها فتختلط بدماء الرجال ، فكان مشهدهن الرائع محذرًا من النكوص ، ولم تظهر الكفة الراجحة بدءًا في مهب العاصفة حيث دار القتال بين الغيوم المثارة ، والخيول الراكضة ، والسهام المتوالية ، وأدرك خالد بن الوليد أنه لابد من عمل جاد يحسم الأمر في هذا الاضطراب المزعج ، حين تراجعت فرسان الروم

أمام وطأة خيول المسلمين ، وابتعدوا عن صفوف المشاة التي تتبعهم فاتَّسَعَتْ فرجةٌ بين المشاة والفرسان اندفع منها خالد اندفاع الهول المبيد ، فكان مع رفاقه سدًا حائلاً بين المشاة والفرسان ، وتتبع الفرسان صفوة من الجنود في طليعتهم عكرمة بن أبي جهل ، فتساقطوا تحت وقع السهام ، وضرب السيوف ، وتأكدوا أن المشاة قد أبيدوا فتعاظم الهول ، وأرادوا الفرار فأفسح لهم المسلمون الطريق متظاهرين بالرجوع فاندفعوا إلى الميدان ثانية ، وهناك أطبق عليهم المسلمون فمات من مات ، وهرب من هرب ، وانتهت المعركة بفوز المسلمين .

وقبل أن يشتد الهول ، ويبدأ القتال كان سعيد بن عمرو بين المقاتلين ، وقد علم أن جيش الروم أضعاف أضعاف عدد المسلمين ، وأن نصارى غسان قد انضموا إلى الروم تحت قيادة جبلة بن الأيهم ، وأن الموقف ينذر بالمصاعب الخطيرة ، فتحير ماذا يصنع ؟ وأدركته حالةٌ محرجة تحدث عنها بصدق وإخلاص بعد الانتصار ، أجل بصدق وإخلاص ، فلم يزعم لنفسه شجاعة فدائية ، بل نقل الواقع كما كان ، قال سعيد :

لقد خرجت لنا الروم في جموع كثيرة لا يدرك لها أول من آخر ، ونظرنا إليهم فوجدناهم كالجبال التي تسد الأفق فما يزحزحها شيء ، ووقف أمامهم الأساقفة والبطارقة والقسس يحملون الصلبان ويجهرون بتلاوة الأناجيل فيردد الجيش الدعوات في صوتٍ مرتفع كأنه هزيم الرعود ، فكاد يحدث في نفوسنا رهبة

وخشية لولا أن الله قد ثبتنا باليقين ، ولاحظ أبو عبيدة بن الجراح ما وقع في نفوس المسلمين من الخشية والارتباك ، فجمع الناس ووقف خطيبًا يحض على الاستشهاد ، وما عهدناه خطيبًا ثائرًا إلا يوم اليرموك ، فقال فيما قال :

« عباد الله ، اصبروا ، فإن الصبر منجاة من الكفر ، ومرضاة لله ، ومدحضة للعار ، واستعدوا للقتال ، فأشرعوا الرماح ، واستتروا بالتروس ، والزموا الصمت إلا من ذكر الله في نفوسكم حتى آمركم ببدء المعركة .

وفي هذه اللحظة خرج رجلٌ من صفوف المسلمين ، وكأنه أدرك ما نزل بالمسلمين من خشية العدد الهائل الذي زحف به العدو فقال لأبي عبيدة :

أيها الأمير إني أزمعت أن ألقى الله في هذه الساعة حين أهجم على القوم فأنال شرف الاستشهاد ، فهل لك من رسالة تبعث بها معي إلى رسول الله ﷺ حين ألقاه .

ففرح أبو عبيدة بحماسة هذا البطل وقال مبتسمًا : نعم تقرئه مني السلام ومن المسلمين جميعًا ، وتقول له يا نبي الله : إنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا .

قال سعيد بن زيد : فما سمعت هذا الكلام حتى أخذتني حمية الجهاد ، ودبت في نفسي حماسة شديدة كأنها النار المشتعلة ، ونظرت فوجدت القائل ، يهجم على صفوف العدو غير وان ،

ويمضي إلى لقاء أعداء الله ، فثبت قدمي في الأرض ، وجثوت على ركبتي ، وأشرعت رمحي ، وطعنت أول فارس أقبل علينا حتى إذا قضيت أربي من ذلك ، وثبت إلى لقاء العدو بالميدان ، وقد نزع الله من صدري كل خوف ، وتتابع المسلمون من خلفي وكان اليوم عظيمًا بانتصاره وبشهدائه ، حتى انجلت المعركة وكتب الله لنا النصر .

هذا الموقف الذي صوره سعيد يدل على حماسة الإيمان من ناحية ، وتواضع المؤمن من ناحية أخرى ، فلم يشأ الرجل أن يقول : إنه قدم على القتال جريئًا غير هياب ، ولم يقل أنه أثار الحمية في النفوس ، ولكنه سجل الواقع حين اعترف لهذا الفدائي بما قال ، وحين وصف أثر حديثه لأبي عبيدة في نفسه إذ أذكى في صدره لهيبًا لم ينطفئ إلا حين خاض الميدان مع المجاهدين ، كما أن قذفه بنفسه في أتون المعركة بعد أن نفد ما بيده من السهام يدل على رغبة في الاستشهاد ، أرثها ذلك الفدائي المقدام ، ولكن الله قد شاء أن ينعم بالحياة ، وأن يذوق حلاوة الانتصار على الأعداء .

وبعد انتهاء معركة اليرموك توالت انتصارات المسلمين ، وحانت المعركة الفاصلة على أبواب دمشق ، وتهيأ القوم للقتال ، ولكن أبواب المدينة كانت حصينة ، وقد أغلقت في وجوه المجاهدين ، واستمر الحصار سبعين يومًا ، حتى نفد صبر المسلمين ، وكان الروم يظنون أن قسوة البرد ، وتراكم الثلوج

سيدفع المسلمين إلى فك الحصار ، ويمضون دون قتال ، ولكن خالدًا انتهز فرصة احتفال الروم داخل الأسوار بأحد الأعياد ، وانصرافهم عن مراقبة الحصون والأسوار ، فألقى بحبلين طويلين إلى أعلى السور ، صعد عليهما القعقاع بن عمرو التميمي بطل الإسلام في معارك فارس ، فأخذ ببقية الحبال ، وركزها على الأسوار ، حتى تهيأت مجموعةٌ كبيرة صعد عليها المسلمون خلف خالد بن الوليد ، ثم قفز المجاهدون إلى داخل الأسوار ، وأعلنوا انتصارهم بالتكبير والتهليل ، وعمدوا إلى الأبواب فحطموها ، وتدافع الجيش من الخارج كالطوفان ووجد الروم أنفسهم في مهب الموت فأعلنوا التسليم ، وطلبوا الحماية ، وكتبوا شروط الصلح ، وبمقتضاها خرج الروم من دمشق ، وأصبحت في حوزة المسلمين ، واضطر أبو عبيدة وخالد إلى الانتقال إلى معركة تالية ، فأقام سعيد بن زيد أميرًا على المدينة ، فكان أول من ولي إمرة دمشق من المسلمين ، وقد سار مع الدمشقيين سيرًا إنسانيًا رفيعًا يمثل سماحة الإسلام ، فاعتنق الكثيرون دين الحنيفية ، وأخذ سعيد يعلمهم فرائض العبادة ، ويؤمهم في الصلاة ، ويدا من تواضعه ما حبب القوم في أميرهم السمح ، بعد أن كانوا يشهدون غطرسة القادة من الروم ، والذيول من بني غسان ، وكأنهم وازنوا بين الحالين فعرفوا أن الحق مع الفاتحين .

طالت سنو سعيد حتى أدرك عهد مروان بن الحكم بالمدينة في عهد بني أمية ، وكان سعيد معتزلاً القوم ، إذ دُعي إلى المشاركة

في بعض مسائل السياسة ، فلم يقبل ، لأن الوجوه تغيرت ، والحكم قد انتقل من خلافة إلى ملك ، وما هكذا كان الأمر في عهد الخلفاء الراشدين ، وكانت له أرضٌ بالمدينة هي ما اشتراه من نصيبه في غنائم الغزو في فارس والشام فعكف على استثمارها ، وعاش كريم النفس بما يأخذ من ريعها ، دون أن يمد يده إلى هبات الخلافة ، ومغريات السلطان ، وكأن بعض الحسدة قد شاء أن يكدر عليه صفوه ، فوعز إلى امرأة تُدعى (أروى بنت أوس) وكانت جارةً لسعيد فزعمت أنه اغتصب بعض أرضها ، وضمه إلى أرضه ، وأحضرت من شهد لها زورًا ، وتعجب سعيد كيف يقوم جماعةٌ من المسلمين بشهادة الزور ، ودينهم الإسلام ! فتقدم إلى مروان بن الحكم فقال له : يا مروان ؟ كيف أظلم أروي بنت أوس فأضم بعض أرضها إلى أرضي ، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« من ظلم شبرا من أرض ، طوقه الله يوم القيامة من سبع أرضين ، اللهم إنها قد زعمت أني ظلمتها ، فإن كانت كاذبة فأعم بصرها ، وأظهر حقي واضحًا بين المسلمين » .

ولم تمض أيام حتى سال ماء العقيق بموج لا عهد للمدينة بمثله من قبل ، فكشف عن الحد الذي كانا يختلفان عليه ، ووضح للناس جميعًا أن سعيدًا كان صادقًا وقد تحققت دعوة سعيد ، فعميت المرأة في آخر حياتها .

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : كنا ونحن غلمان

نسمع المسلم يقول لأخيه المسلم : إن ظلمتني دون حق فأعماك الله كما أعمى أروى بنت أويس !

هذا سعيدٌ بن زيد بن عمر ، وهذه سيرته متصلةً بسيرة أبيه ، ووالده من الحنفاء قد هدته الفطرة إلى أن يتعبد على دين إبراهيم ، وأوصى نجله باتباع النبي الذي بشرت به التوراة والإنجيل ، وقد كان سعيدٌ من الإيمان واليقين حيث صار من العشرة الأوائل المبشرين برضوان الله في جنات النعيم .

*****



الفهرس

الفهرس

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة

قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم :

يَدْخُلُ الجَنَّةَ أَقْوَامٌ أَفْئِدَتُهُمْ مِثْلُ أَفْئِدَةِ ا

قيل متوكلون .. وقيل : قلوبهم رقيقة




دار الكلمة للنشر والتوزيع مصر - المنصورة
محمول ٠١٠٩٧٠٧٤٩٥ ص.ب ١٦٧